النص الكامل

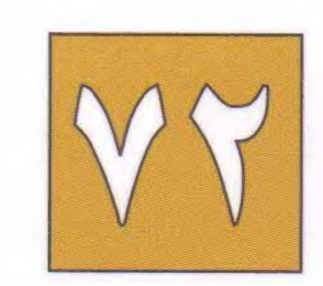
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

انْتِقَامُ العَدَالَةَ









Agatha Christie



Nemesis

انْتِقامُ العَدالَة

قرأت الآنسة ماربل الخطاب مرة أخرى. كان خطاباً غريباً من السيد رافائيل الذي مات منذ أيام والذي عرفته الآنسة ماربل قبل سنوات عديدة حين ساعدها في حل لغز جريمة في البحر الكاريبي.

الخطاب يقول إن للآنسة ماربل حاسة لا تخطئ في إدراك الشر وعزيمة لا تعرف التردد في إحقاق العدالة، ويطلب منها التحقيق في جريمة قتل.

لكن الخطاب لا يذكر شيئاً عن الجريمة ولا عن القاتل، فما الذي يمكن لها أن تفعله؟

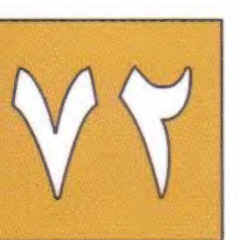
MARPLE

الآنسة ماربل

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

ISBN 2-1957-2681-2



الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers



US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

أغاثا كريستي

انْتِقامُ العَدالَة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧١ بعنوان
Nemesis

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثانية

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

انْتِقامُ العَدالَة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧١

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

عرض

كان من عادة الآنسة جين ماربل عصر كل يوم تصفّح الصحيفة الثانية. كانت تستلم صباح كل يوم صحيفتين عند باب بيتها، وكانت الآنسة ماربل تقرأ الصحيفة الأولى منهما وهي تشرب فنجان الشاي في الصباح الباكر، هذا إن جاءتها في الوقت المحدد؛ فالصبي الذي يوزع الجرائد لم يكن يستقر على حالٍ في توقيت عمله. وفوق ذلك غالباً ما كان صبي جديد يتولى الأمر أو صبي احتياطي يقوم مقام صاحبه مؤقتاً في ذلك، وكان لكل واحد من هؤلاء أفكاره الخاصة حول خط التوزيع الذي يسلكه في عمله، وربما كان يريد كسر الرتابة اليومية.

لكن الزبائن الذين اعتادوا قراءة صحيفتهم في وقت مبكر من الصباح حتى يتلقفوا الأخبار المثيرة قبل مغادرتهم إلى الحافلات أو القطارات أو وسائل المواصلات الأخرى التي توصلهم إلى أماكن عملهم، هؤلاء الزبائن كانوا يتضايقون إن تأخرت الصحف عنهم. أما نساء قرية سينت ميري ميد ممّن بلغن أواسط العمر أو الكهولة

واستقرت بهن الحياة في منازلهن فكنّ يفضلن غالباً قراءة الصحيفة وهن جالسات على طاولة الإفطار.

أما اليوم فقد قرأت الآنسة ماربل الصفحة الأولى وبعض الموضوعات الأخرى في الصحيفة اليومية التي تسميها مجازاً «صحيفة كل لون»، في إشارة ساخرة إلى صحيفتها المعتادة «نيوز غيفر» التي تغيّر مالكها فباتت تنشر من الموضوعات ما أزعج الآنسة ماربل وكثيراً من صديقاتها، بدءاً بخياطة ملابس الرجال وأزياء النساء وموضوعات الإثارة النسوية ومسابقات الأطفال، وانتهاءً برسائل الشكاوى من النساء. وقد أفلحت الصحيفة تماماً في تغييب أية أخبار حقيقية إلاّ على الصفحة الأولى فقط أو في زاوية غير ظاهرة يستحيل العثور عليها. وبما أن الآنسة ماربل من الطراز القديم فقد كانت تفضّل أن تكون صحيفتها صحيفة أخبار فعلاً.

وعند العصر، بعد أن أنهت تناول الغداء وبعد أن نامت في غفوة قصيرة لعشرين دقيقة على كرسي مرتفع الظهر اشترته خصيصاً ليناسب ما يعانيه ظهرها من روماتزم، بعد ذلك كله فتحت صحيفة «التايمز» التي ما تزال تُحتمَل أو تسمح بقراءة متأنية مريحة، ولكن ذلك أيضاً لا يعني أن «التايمز» قد بقيت كعهدها القديم.

إن ما يثير الجنون في هذه الصحيفة هو أنك لم تعد تجد فيها مكان موضوعاتك. وبدلاً من أن تبدأها من الصفحة الأولى وتمضي بها وأنت تعرف أين توجد بقية الموضوعات بحيث تنتقل من موضوع إلى موضوع آخر تريده بسهولة، بدلاً من ذلك حدثت تغييرات غريبة على هذا السياق الذي استقر عبر الزمن واكتسب حظوة وألفة؛ فقد أصبحت هناك فجأة صفحتان مكرَّستان للرحلات والسفر، وأصبحت

الرياضة بارزة أكثر مما كانت في أي وقت مضى، فيما حافظت صفحة المحاكم والقضايا على شيء من التقاليد القديمة. أما المواليد والزيجات والوفيات (والتي شغلت في وقت ما جُلّ اهتمام الآنسة ماربل بسبب موقعها البارز في الصحيفة) فقد نُقلت إلى مكان آخر في «التايمز» على الرغم من أنها استقرت مؤخراً في الصفحة الأخيرة.

كانت الآنسة ماربل تركز انتباهها أولاً على الأخبار الرئيسية في الصفحة الأولى، ولم تكن تقف عندها طويلاً لأن هذه الأخبار قريبة من الأخبار التي قرأتها في الصباح مع تغيّر بسيط في أسلوب صياغتها. وتابعت بنظرها قائمة المحتويات: المقالات والتعليقات والعلوم والرياضة، ثم اتبعت برنامجها المعتاد فقلبت الصحيفة لتلقي نظرة سريعة على المواليد والزيجات والوفيات، ثم فتحت الجريدة على صفحة رسائل القراء حيث تجد دائماً شيئاً تستمتع به. ومن هناك مرت على أخبار المحاكم، حيث وجدت في تلك الصفحة أيضاً أخبار اليوم من قاعات العرض والمزاد، ويكون في هذه الصفحة في الغالب مقالٌ علمي قصير، لكنها لم تكن تعتزم قراءته في ذلك اليوم فنادراً ما يكون مفهوماً لديها.

وبعد أن قلبت الجريدة إلى الصفحة الأخيرة كعادتها (حيث أخبار المواليد والزيجات والوفيات) فكرت الآنسة ماربل في نفسها كما اعتادت دوماً: "من المؤسف حقاً أن لا يتركز اهتمامي هذه الأيام إلاّ على الوفيات"! الناس يُرزقون بأطفال، لكن الذين يرزقون بأطفال لا تعرفهم الآنسة ماربل في الغالب لأنهم من جيل غير جيلها. ولو كان هناك عمود عن الأطفال تُذكَر فيه أسماء أجدادهم فعندها قد تسعد الآنسة ماربل بالتعرف عليهم، وربما فكرت في نفسها عندئذ: "حقاً!

ها هو الحفيد الثالث لماري بريندار جاست"... ولكن حتى هذا الأمر ربما كان مستبعَداً.

مرت على أخبار الزيجات بسرعة، وهذه أيضاً دون تركيز شديد لأن معظم بنات أو أبناء صديقاتها المسنّات قد تزوجوا منذ سنوات. ثم انتقلت إلى عمود الوفيات وأوْلَته اهتماماً أكثر جدية. والواقع أنها أعطته من الاهتمام ما يكفي للتأكد من أنها لم تتجاوز أيّ اسم: ألواي، أنغوباسترو، بارتون، بِدْشو، كاربنتر، كامبرداون، كليغ... كليغ؟ هل هي واحدة من عائلة كليغ الذين تعرفهم؟ لا، لا يبدو ذلك. جانيت كليغ من مكان ما من يوركشاير.

مضت في قراءة الأسماء: ماكدونالد، ماكنزي، نيكلسون، نيكلسون؟ لا، ليس نيكلسون الذي تعرفه. ليندا أورمارود؟ لا، إنها لا تعرفها. كوانترل؟ يا إلهي! لا بد أنها إليزابيث كوانترل... في الخامسة والثمانين من عمرها. حقاً! كانت تظن أن إليزابيث كوانترل قد ماتت منذ سنوات. غريب أن تعيش كل هذه المدة؛ فقد كانت امرأة ناعمة رقيقة ولم يتوقع أحد أنها ستعمّر طويلاً.

ومضت في القراءة من جديد: رايس، ريدلي، رافائيل... رافائيل؟ تحرك في نفسها شيء. كان ذلك الاسم مألوفاً لديها. رافائيل من بيلفورد بارك في ميدستون. بيلفورد بارك في ميدستون؟ لا، إنها لا تتذكر ذلك العنوان.

حسناً، ماذا أيضاً؟ جيسن رافائيل. إنه اسم غير عادي، اعتقدت أنها سمعت بذلك الاسم في مكان ما. وماذا أيضاً؟ رايلاند، إيميلي رايلاند... لا، إنها لا تعرف واحدة باسم إيميلي رايلاند.

وضعت الآنسة ماربل صحيفتها وألقت نظرات لامبالية على الكلمات المتقاطعة بينما ظلت في حيرتها وهي تفكّر: لماذا كان اسم رافائيل مألوفاً لديها؟ قالت الآنسة ماربل وهي تعرف -بطول الخبرة- كيفية عمل ذاكرة كبار السن: سأتذكره؛ سأتذكره بلا شك.

نظرت إلى الحديقة خارج النافذة، ثم حولت نظراتها وحاولت نسيان الحديقة. كانت حديقتها مصدر سعادة كبيرة لها، إضافة إلى ما بذلته فيها من الجهد والتعب منذ سنوات طويلة، أما الآن فمحظور عليها بسبب تعليمات الأطباء أن تعمل في الحديقة. حاولت ذات مرة محاربة هذا الحظر لكنها توصلت إلى نتيجة تقول إن من الأفضل لها أن تلتزم بما قيل لها. كانت قد وضعت كرسيها في زاوية لا تستطيع منها النظر إلى الحديقة بسهولة إلاّ إذا كانت تريد تماماً النظر إلى شيء محدد بعينه، وتنهدت وأخذت حقيبة الصوف وأخرجت منها سترة طفولية تعمل بها أوشكت على الانتهاء منها.

كانت قد انتهت من حياكة الظهر والصدر، وكان عليها الآن أن تمضي في نسج الأكمام. إن عمل الأكمام مملّ دائماً، كما أن الكمين كليهما متشابهان. نعم، هذا عمل ممل جداً. ولكنه كان صوفاً وردياً جميلاً. صوف وردي؟ لحظة، لحظة... بماذا يذكّرها الصوف الأحمر؟ نعم، نعم؛ إنه يرتبط بذلك الاسم الذي قرأته قبل قليل. صوف وردي، بحر أزرق، البحر الكاريبي... شاطئ رملي، أشعة الشمس، وكانت تغزل الصوف هناك... وبالطبع تذكرت السيد رافائيل في رحلتها تلك إلى البحر الكاريبي. جزيرة سينت هونري، دعوة من ابن أخيها ريموند... وتذكرت جوان زوجة ريموند وهي تقول: "لا تتدخلي في أي جريمة قتل أخرى يا عمتي جين؛ إنه غير جيد لك". حسناً، هي لم ترغب في التدخل في أية جريمة، ولكن

الأمر وقع... هكذا بصورة عفوية، هذا كل ما في الأمر. وقد وقع ذلك لأن رائداً عجوزاً ذا عين زجاجية أصرّ على إخبارها ببعض القصص الطويلة المملة. يا لذلك الرائد المسكين! ما اسمه؟ لقد نسيت ذلك الاسم الآن. السيد رافائيل وسكرتيرته السيدة... السيدة والترز، نعم، إيستر والترز، وذلك الرجل جاكسون الذي يقوم بتدليكه. لقد تذكّرت كل شيء... حسناً، مسكين السيد رافائيل. إذن فقد مات السيد رافائيل؟ كان يعرف أنه لن يلبث أن يموت، لقد أخبرها بذلك في الواقع. يبدو أنه عاش أكثر مما توقع له الأطباء، لقد كان رجلاً قوياً، رجلاً عنيداً، رجلاً ثرياً جداً.

ظلت الآنسة ماربل مستغرقة في تفكيرها بينما يداها تعملان بالصنارة بشكل منتظم، لكن عقلها لم يكن مركزاً على غزل الصنارة. كانت تركز تفكيرها على السيد رافائيل الراحل وما يمكنها أن تتذكره عنه. ليس من السهل نسيان ذلك الرجل؛ كانت تستطيع استحضار صورته في ذهنها جيداً. نعم، شخصية مميزة جداً، رجل صعب المراس سريع الغضب، وأحياناً يُظهر وقاحة تثير الصدمة. ومع ذلك فإن أحداً لم يُظهر استياء من وقاحته تلك. تذكرت ذلك أيضاً، لم يستاؤوا من وقاحته لأنه كان واسع الثراء. نعم، كان ثرياً جداً. كان قد أحضر سكرتيرته معه وغلاماً مؤهلاً لأعمال التدليك، ولم يكن قادراً على التنقل بشكل جيد دون مساعدة من أحد.

كان مدلّكه ذاك شخصية تثير الريبة كما اعتقدت الآنسة ماربل، وكان السيد رافائيل شديد الوقاحة معه أحياناً ولكن المدلّك لم يَبدُ مهتماً لذلك أبداً، وذلك يعود -أيضاً- إلى ثراء السيد رافائيل بالطبع.

كان السيد رافائيل قد قال: "لا أحد سيدفع له نصف ما أدفعه، وهو يعرف هذا، لكنه بارع في عمله". وتساءلت الآنسة ماربل إن كان جاكسون (أو جونسون؟) قد ظل يعمل عند السيد رافائيل أم لا؟ لا بد أنه ظل يعمل عنده... سنة أخرى؟ سنة وثلاثة أشهر أو أربعة. فكرت أنه ربما لم يدم عنده كل هذه المدة، فالسيد رافائيل كان يحب التغيير دائماً؛ كان يسأم من الناس ويسأم من سلوكهم ومن وجوههم ومن أصواتهم.

كانت الآنسة ماربل تفهم ذلك؛ فقد انتابها الشعور نفسه في بعض الأحيان. رفيقتها تلك، تلك المرأة اللطيفة المصغية التي تثير الجنون بصوتها الذي يشبه هديل الحمام. قالت الآنسة ماربل: آه، يا له من تغير نحو الأفضل منذ...

يا إلهي! لقد نسيت اسمها الآن. الآنسة... الآنسة بيشوب؟ لا، ليس الآنسة بيشوب. يا إلهي، كم هذا صعب!

عادت بتفكيرها إلى السيد رافائيل وإلى... لا، لم يكن اسمه جونسون بل جاكسون، آرثر جاكسون. مرة أخرى قالت الآنسة ماربل في نفسها: آه، يا إلهي! دائماً أخلط بين الأسماء. إن التي كنت أفكر فيها اسمها الآنسة نايت وليس الآنسة بيشوب. لماذا اعتقدت أن اسمها الآنسة بيشوب؟ وما هو اسم تلك السكرتيرة اللطيفة التي كانت تعمل عند السيد رافائيل؟ آه، نعم، إيستر والترز، هذا صحيح. ترى ماذا حدث لإيستر والترز؟ هل ورثت نقوداً؟ ربما ورثت أموالاً الآن.

لقد تذكرت أن السيد رافائيل أخبرها شيئاً من هذا أو أنها هي التي أخبرتها... يا إلهي! إن ذهن المرء يصبح مشوّشاً عندما يحاول أن يتذكر شيئاً بدقة. إيستر والترز، لقد ضربها ضربة موجعة ذلك

الحدث الذي وقع في البحر الكاريبي، ولكن لا ريب أنها تغلبت عليه. كانت أرملة، أليس كذلك؟ لقد تمنت الآنسة ماربل لو أن إيستر والترز تزوّجت ثانية رجلاً لطيفاً ودوداً يُعتمَد عليه. لكن هذا بدا أمراً بعيد الاحتمال؛ فقد كانت إيستر والترز عبقرية في الإعجاب بالرجل غير المناسب لكي تتزوجه!

عادت الآنسة ماربل إلى التفكير في السيد رافائيل. كان خبر التعزية يقول: «الرجاء عدم إرسال ورود»، وهي ما كانت سترسل وروداً على أي حال، فقد كان يستطيع شراء كل مشاتل الزهور في إنكلترا لو أراد. وعلى أية حال لم تكن بينهما تلك العلاقة الوثيقة، فهما لم يكونا صديقين ولم تكن بينهما علاقة مودة؛ كانا مجرد... حليفين. نعم، حليفان لفترة قصيرة جداً، فترة مثيرة جداً. وكان نِعْمَ الحليف.

كانت قد أدركت ذلك فيه، أدركت ذلك عندما ذهبت تركض في ليلة مظلمة حارة على شاطئ الكاريبي وجاءت إليه. نعم، لقد تذكرت؛ فقد كانت تلبس شال الصوف الوردي ذاك تلفّ به رأسها، ونظر إليها ثم ابتسم، وبعد ذلك قالت كلمة جعلته يضحك. لكنه لم يضحك في النهاية؛ نعم، لقد فعل ما طلبته منه. آه! كان عليها أن تعترف أن الأمر كله كان مثيراً جداً. ولم تخبر ابن أخيها أبداً أو زوجته بالأمر، ألم يطلب الاثنان منها أن لا تفعل ما فعلته؟

أومأت الآنسة ماربل، ثم همست تحدّث نفسها: مسكين السيد رافائيل. أرجو أن لا يكون قد عانى قبل وفاته. ربما لم يعانِ؛ ربما ظلّ الأطباء يعطونه المهدّئات والمسكّنات حتى يموت ميتة سهلة. لقد عانى كثيراً في الأسابيع التي قضاها في الكاريبي؛ كان يعيش في ألم وصراع دائماً. لقد كان رجلاً شجاعاً.

رجلٌ شجاع. لقد تأسفت على وفاته لأنها كانت تعتقد أنه بالرغم من كبر سنه ومرضه فإن العالم قد خسر شيئاً برحيله. لم تكن تعرف كيف كان الرجل في عمله، ربما كان قاسياً ووقحاً ومتسلطاً وعدوانياً، ولكنه... ولكنه كان صديقاً طيباً ويوجد في داخله عطفٌ عميق كان حريصاً جداً أن لا يظهره إلى السطح. كان رجلاً أعجبها ونال احترامها. لقد أسفت على رحيله وكانت ترجو أن لا يكون قد اهتمّ كثيراً أو عانى كثيراً قبل موته، ولا بد أن جثته قد أحرقت الآن ووُضعت في قبو رخامي كبير وأنيق. بل هي لم تعرف إن كان الرجل متزوجاً أو غير متزوج، لم يذكر أمامها زوجة أو أطفالاً. أكان رجلاً وحيداً أم أنه كان في حياته من المشاغل ما لم يشعر معه بالوحدة؟

جلست هناك وقتاً طويلاً عصر ذلك اليوم تتساءل بخصوص السيد رافائيل. لم تتوقع رؤيته مرة ثانية بعد عودتها إلى إنكلترا، ولم تره ثانية أبداً، ومع ذلك كانت تستطيع في أي لحظة وبطريقة غريبة أن تشعر بأنها على اتصال معه. لو كان قد حاول الاتصال بها أو اقترح لقاءها بسبب شعوره -ربما- برابطة الحياة التي أنقذاها، أو بسبب رابطة أخرى. رابطة...

قالت الآنسة ماربل مذعورة من الفكرة التي خطرت لها: لا يمكن أن تكون بيننا رابطةُ القسوة بالتأكيد!

هل كانت هي، جين ماربل، أو هل كان بوسعها أن تكون... قاسية؟ قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: أتعرفين؟ إنه أمرٌ غريب لم أفكر فيه من قبل أبداً. أظن أنني ربما كنت قاسية!

فُتِحَ البابُ وأطلّت منه امرأة ذات شعر أسود متجعد. كانت تلك

هي شيري، الخليفة العتيدة للآنسة بيشوب... أو الآنسة نايت. قالت شيري: هل قلت شيئاً؟

ردّت عليها الآنسة ماربل: كنت أحدث نفسي، لقد تساءلت إن كان بوسعي أن أكون قاسية.

- ماذا، أنت؟ أبداً! إنك اللطف بعينه.

- ومع ذلك، أعتقد أنني قد أكون قاسية إن كان هناك سبب يدعو لذلك.

- وما هو السبب الذي يدعو لذلك؟

- في سبيل العدالة.

قالت شيري: لقد كان لديك بعض القسوة على غاري هوبكينز الصغير عندما أمسكتِ به وهو يعذّب قطته ذلك اليوم. لم أكن أعرف أنك يمكن أن تصلي إلى هذا الحدّ مع أحد! لقد خاف منك كثيراً ولم ينسَ ذلك الموقف منك أبداً.

- أرجو أن لا يعود لتعذيب القطط مرة أخرى.

- إذا أراد تعذيب قطة فسوف يتأكد أنك لست في مكان قريب. الواقع أنني لست متأكدة إن كان هناك ولدٌ يمكن أن يخاف كما فعل ذلك الصبي. عندما يراك أي شخصٍ وأنت تحملين هذا الصوف والصنانير فإنه سيظن أنك كالحمل الوديع، ولكنني أحسب أنك أحياناً تتصرفين كالأسد إذا استثارك أحد.

بدت الآنسة ماربل مرتابة بعض الشيء ولم تستطع أن تتصور نفسها في ذلك الدور الذي أسندته لها شيري قبل قليل. تذكرت

لحظات مختلفة؛ ذات مرة غضبت غضباً شديداً من الآنسة بيشوب... نايت. لكن غضبها اتخذ شكل ملاحظات ساخرة فقط. أما الأسُود فيفترض أنها لا تستخدم السخرية؛ ليس في الأسد ما يدل على السخرية، إنه يقفز ويزأر ويستخدم مخالبه وينهش فريسته.

قالت الآنسة ماربل: في الواقع لا أظن أنني تصرفت أبداً هكذا.

فكّرت الآنسة ماربل بتلك النقطة من جديد عندما كانت تسير في حديقتها بخطوات متثاقلة ذلك المساء ومشاعر الغضب تلك تعتمر في صدرها. ربما كانت نباتات أنف العجل البيضاء هي التي ذكّرتها بها، والحق أنها كانت أخبرت العجوز جورج المرة تلو الأخرى بأنها لا تريد تلك النباتات القبيحة التي يبدو دوماً أن البستانيين مولعون بها كثيراً. كانت قد طلبت منه زراعة نباتات أنف العجل الصفراء لا هذه البيضاء. وقالت الآنسة ماربل بصوت عال: الصفراء!

التفت امرأة كانت تسير في الطريق خارج حديقة البيت وقالت: عفواً؟ هل قلتِ شيئاً؟

التفتت الآنسة ماربل إليها وقالت: كنت أحدث نفسي.

كانت هذه امرأة لا تعرفها الآنسة ماربل، وهي التي تعرف معظم النساء في قرية سينت ميري ميد. كانت تعرفهن بالشكل إن لم تكن معرفة شخصية. كانت امرأة قوية البنية تلبس تنورة بالية وحذاء ريفياً جيداً وسترة زمردية اللون ووشاحاً من الصوف. وأضافت الآنسة ماربل تقول: أخشى أن الناس في مثل سني يفعلون ذلك.

قالت المرأة الأخرى: إن حديقتك هذه جميلة.

- ليست بهذا الجمال الآن. عندما كنت أقوم على رعايتها بنفسي...

- آه، أعرف؛ أفهم شعورك. أظن أن لديك واحداً من هؤلاء الذين أسميهم تسميات عديدة كلها مقذعة، أعني أولئك البستانيين العجائز الذين يدّعون أنهم يعرفون كل شيء عن أعمال الحدائق. بعضهم يعرف فعلاً والبعض الآخر لا يعرف أي شيء أبداً. إنهم يأتون لشرب الشاي ولا يعملون في الحديقة إلاّ القليل، بعضهم لطيف ومع ذلك فإن تصرفاتهم تثير السخط عموماً. إنني ماهرة جداً في أعمال الحديقة.

سألتها الآنسة ماربل ببعض الاهتمام: هل تعيشين هنا؟

إنني أقيم عند سيدة تدعى هيستنغز. أظن أنني سمعتها تتحدث عنك، أنت الآنسة ماربل، أليس كذلك؟

- آه، بلى.

- لقد جئت للعمل مساعدة بستاني. اسمي بارتليت بالمناسبة، الآنسة بارتليت. والحق أنه لا يوجد عمل كثير عند السيدة هيستنغز، إنها تحب النباتات التي تعمر عاماً واحداً فقط، وهو أمر لا يشغل كل وقت المرء. وأنا أقوم ببعض الأعمال الغريبة إضافة إلى عملي في الحديقة... التسوق وأشياء كهذه. وعلى أية حال إذا أردتني أن أعمل لديك في أي وقت فإنني أستطيع القدوم عندك للعمل ساعة أو ساعتين. أعتقد أنني أفضل من أي بستاني لديك الآن.

قالت الآنسة ماربل: قد يكون هذا أمراً سهلاً. أنا أحب الأزهار أكثر ولا أهتم بالخضراوات كثيراً.

- أنا أزرع الخضراوات للسيدة هيستنغز، وهو عمل مضجر لكنه ضروري. حسناً، عليّ أن أذهب.

تفحصتها الآنسة ماربل من رأسها حتى أخمص قدميها وكأنها تتذكرها، ثم أومأت برأسها مبتهجة وانطلقت ذاهبة.

السيدة هيستنغز؟ لم تستطع الآنسة ماربل أن تتذكر صاحبة هذا الاسم. لا بد أن السيدة هيستنغ هذه ليست صديقة قديمة لها، لا شك أنها ليست ممن جمعهن مع الآنسة ماربل حب الحدائق. آه، طبعاً؛ ربما كانت تسكن في أحد تلك البيوت التي بُنيت حديثاً في نهاية شارع جبل طارق. لقد انتقلت عدة عائلات للسكن في تلك البيوت في السنة الماضية.

وتنهدت الآنسة ماربل ونظرت ثانية إلى نباتات أنف العجل البيضاء وهي متضايقة منزعجة، ثم إلى بعض النباتات الطفيلية الضارة التي تمنت لو تستطيع مهاجمتها واجتثاثها، ولكنها قاومت ذلك الإغراء وتنهدت ثم انقلبت إلى بيتها. وعادت بتفكيرها ثانية إلى السيد رافائيل. كانت علاقتهما تذكّرها... بماذا؟ ماذا كان اسم ذلك الكتاب الذي اعتادت في صباها أن تقتطف منه الكثير من الأقوال؟ «سفن تلتقي في الليل». نعم، كم هو مناسب هذا التشبيه عندما يتأمله المرء؛ فقد كان الوقت ليلاً عندما ذهبت إليه لتطلب... بل لتصرّ على طلب المساعدة، ولتلحّ وتؤكد على ضرورة عدم إضاعة أي لحظة.

وقد وافق ووضع الأمور في نصابها في الحال! ربما كانت تشبه الأسد حقاً في تلك الحادثة. ولكن لا، ذلك خطأ. لم تكن تشعر بالغضب؛ كان مجرد إصرار على شيء كان من الضروري جداً عمله في الحال، وقد تفهّمَ الرجلُ الموقف.

مسكين السيد رافائيل. لقد كانت السفينة التي مرت ليلاً سفينة تستحق الاهتمام. عندما تعتاد على وقاحته فإنك ستراه في الحال رجلاً مقبولاً. لا ، هزت رأسها؛ ما كان للسيد رافائيل أن يكون مقبولاً أبداً. حسناً، يجب أن تبعد السيد رافائيل من تفكيرها.

سفنٌ تلتقي ليلاً، وتتبادل الحديث عند اللقاء: مجرد
إشارة تُرى وصوت بعيد في الظلام.

ربما لن تفكر فيه أبداً بعد ذلك. ستتفحص جريدة التايمز لترى إن كان له نعيٌ فيها، لكنها لم ترَ ذلك أمراً محتملاً. وفكرت بأنه ليس شخصية مشهورة معروفة، فقد كان مجرد رجل بالغ الثراء. إن كثيراً من الناس -بالطبع- تُنشر أخبار نعيهم في الصحف لمجرد أنهم أغنياء فقط، لكنها رأت أن ثراء السيد رافائيل ليس من ذلك النوع، فهو لم يكن بارزاً في أية مهنة كبرى ولم يكن ذا عبقرية مالية كبيرة، كما لم يكن مصرفياً بارزاً مثلاً. كان مجرد رجل قضى عمره في جمع مبالغ ضخمة من المال.

* * *

الفصل الثاني

كلمة السر «انتقام العدالة»

بعد أسبوع تقريباً من وفاة السيد رافائيل أخذت الآنسة ماربل رسالة كانت على صينية الإفطار ونظرت إليها لحظة قبل فتحها. الرسالتان اللتان جاءتا مع هذه الرسالة تحتويان فواتير أو ربما وصولات باستلام فواتير، وفي كلا الحالتين ليست لهما أهمية، أما هذه الرسالة فربما كانت مهمة.

ختمُ بريد لندن وعنوان مطبوع على الآلة الكاتبة، ومغلف طويل من نوعية جيدة. كانت الرسالة مروَّسة باسم «شركة برودريب وشاستر للمحاماة»، مع عنوان الشركة في بلومسبري. كانت الرسالة تطلب منها بعبارات مهذبة وقانونية أن تزورهم في يوم من أيام الأسبوع القادم في مكتبهم لمناقشة عرض قد تستفيد منه. وقد اقترحت الرسالة يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر موعداً للزيارة، وطلبت الشركة منها إخبارهم عن الموعد المفضل لها والذي يُحتمَل أن تكون فيه في لندن في المستقبل القريب إن لم يكن ذلك الموعد مناسباً لها، وأضافت الشركة تقول إنهم محامو السيد رافائيل الراحل الذي علمت الشركة أن الآنسة ماربل كانت تعرفه.

قطبت الآنسة ماربل حاجبيها متحيرة، ثم نهضت متثاقلة أكثر من العادة وهي تفكر في الرسالة التي استلمتها. رافقتها إلى الطابق السفلي خادمتُها شيري التي كانت دوماً شديدة الحرص على البقاء في الصالة لمساعدة الآنسة ماربل في نزول الدرج ذي الطراز القديم الذي ينعطف انعطافاً حاداً في منتصفه.

قالت الآنسة ماربل: أنت تهتمين بي جيداً يا شيري.

قالت شيري بأسلوبها المعتاد: هذا واجبي، فالناس الطيبون قلّة.

قالت الآنسة ماربل بعد أن حطّت قدمها الأخيرة على الطابق الأرضي بأمان: شكراً لكِ على هذا الإطراء.

- هل من شيء؟ إنك تبدين مُعكّرة المزاج قليلاً.

- لا، لا شيء، ولكنني استلمت رسالة من شركة محامين.

ردّت عليها شيري التي تعتبر رسائل المحامين نذيراً لا يخطئ بمصيبة أو كارثة: أرجو أن لا يكون هناك من يلاحقك قضائياً؟

- لا، لا أظن ذلك؛ لا شيء من هذا القبيل. فقط طلبوا مني زيارتهم في لندن الأسبوع القادم.

- ربما ترك شخصٌ لك ثروة ما.

- أظن أن هذا مستبعدٌ جداً.

- من يدري؟

جلست الآنسة ماربل على كرسي في الصالة وأخرجت صنارتها

وشرعت في التفكير في احتمال أن يكون السيد رافائيل قد ترك لها ثروة. بدا ذلك مستبعَداً أكثر مما بدا لها عندما قالته شيري، ورأت أن السيد رافائيل لم يكن من ذلك النوع من الرجال.

لم يكن ممكناً لها أن تذهب في الموعد المقترح، فقد كان مقرراً لها أن تحضر اجتماعاً لاتحاد المرأة لمناقشة جمع مبلغ من المال لبناء غرفتين إضافيتين. فكتبت لهم تحدد موعداً آخر في الأسبوع التالي، وقد ردّت الشركة بدورها على رسالتها وتم تثبيت الموعد بشكل رسمي. وتساءلت في نفسها كيف عسى هؤلاء المحامين يكونون. لقد وقّع الرسالة ج. برودريب، وكان واضحاً أنه الشريك الأكبر. فكرت الآنسة ماربل بأنه من الممكن أن يكون السيد رافائيل قد ترك لها هدية صغيرة للذكرى في وصيته، ربما ترك لها كتاباً من مكتبته عن الأزهار النادرة رأى أنه قد يسعد امرأة مسنّة تهتم بأعمال الحديقة، أو ربما ترك لها دبوس زينة مرصّعاً بالأحجار الكريمة كان عند إحدى عماته... أخذت تسلي نفسها بمثل هذه التخيلات التي رأت أنها مجرد تخيلات، لأنه لو ترك لها شيئاً فعلاً لكان الأمر من اختصاص منفّذ الوصية، ولو كان هؤلاء المحامون هم الذي ينفذون الوصية لأرسلوا لها أي غرض من هذا القبيل بالبريد ولما طلبوا مقابلتها.

قالت الآنسة ماربل: حسناً، سأعرف ذلك يوم الثلاثاء القادم.

* * *

قال السيد برودريب يخاطب السيد شاستر وهو ينظر إلى ساعته: أي نوع من النساء هي؟

قال السيد شاستر: ستصل خلال ربع ساعة. تُرى هل ستكون دقيقة في موعدها؟

- آه، أظن ذلك. فهمت أنها كبيرة في السن، وهذا يجعلها أكثر دقّة في مواعيدها من هؤلاء الشباب مشتتي العقول.

- تُرى هل هي سمينة أم نحيلة؟

هز السيد برودريب رأسه، فسأله السيد شاستر: ألم يصفها رافائيل لك أبداً؟

- كان حَذِراً كتوماً بصورة غير عادية في كل شيء قاله عنها.

- الأمر كله يبدو غريباً جداً بالنسبة لي. لو أننا نعرف فقط قليلاً عن كل ما يعنيه هذا.

- ربما كان أمراً يتعلق بمايكل.

- ماذا؟ بعد كل هذه السنوات؟ لا يمكن. ما الذي جعلك تفكر في هذا؟ هل ذكر...

- لا، لم يذكر شيئاً، لم يفاتحني بأي شيء يدور في ذهنه. لقد اكتفى بإعطائي التعليمات.

- أتظن أنه غدا غريب الأطوار أو أصابه شيء من الخرف في آخر حياته؟

- أبداً؛ من الناحية العقلية كان ذكياً كعهده. إن مرضه الجسماني لم يؤثر على عقله أبداً، وفي آخر شهرين من حياته جمع مئتي ألف جنيه إضافية بمنتهى السهولة.

قال السيد شاستر باحترام يقتضيه الموقف: كانت لديه موهبة في ذلك؛ لقد امتلك دائماً هذه الموهبة بالتأكيد.

ردّ عليه السيد برودريب بنبرة فيها احترام أيضاً: كان ذا عقلية مالية عظيمة. قليلون مَن هم مثله، مع الأسف.

رنّ جرس الهاتف على الطاولة، فرفع السيد شاستر السماعة وسمع السكرتيرة على الطرف الآخر تقول: الآنسة جين ماربل هنا وتريد رؤية السيد برودريب بناء على موعد سابق.

نظر السيد شاستر إلى شريكه وقد رفع حاجبيه يطلب الإيعاز، فأومأ السيد برودريب موافقاً، فقال السيد شاستر: دعيها تصعد.

ثم أضاف قائلاً: سنرى الآن.

دخلت الآنسة ماربل الغرفة ووقف لتحيتها رجل متوسط العمر نحيف الجسد ذو وجه طويل كئيب. كان واضحاً أنه السيد برودريب، وكان معه رجل أصغر منه سناً وأكثر امتلاء. كان أسود الشعر ذا عينين صغيرتين حريصتين، وقدمه السيد برودريب قائلاً: هذا شريكي السيد شاستر.

قال السيد شاستر: أرجو أن لا يكون الدرج قد أتعبك كثيراً.

كان يفكر في نفسه: إنها في حدود السبعين عاماً... وربما قاربت الثمانين.

- إن صعود الدرج يجعلني ألهث بعض الشيء.

ردّ عليها السيد برودريب معتذراً: إن هذا المبنى قديم الطراز

ولا يوجد فيه مصعد. لقد أسِّست شركتنا منذ زمن طويل، ومع ذلك فلسنا مولعين كثيراً بأشكال التحديث كما قد يتوقع زبائننا.

قالت الآنسة ماربل بأدب: هذه غرفة مريحة تماماً.

ثم جلست على الكرسي الذي سحبه السيد برودريب لتجلس عليه، وخرج السيد شاستر من الغرفة بطريقة لبقة.

قال السيد برودريب: أرجو أن يكون هذا الكرسي مريحاً. هل أغلق هذه الستارة قليلاً؟ ربما كانت أشعةُ الشمس في عينيك.

قالت الآنسة ماربل بامتنان: أشكرك.

وجلست على الكرسي منتصبة الظهر كما هي عادتها. كانت تلبس بدلة صوفية خفيفة وعقداً من اللؤلؤ وقبعة صغيرة من المخمل، ومضى السيد برودريب يقول في نفسه: إنها رمز السيدة الريفية؛ بسيطة وطيبة ورقيقة. قد تكون مشتتة التفكير... وقد لا تكون. في عينيها دهاء. ترى أين التقى بها رافائيل؟ ربما كانت عمّةَ أحد من أصدقائه من الريف...

بينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهنه كان يتحدث معها الأحاديث الاستهلالية المعتادة عن الطقس وعن آثار الضباب الأخير الذي جاء في بداية السنة وملاحظات أخرى اعتبرها مناسبة، وكانت الآنسة ماربل تجيب عليه الإجابات اللازمة وتجلس هادئة تنتظر افتتاح الاجتماع.

ثم قال السيد برودريب وهو يقلّب بعض الأوراق أمامه ويبتسم لها ابتسامة جميلة: لا بد أنك تتساءلين عن ماهية هذا الأمر. لعلك

سمعت عن وفاة السيد رافائيل أو ربما رأيت خبر وفاته في الصحيفة.

- قرأت الخبر في الصحيفة.

- علمت أنه كان صديقاً لك.

- التقيت به أول مرة قبل أكثر من عام، في جزر الهند الغربية.

- آه، أتذكّر ذلك؛ أظن أنه ذهب إلى هناك لأسباب صحية. ربما أفادته تلك الزيارة، ولكن مرضه كان قد اشتد قبل ذلك حتى كاد أن يكون مقعداً كما تعلمين.

قالت الآنسة ماربل: نعم.

- هل كنت تعرفينه جيداً؟

- لا، ما كنت لأقول ذلك. كنّا نقيم في الفندق نفسه، وكنّا نتحادث من وقت لآخر. لم أرَه أبداً بعد عودتي إلى إنكلترا، فأنا أعيش في الريف حياة هادئة منعزلة، وأظن أنه كان منهمكاً في عمله تماماً.

- لقد ثابر على القيام بأعماله على أحسن وجه حتى يوم وفاته، وكان ذا عقلية مالية رائعة.

- أنا واثقة أنه كان كذلك؛ لقد أدركت فوراً عندما التقيته أنه شخصية ملفتة للنظر.

- لا أدري إن كنت تعرفين... إن كان السيد رافائيل قد أعطاك أية فكرة عن هذا العرض الذي طُلب مني إبلاغك به؟

- لا أستطيع تخيل طبيعة أي عرض يمكن للسيد رافائيل أن يعرضه عليّ، يبدو ذلك أمراً مستبعَداً جداً.

- لقد كان يحترمك كثيراً.

- هذا لطف منه، لكني لا أستحقه؛ فأنا امرأة بسيطة.

- لا شك أنك تدركين بأنه مات وهو واسع الثراء. إن بنود وصيته بسيطة جداً إجمالاً، فقد وزّع ثروته قبل وفاته بفترة.

- أظن أن هذا إجراء عادي جداً هذه الأيام.

- إن الغرض من هذا اللقاء هو أن عندي تعليمات بأن أخبرك بأنك ستحصلين على مبلغ من النقود وُضِعَ جانباً ليكون ملكاً لك بعد سنة، لكنه مشروط بقبولك عرضاً معيناً سأطلعك عليه.

أخذ عن الطاولة الموضوعة أمامه مغلفاً طويلاً مختوماً وأعطاها إياه قائلاً: سيكون من الأفضل أن تقرئيه بنفسك. ليس في الأمر عجلة، خذي راحتك.

أخذت الآنسة ماربل من السيد برودريب سكين الورق وفتحت المغلف وأخرجت منه الرسالة. كانت ورقة واحدة مطبوعة، وقرأتها. بعد ذلك طوتها، ثم فتحتها وقرأتها ثانية. وأخيراً نظرت إلى السيد برودريب وقالت: إنها غير واضحة. ألا يوجد أي توضيح آخر؟

- بمقدار علمي لا يوجد توضيح. كان عليّ أن أسلمك هذه الورقة وأخبرك عن المبلغ الذي ستحصلين عليه. إن المبلغ هو عشرون ألف جنيه معفاة من الضريبة.

جلست الآنسة ماربل تحدق إليه وقد ألجمت المفاجأة لسانها،

ولم يقل السيد برودريب أي شيء في تلك اللحظة. كان يراقبها بإمعان؛ لا شك في أنها قد فوجئت. كان واضحاً أن ذلك آخر ما كانت الآنسة ماربل تتوقعه، وتساءل السيد برودريب عن أول كلمات ستقولها.

نظرت إليه نظرات حادة مباشرة كما كان من شأن عمة له أن تنظر إليه، وعندما تكلمت كان في صوتها نبرة اتهام. قالت: هذا مبلغ كبير جداً.

- لم تعد النقود بمثل ما كانت عليه من قيمة (وقد توقف قبل أن يضيف أن مثل هذا المبلغ أصبح لا يعني شيئاً في هذه الأيام).

- لا بد من الاعتراف بأنني ذاهلة. بصراحة، لقد ذُهلت.

ثم أمسكت بالرسالة مرة أخرى وقرأتها بإمعان من جديد. قالت: أظن أنك تعرف محتوياتها؟

- نعم؛ لقد أملاها السيد رافائيل عليّ شخصياً.

- ألم يعطك أي تفسير لها؟

- لم يفعل.

- أظن أنك اقترحت عليه أن يوضّح أكثر.

كان في نبرتها الآن بعض الحدة، وابتسم السيد برودريب ابتسامة باهتة وقال: أنت على حق؛ هذا ما فعلته. قلت له إنك ربما وجدتِ من الصعب أن... أن تفهمي الذي يقصده بالضبط.

- رائع جداً.

- لا حاجة لأن تعطيني الإجابة الآن بالطبع.

- نعم، أريد أن أفكر بالأمر.

- إنه مبلغ كبير من المال كما أشرتِ.

- إنني مسنّة. عجوز، لكن كلمة مسنّة أفضل، متنة بلا شك. من المحتمل ومن الممكن أن لا أعيش سنة حتى أحصل على هذا المبلغ بهذه الطريقة المشكوك فيها، هذا إن استطعت...

- يجب أن لا نستخفّ بالمال مهما كان عمرنا.

- بإمكاني أن أفيد جمعيات خيرية معينة أهتم بأعمالها، وهناك أناس دائماً... أناس يتمنى المرء لو أنه يستطيع خدمتهم ولو قليلاً لكن إمكاناته المالية لا تسمح له بذلك، كما أنني لن أتظاهر بعدم وجود مُتَع ورغبات لديّ مما لم أستطع تلبيته أو إشباعه. أظن أن السيد رافائيل كان يعرف تماماً أن القدرة على تلبية ذلك، عندما تأتي فجأة لشخص عجوز مثلي، فإنها ستمنحه قدراً عظيماً من السعادة.

- نعم؛ بالفعل. رحلة بحرية إلى الخارج، رحلة من هذه الرحلات الرائعة التي تُنظَّم هذه الأيام...

قالت الآنسة ماربل: ستكون اهتماماتي أكثر تواضعاً من ذلك. وجبة من طيور الحجل... من الصعب جداً الحصول على الحجل هذه الأيام كما أن ثمنه غال جداً وبودّي أن أستمتع بطائر حجل آكله وحدي كله. كما أن علبة من الكستناء المحلاّة بالسكر غالية الثمن ولا أستطيع شراءها دائماً. وربما زيارة الأوبرا، وهذا يعني سيارة تأخذني إلى كوفنت غاردن وتعيدني، إضافة إلى مصاريف ليلة في فندق.

لكنني لا أريد الخوض في كل هذا الكلام المبتذَل. سآخذ هذه الرسالة معي وأفكر فيها. ما الذي جعل السيد رافائيل... ألا تعرف لماذا اقترح هذا الأمر بالذات ولماذا اعتقد أنني أستطيع خدمته؟ كان يجب أن يعرف أنه مضى على لقائنا أكثر من سنة... ما يقارب سنتين تقريباً، وأنني قد ازددت ضعفاً على ما كنت عليه، إضافة إلى ازدياد عجْزي عن ممارسة المواهب المتواضعة التي قد أمتلكها. لقد كان يجازف... هناك أناس آخرون أفضل مني بالتأكيد ومؤهَّلون أكثر مني للقيام بهذا النوع من التحقيق.

- بصراحة يمكن للمرء أن يرى ذلك، لكنه اختارك أنت يا آنسة ماربل. اعذريني لفضولي، ولكن هل... هل كانت لك أية صلة بالجرائم أو بالتحقيق في الجرائم؟

- ليس بالمعنى الحرفي للكلمة. أعني أنني لست محترفة؛ فلم أكن ضابط شرطة أو عضوة في هيئة محلفين... أو على صلة مع أي وكالة تحريات خاصة. وحتى أوضح لك يا سيد برودريب (لأكون عادلة معك، وهو ما أظن أنه كان يجدر بالسيد رافائيل أن يفعله أيضاً) لا أملك إلاّ القول أننا -نحن الاثنين- عندما كنّا في جزر الهند الغربية كانت لنا علاقة معينة بجريمة وقعت هناك... جريمة قتل فريدة ومحيّرة.

- وهل حللتما لغز هذه الجريمة معاً؟

- لا أستطيع قول هذا بالضبط؛ فقد نجحنا في منع حدوث جريمة ثانية كانت على وشك الحدوث بواسطة قوة شخصية السيد رافائيل من جهة، وبواسطة مؤشرين أو ثلاثة لاحظتُها وربطت بينها. وما كان بوسعي أن أفعل ذلك وحدي؛ فقد كنت ضعيفة من الناحية

الجسدية. كما لم يكن بوسع السيد رافائيل أن يفعل ذلك وحده؛ فقد كان مقعداً، ولكننا عملنا معاً كحليفين.

- سؤال آخر أريد توجيهه لك يا آنسة ماربل: هل تعني لك عبارة «انتقام العدالة» شيئاً خاصاً محدداً؟

- «انتقام العدالة»؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة غير متوقَّعة وقالت: نعم؛ إنها تعني لي شيئاً. كانت تعني لي شيئاً وكانت تعني للسيد رافائيل شيئاً أيضاً، قلتُها له ذات مرة، وقد سرة كثيراً أن أصف نفسي بأنني أداة من أدوات «انتقام العدالة».

كان ذلك آخر ما توقعه السيد برودريب منها. نظر إلى الآنسة ماربل دَهِشاً بالطريقة نفسها التي أحس بها السيد رافائيل ذات مرة وهو في غرفة على شاطئ البحر الكاريبي... سيدة عجوز لطيفة وحادة الذكاء، ولكن فيها حقاً ما يوحي باستعدادها للعب هذا الدور.

قالت الآنسة ماربل: أنا واثقة من أنك تشعر بنفس الشعور. ثم نهضت واقفة وقالت: إذا وجدت أو تلقيت أية تعليمات أخرى بخصوص هذه المسألة فأرجو أن تعلمني يا سيد برودريب. يبدو غريباً لي أن لا يوجد شيء من ذلك؛ فهذا يجعلني في حيرة تامة من أمري فيما يريد السيد رافائيل مني عمله أو محاولة عمله.

- ألا تعرفين عائلته أو أصدقاءه، أو...؟

- نعم، لقد أخبرتك أنني لا أعرف. كان رفيقَ سفر لي في بلد

أجنبي، وعملنا معاً لبعض الوقت في مسألة محيرة. هذا كل ما في الأمر.

وعندما كانت على وشك الخروج التفتت فجأة وسألته: كانت له سكرتيرة... السيدة إيستر والترز. هل أتجاوز حدود الذوق لو سألتك إن كان السيد رافائيل قد ترك لها مبلغ خمسين ألف جنيه أو لا؟

- إن حصص توزيع ثروته ستنشر في الصحف، لكنني أستطيع الإجابة على سؤالك بالإيجاب. كما أن السيدة والترز أصبحت السيدة أندرسون الآن؛ فقد تزوجت من جديد.

- أنا سعيدة لسماع هذا. كانت أرملة ولها بنت واحدة، ويبدو أنها كانت سكرتيرة قديرة وكانت تفهم السيد رافائيل جيداً. امرأة لطيفة، إنني سعيدة لأنها استفادت من الوصية.

* * *

في تلك الليلة جلست الآنسة ماربل في كرسيها ذي المسند المنتصب وقد مدّت قدميها باتجاه المدفأة حيث كانت نارٌ صغيرة مشتعلةً بسبب البرد المفاجئ الذي يداهم إنكلترا في أية لحظة لا يعلم توقيتها إلاّ الله. أخرجت مرة أخرى الوثيقة التي كانت في ذلك المغلف الذي استلمته ذلك الصباح، وقرأتها وهي لا تكاد تصدق، وهي تتمتم بالكلمات وكأنها تريد تثبيتها في ذاكرتها:

إلى الآنسة جين ماربل، المقيمة في قرية سينت ميري ميد:

سوف تستلمين هذه الرسالة بعد وفاتي، حيث سيسلّمها

لك وكيلي مكتب المحامي جيمس برودريب. إنه الرجل الذي أستخدمه في التعامل بأموري القانونية الخاصة وليس الأمور القانونية المتعلقة بأعمالي، وهو محام عاقل وموثوق، لكنه -مثل أكثر أبناء الجنس البشري- عرضة للوقوع في إثم الفضول. إنني لم أشبع فضوله، وستبقى هذه المسألة سراً بيني وبينك في بعض النواحي. ستكون كلمة السر بيننا -يا سيدتي العزيزة- هي «انتقام العدالة». لا أعتقد أنك نسيت المكان والظروف التي قلتِ لي فيها هذه الكلمة أول مرة، ولقد تعلمت من خبرتي العملية الطويلة جداً أن أبحث عن ميزة واحدة فيمَن أرغب بتوظيفه، تلك هي امتلاكه للموهبة؛ موهبة تحسس وتنفيذ المهمة المحددة التي أوكلها له. وتلك ميزة خاصة؛ إنها ليست معرفة، وليست خبرة. الكلمة الوحيدة التي تصفها هي «موهبة»، إنها موهبة طبيعية لعمل شيء معين.

أنت يا عزيزتي (إذا سمحت لي باستخدام هذه الكلمة) تمتلكين موهبة خاصة لتطبيق العدالة، وهذا ما أدى إلى امتلاكك موهبة تحسس وفهم الجريمة. أريد منك التحقيق في جريمة معينة، وقد أمرت بتخصيص مبلغ معين يُدفَع لك إن قبلت هذا الطلب، وإذا ما تم حل لغز الجريمة نتيجة للتحقيقات التي قمت بها فسوف يصبح المال مالك تماماً. وقد حددّت لك مدة سنة للقيام بهذه المهمة، أنت لست صغيرة بالسن لكنك قوية صارمة، وأظن أنك -بمشيئة الله- ستبقين حية حتى السنة القادمة على الأقل.

أعتقد أن العمل المطلوب منك لن يكون مكروهاً من

جانبك، فإن لك عبقرية طبيعية في القيام بالتحقيق. سيتم دفع المبالغ اللازمة لعمل التحقيق إليك خلال تلك الفترة عندما يكون ذلك ضرورياً، وأنا أطرح عليك هذا كبديل لحياتك الحالية.

إنني أتصورك جالسة على كرسي، كرسي مريح ويناسب الروماتزم الذي تعانين منه. إنني اعتبر أن جميع من هم في عمرك من المرجح أن يكونوا يعانون من شكل من أشكال الروماتزم. وإذا ما كان هذا المرض يؤثر على ركبتيك أو ظهرك فلن يكون من السهل عليك التحرك كثيراً وسوف تقضين معظم وقتك في عمل الصنارة. إنني أراك كما رأيتك ذات مرة في إحدى الليالي عندما نهضت من نومي منزعجاً من إلحاحك، في سحابة من الصوف الوردي، أتخيّلك وأنت تغزلين مزيداً من السترات وشالات الرأس وكثيراً من الأشياء الأخرى التي لا أعرف أسماءها. فإذا كنت تفضّلين المُضيّ في غزل الصوف فإنه قرارٌ يخصك، أما إذا فضلت خدمة قضية العدالة فأرجو أن تجديها مثيرة على الأقل.

فلتتدفق العدالة قوية كالشلال، وليتدفق الحق كنهر عظيم.

آموس

* * *

الفصل الثالث
الآنسة ماربل تبادر بالعمل

قرأت الآنسة ماربل هذه الرسالة ثلاثة مرات، ثم وضعتها جانباً وجلست تفكر فيها وفي معناها. كانت أول فكرة خطرت ببالها هي أنها قد تُركت بحاجة ماسة إلى معلومات محددة، فهل ستأتيها أية معلومات أخرى من السيد برودريب؟ كانت واثقة تقريباً من عدم وجود مثل هذا الاحتمال؛ فذلك لم يكن يتناسب مع خطة السيد رافائيل. ولكن كيف يتوقع السيد رافائيل منها أن تعمل شيئاً وأن تقوم بأي إجراء في مسألة لا تعرف عنها أي شيء؟

كانت رسالة مثيرة، وبعد بضع دقائق من التفكير قررت أن السيد رافائيل كان يتعمد جعلها مثيرة. عادت بتفكيرها إليه، إلى الفترة القصيرة التي عرفته فيها: عجزه الجسدي، ومزاجه السيء، ولمعات الذكاء المتوقدة لديه، وأحياناً لمعات الدعابة الساخرة. فكرت أنه كان يستمتع بإثارة الناس وإغاظتهم، وأحست أنه كان يستمتع بإثارة وإرباك الفضول الطبيعي لدى السيد برودريب، وهو ما أكدته الرسالة تماماً.

لم يكن في الرسالة التي كتبها ما يعطي أي مفتاح يدلها على طبيعة هذا الأمر كله، لم يكن هناك ما يساعدها أبداً. وفكرت بأن

السيد رافائيل قد تقصّد تحديداً أن لا تكون في رسالته أية مساعدة لها. كانت لديه... ماذا عساها تسمي ذلك؟ أفكار أخرى. ولكن لم يكن باستطاعتها الشروع في عمل لا تعرف عنه شيئاً. يمكن تشبيه هذا الأمر بالكلمات المتقاطعة التي لا يُعطى شرحٌ أو تلميح للكلمات المطلوب إدراجها فيها... لا بد من وجود مثل هذه التلميحات! كان يجب أن تعرف ما هو المطلوب منها، وأين تذهب، وهل عليها أن تحل بعض المشكلات وهي جالسة في كرسيها وقد وضعت صنارة الصوف جانباً لكي تركز بشكل أفضل، أم هل كان السيد رافائيل يريد منها ركوب طائرة أو سفينة إلى جزر الهند الغربية أو أمريكا الجنوبية أو إلى مكان محدّد آخر؟ لم يكن أمامها إلاّ أن تعرف بنفسها ما هو المطلوب منها أو أن تتلقى تعليمات واضحة محددة. ربما اعتقد بأنها ذات عبقرية تكفي لأن تجعلها تخمّن الأشياء وأن توجه أسئلة وتكتشف الأمور؟ لا، لا يمكنها تصديق ذلك.

قالت الآنسة ماربل بصوت مرتفع: إن كان يعتقد ذلك فإنه مخبول... أقصد أنه كان مخبولاً قبل وفاته!

لكنها لم تكن تعتقد أن السيد رافائيل يمكن أن يكون مخبولاً. قالت: سأتلقى تعليمات... ولكن أية تعليمات ومتى؟

عندها خطر لها فجأة أنها قد قبلت التكليف دون وعي منها. تكلمت ثانية بصوت مرتفع وكأنها تخاطب الجو حولها: أنا أؤمن بالحياة الأخرى. لا أعرف أين أنت بالضبط يا سيد رافائيل، ولكن ليس عندي شك بأنك في مكان ما، وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق رغباتك.

* * *

بعد ذلك بثلاثة أيام كتبت الآنسة ماربل رسالة إلى السيد بروودريب، وكانت رسالة قصيرة جداً تتكلم عن الموضوع مباشرة:

عزيزي السيد برودريب،

لقد فكرت في الاقتراح الذي قدمته لي، وها أنا ذا أخبرك بما قررته، حيث قبلت بالاقتراح الذي قدمه لي السيد رافائيل. سأبذل قصارى جهدي لتحقيق رغباته وأمنياته، رغم أنني غير متأكدة أبداً من النجاح. والحقيقة أنني لا أكاد أرى كيف يمكن أن أنجح؛ فأنا لم أحصل على أية تعليمات مباشرة في رسالته ولم أحصل عليها من أي طريق آخر. إذا كنت تحتفظ بأي بيان أو بلاغ لي فيه تعليمات محددة فسأكون مسرورة لو أرسلتها إليّ، وإن كنت أظن أنه لو كان عندك ما أريده لأرسلته لي من قبل.

أظن أن السيد رافائيل كان في كامل قواه العقلية عندما مات، أليس كذلك؟ وأعتقد أنني معذورة إذا سألت إن كانت قد وقعت قبل موته بوقت قصيرة أية واقعة إجرامية جعلته مهتماً بها، سواء في عمله أو في علاقاته الشخصية. هل عبّر لك عن غضبه أو سخطه من خطأ قضائي أو عدلي شغل اهتمامه؟ إن كان ذلك فأعتقد أن لي المبرر الكامل في أن أطلب منك أن تعلمني به. هل كان أحد معارفه أو أقاربه يعاني من ضائقة أو مشكلة أو كان ضحيةَ عمل ظالم أو ما شابه ذلك؟

أنا واثقة من أنك ستتفهم الأسباب التي دعتني لسؤالك

هذه الأسئلة، والحقيقة أن السيد رافائيل نفسه ربما توقع مني طرحها.

* * *

عرض السيد برودريب تلك الرسالة على السيد شاستر الذي استند إلى ظهر كرسيه وراح يصفر وهو يقول: إذن فقد قبلت المهمة؟ إنها عجوز ذات روح شابة. أظن أنها تعرف شيئاً ما عن طبيعة هذا الأمر، أليس كذلك؟

ردّ عليه السيد برودريب قائلاً: واضحٌ أنها لا تعرف.

- ليتنا كنا نعرف! لقد كان رجلاً غريب الأطوار.

- كان رجلاً صعباً.

- أنا لا أعرف عن الموضوع شيئاً. هل تعرف أنت؟

- لا، لا أعرف. أظن أنه لم يكن يريدني أن أعرف.

- لقد جعل الأمور أكثر صعوبة بفعله هذا. لا أرى أية فرصة في نجاح عجوز ريفية في تفسير ما كان يجول في خاطر رجل ميت لتعرف ما كان يؤرقه من وساوس. هل تظن أنه كان يضللها أو يخدعها؟ نوع من المزاح مثلاً؟ ربما كان يظن أنها ترى نفسها خبيرة في حل مشكلات القرية ولذلك أراد إعطاءها درساً قاسياً.

- لا، لا أظن ذلك؛ لم يكن رافائيل من ذلك النوع.

- كان يتصرف كالعابث المؤذي أحياناً.

- نعم، ولكن ليس... أظن أنه كان جاداً في هذه المسألة، كان شيء يقلقه. أنا واثق من أن شيئاً ما كان يقلقه.

- ألم يخبرك عنه أو يعطِك فكرة؟

- أبداً.

- إذن كيف يتوقع هذا...

- لا يمكن أن يكون قد توقع حقاً أية نتيجة من هذا الأمر؛ إذ كيف لهذه العجوز أن تبدأ عملها؟

- أظنها مزحة.

- إن عشرين ألف جنيه مبلغٌ كبير على مزحة!

- نعم، ولكن إذا كان يعلم أنها لا تستطيع النجاح؟

- لا، لا يمكن أن يكون بتلك الروح. لا بد أنه رأى أن لديها فرصة لفعل هذا الأمر أو اكتشافه.

- وماذا نفعل نحن؟

- ننتظر، ننتظر ونرى ما الذي سيحدث. لا بد من حدوث بعض التطورات.

- إن لديك بعض الأوامر التي بقيت مغلّفة مختومة، أليس كذلك؟

- يا عزيزي شاستر! لقد وضع السيد رافائيل ثقته فيّ وفي سلوكي الأخلاقي كمحامي، وهذه التعليمات المختومة تُفتح فقط عند ظروف معينة ولم يظهر أي منها بعد.

قال السيد شاستر: ولن تظهر أبداً!

عند ذلك انتهى النقاش.

* * *

كان السيد برودريب والسيد شاستر محظوظَين كثيراً لأن لديهما ما يشغل كل وقتهما في حياتهما المهنية، إلاّ أن الآنسة ماربل لم تكن تملك مثل هذه الميزة؛ فقد كانت تغزل بصنارتها وتفكر وتخرج من بيتها للمشي رغم احتجاجات شيري على ذلك واعتراضها: أنت تعرفين ما قاله الطبيب؛ يجب أن لا تجهدي نفسك كثيراً.

قالت الآنسة ماربل: إنني أمشي ببطء شديد، كما أنني لا أقوم بأي عمل. أقصد أعمال الحفر في الحديقة أو إزالة الأعشاب الضارة. إنني -فقط- أكتفي بنقل قدم أمام قدم والتفكير في الأمور.

سألتها شيري ببعض الاهتمام: أية أمور؟

- ليتني أعرف!

ثم سألت شيري أن تحضر لها وشاحاً إضافياً لأن الريح باردة.

* * *

قالت شيري لزوجها وهي تضع أمامه طبقاً من الأرز وقطع الكبد المقلية: ليتني أعرف ما الذي يثير عصبيتها! تفضل؛ هذا عشاء صيني.

أومأ زوجها باستحسان وقال: إن طعامك يتحسن يوماً بعد يوم.

- أنا قلقة عليها. إنني قلقة لأنها متضايقة بعض الشيء، لقد استلَمتْ رسالة أثارت قلقها تماماً.

قال الزوج: إنها تحتاج إلى الراحة والهدوء؛ أن تجلس هادئة وتهوّن على نفسها، وتحضر كتباً جديدة من المكتبة لتقرأها، وترى بعض صديقاتها.

- إنها تفكر في شيء ما... تفكر في كيفية معالجة مسألة ما، هذا ما أظنه.

قطعت الحديث عند هذا الحد، وأخذت صينية القهوة وأدخلتها إلى الآنسة ماربل ووضعتها بجانبها. سألتها الآنسة ماربل: هل تعرفين امرأة تعيش في بيت جديد هنا تُدعى السيدة هيستنغز؟ وواحدة أخرى تدعى الآنسة بارتليت على ما أظن تعيش معها؟

- ماذا؟ هل تقصدين البيت الذي جرى ترميمه وأعيد طلاؤه في طرف القرية؟ أهل ذلك البيت جاؤوا من مدة قصيرة فقط ولا أعرف أسماءهم. لماذا تريدين أن تعرفي؟ إنهم لا يثيرون الاهتمام، هذا ما أراه أنا على الأقل.

- هل توجد بينهما علاقة قرابة؟

- لا؛ بل أظنهما صديقتين فقط.

قالت الآنسة ماربل: أتساءل لماذا...؟ ثم سكتت.

- لماذا ماذا؟

- لا شيء. أرجو أن تنظفي لي الطاولة الصغيرة وتعطيني قلمي ودفتر الرسائل، سأكتب رسالة.

سألتها شيري بفضول: إلى من؟

- أريد أن أكتب رسالة لأختِ رجل دين اسمه كانون بريسكوت.

- هل هو ذلك الذي التقيتِه في الخارج في جزر الهند الغربية؟ لقد أريتني صورته في الألبوم.

- نعم.

- هل تشعرين بأي سوء حتى تكتبي لرجل دين؟

- بل أنا في أحسن حال وأتطلع بلهفة للانهماك بأمر ما، وربما كان بمقدور الآنسة بريسكوت مساعدتي؛ هذا كل ما في الأمر.

كتبت الآنسة ماربل تقول:

عزيزتي الآنسة بريسكوت،

أرجو أن لا تكوني قد نسيتني؛ لقد التقيت بك وبأخيك في جزر الهند الغربية في فندق سينت هونري. أرجو أن يكون العزيز كانون بصحة جيدة وأن لا يكون قد عانى كثيراً من داء الربو في الجو البارد الذي جاء في الشتاء الماضي.

أنا أكتب لأسألك إن كان بإمكانك أن تخبريني بعنوان السيدة والترز، إيستر والترز، التي تتذكرينها أيام كنّا في منطقة البحر الكاريبي، كانت سكرتيرة السيدة رافائيل. لقد أعطتني عنوانها في ذلك الوقت لكني فقدته لسوء الحظ، وأنا مهتمة بالكتابة إليها حيث لديّ معلومات زراعية سألتني عنها لم أكن أستطيع إخبارها بها في ذلك

الوقت. وقد سمعت بالأمس أنها تزوجت مرة أخرى لكن لا أظن أن الذي بلّغني الخبر كان متأكداً من تلك الحقائق، وربما كنت تعرفين عنها أكثر مني.

أرجو أن لا يزعجك هذا الطلب كثيراً، مع أطيب تحياتي لأخيك وأطيب الأمنيات لك.

المخلصة: جين ماربل

أحست الآنسة ماربل بتحسن عندما أرسلت تلك الرسالة. قالت: لقد بدأت أفعل شيئاً على الأقل، ورغم أنني لا أعلق الكثير من الآمال على هذه الرسالة إلا أنها قد تساعد.

* * *

أجابت الآنسة بريسكوت على تلك الرسالة مباشرة. كانت امرأة يُعتمَد عليها تماماً، وقد كتبت رسالة جميلة وأرفقت بها العنوان المطلوب. قالت في رسالتها:

لم أسمع أي شيء عن إيستر والترز مباشرة، لكني سمعت مثلك من صديقة أنها قرأت خبراً عن زواجها مرة ثانية. أظن أن اسمها الآن هو السيدة ألدرسون أو أندرسون، وعنوانها هو: «وينسلو لودج، قرب ألتون، هانتز». أخي يبعث إليك بتحياته. أمرٌ محزن أن نعيش متباعدين كثيراً؛ نحن في شمال إنكلترا وأنت في جنوب لندن. أرجو أن نلتقي في مناسبة ما في المستقبل.

المخلصة: جوان بريسكوت

قالت الآنسة ماربل وهي تكتب العنوان: وينسلو لودج، آلتون.

إنه ليس بعيداً من هنا كثيراً. نعم، إنه ليس بعيداً. أستطيع أن... لا أعرف ما هي الوسيلة المثلى... ربما كانت إحدى سيارات «إنش» هي أفضل وسيلة. صحيح أن في ذلك بعض الإسراف، ولكن إذا نتج عن زيارتي شيء فيمكن اعتبارها نفقات عمل تُدفَع لي حسب الوصية. هل أكتب لها مقدماً أم أترك ذلك للمصادفة؟ أظن أن من الأفضل ترك الأمر للمصادفة. مسكينة إيستر، إنها لا تكاد تتذكرني بأي نوع من العاطفة أو المحبة.

غرقت الآنسة ماربل في لجّة من الذكريات والأفكار. يُحتمَل أن أعمالها في جزر الهند الغربية هي التي أنقذت حياة إيستر والترز من جريمة قتل كانت ستتعرض لها في مستقبل قريب. على أية حال، هذا ما كانت الآنسة ماربل تراه، ولكن إيستر والترز لم تصدّق أياً من تلك الأفكار.

قالت تحدث نفسها بصوت مرتفع: إنها امرأة لطيفة، لطيفة جداً، من ذلك النوع من النساء اللاتي يسهل وقوعهن في يد أزواج سيئين. بل إن من شأنها أن تتزوج قاتلاً لو ساقته المقادير إليها!

ثم أكملت حديثها بصوت منخفض وهي غارقة في تأملاتها: ما زلت أرى أنني ربما أنقذت حياتها، بل أكاد أكون واثقة من ذلك تماماً، لكني لا أظن أنها ستوافقني على وجهة النظر هذه. ربما كانت تكرهني، وهذا ما سيجعل استخدامها مصدراً معلومات صعباً جداً. ومع ذلك لا يملك المرء إلا أن يحاول، فذلك أفضل من الجلوس هنا والانتظار إلى ما لا نهاية.

هل كان السيد رافائيل يسخر منها عندما كتب لها تلك الرسالة؟ إنه لم يكن دائماً رجلاً لطيفاً بشكل خاص... إنه لم يكن يأبه أحياناً

لمشاعر الناس. قالت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى ساعتها بعد أن قررت النوم مبكراً: على أية حال، عندما يفكر المرء بالأشياء قبل ذهابه إلى النوم مباشرة فإنه غالباً ما تستجدّ لديه أفكار جيدة، وقد ينجح ذلك معي.

* * *

في صباح اليوم التالي سألتها شيري وهي تضع صينية الشاي على الطاولة القريبة منها: هل نمت جيداً؟

- لقد حلمت حلماً غريباً.

- أهو كابوس؟

- لا، لا، ليس كذلك. كنت أتحدث مع شخص، لم يكن شخصاً أعرفه جيداً، مجرد حديث عادي. ثم عندما نظرت رأيت أنه ليس ذلك الشخص الذي كنت أتحدث إليه، بل كان شخصاً آخر. غريب جداً.

قالت شيري من باب مساعدتها: ربما اختلط عليك الأمر.

- لقد ذكرني ذلك بشيء، أو بالأحرى بشخص عرفته ذات مرة. اطلبي لي سيارة «إنش»، واطلبي منها أن تأتي إلى هنا في الساعة الحادية عشرة والنصف تقريباً.

كان «إنش» جزءاً من ماضي الآنسة ماربل؛ فقد كان السيد إنش صاحب سيارة أجرة في الأصل، ثم مات وخلفه ابنه الشاب إنش الذي كان وقتها في الرابعة والأربعين من عمره، وقد حول مشروع العائلة إلى مكتب نقل واشترى سيارتين قديمتين. وعند وفاته تملك

المكتبَ رجلٌ آخر، ومنذ ذلك الوقت تم افتتاح مكتب بيب ومكتب جيمس ومكتب آرثر... لكن السكان المسنين ما زالوا يطلقون على أية سيارة أجرة اسم «إنش».

- هل أنت ذاهبة إلى لندن؟

- لا، لست ذاهبة إلى لندن. ربما سأتناول غدائي في هيزلمير.

قالت شيري وهي تنظر إليها بارتياب: حسناً، ما الذي تنوين فعله هذه المرة؟

- سأسعى إلى مقابلة واحدة عن طريق المصادفة مع جعل الأمر يبدو طبيعياً. ليس عملاً سهلاً لكني آمل أن أتدبره.

كانت سيارة الأجرة في انتظارها في الحادية عشرة والنصف. قالت الآنسة ماربل تخاطب شيري: اتصلي بهذا الرقم يا شيري واسألي إن كانت الآنسة أندرسون موجودة في البيت أو لا، وإذا كانت السيدة أندرسون هي التي ترد عليك أو أنها ستأتي لترد على الهاتف فقولي لها إن السيد برودريب يريد أن يتكلم معها وإنك سكرتيرة السيد برودريب، أما إذا كانت خارج البيت فحاولي أن تعرفي متى ستعود.

- وإذا كانت موجودة وردّت علي؟

- اسأليها عن موعد تستطيع فيه مقابلة السيد برودريب في مكتبه في لندن في الأسبوع القادم، وعندما تخبرك عن الموعد سجليه على ورقة ثم ضعي السماعة.

- يا للأشياء التي تفكرين بها! لِمَ كل هذا؟ لماذا تريدين مني أنا عمل ذلك؟

- إن أمر الذاكرة غريب؛ أحياناً يتذكر المرء صوتاً حتى لو لم يكن قد سمعه منذ أكثر من سنة.

- حسناً، هذه السيدة التي لا أعرف اسمها لم تسمع صوتي أبداً، أليس كذلك؟

- بلى؛ ولهذا طلبت منك إجراء هذه المكالمة.

أنجزت شيري الأمر الذي طُلب منها، وعلمت أن السيدة أندرسون قد خرجت للتسوق لكنها ستأتي على الغداء وستكون موجودة طوال فترة بعد الظهر.

قالت الآنسة ماربل: حسناً، هذا يسهل الأمور. هل وصل إنش؟ آه، نعم، صباح الخير يا إدوارد.

كان اسم السائق في الواقع هو جورج، ومع ذلك مضت الآنسة ماربل قائلة: أريدك أن تأخذني إلى هذا العنوان، وأعتقد أنه لن يستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة.

ثم بدأت الرحلة.

* * *

الفصل الرابع
إيستر والترز

خرجت إيستر أندرسون من المتجر وذهبت إلى حيث كانت توقف سيارتها. فكرت بأن العثور على موقف للسيارة كان يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وفجأة اصطدمت بامرأة عجوز كانت قادمة في اتجاهها وهي تعرج قليلاً في مشيتها. اعتذرت لها، ولكن المرأة الأخرى ما لبثت أن صاحت قائلة: يا إلهي! مَنْ؟ أنت بالتأكيد... السيدة والترز، أليس كذلك؟ إيستر والترز؟ لا أظنك تذكرينني. أنا جين ماربل، لقد التقينا في الفندق في سينت هونري. آه، لقد كان ذلك منذ وقت طويل... سنة ونصف السنة تقريباً.

- الآنسة ماربل؟ هذه أنت بالتأكيد! غريب أن أراك هنا.

- فرصة طيبة أن أراك. لقد جئت لتناول الغداء عند إحدى الصديقات قريباً من هنا لكني سأمرّ من آلتون في طريق عودتي. هل ستكونين في بيتك بعد ظهر اليوم؟ كم أرغب في جلسة أحاديث معك! جميل جداً أن أرى صديقة قديمة.

- نعم، بالطبع. في أي وقت بعد الثالثة.

تم تثبيت الموعد، وقالت إيستر أندرسون لنفسها وهي تبتسم: جين ماربل العجوز؟ غريب ظهورها المفاجئ هذا؛ لقد كنت أظن أنها توفيت منذ زمن طويل.

* * *

دقّت الآنسة ماربل على الجرس في وينسلو لودج في الساعة الثالثة والنصف بالضبط، ففتحت إيستر لها الباب وأدخلتها. جلست الآنسة ماربل على الكرسي الذي قُدِّم لها وهي تضطرب بأسلوبها المتململ الذي تلجأ إليه عادة عندما تكون عصبية قليلاً أو عندما تريد أن تبدو عصبية قليلاً. وفي هذه الحالة كان اضطرابها ادّعاء، إذ إن الأمور قد جرت كما كانت ترجو تماماً.

قالت تخاطب إيستر: جميل جداً أن أراك، جميل جداً رؤيتك مرة أرى. إنني أرى الأمور غريبة جداً في هذا العالم؛ تأملين أن تلتقي بشخص مرة أخرى وتكونين متأكدة تماماً من أنك ستقابلينه، ثم تمضي الأيام وتحدث المفاجأة فجأة.

قالت إيستر: ثم نقول إنه عالم صغير جداً! أليس كذلك؟

- نعم، وأظن أن في ذلك شيئاً من الصحّة، رغم أنه يبدو عالماً كبيراً جداً، كما أن جزر الهند الغربية بعيدة جداً عن إنكلترا... أعني أنه كان ممكناً أن ألتقي بك في أي مكان آخر، في لندن مثلاً، في متجر هارودز أو في محطة قطار أو في حافلة... الاحتمالات كثيرة جداً.

- نعم، الاحتمالات كثيرة جداً، لكنني لم أكن أتوقع رؤيتك هنا بالتأكيد لأنها ليس منطقتك، أليس كذلك؟

- بلى، ليست منطقتي. ومع ذلك فأنت لست بعيدة جداً عن قرية سينت ميري ميد حيث أعيش. الواقع أنها تبعد نحو خمسة وعشرين ميلاً فقط، ولكنها خمسة وعشرون ميلاً في الريف حيث لا توجد لدى المرء سيارة، والواقع أنني لا أستطيع شراء سيارة، وعلى أية حال فإنني لا أستطيع قيادتها... لذلك فإن الواحد منا لا يرى إلا جيرانه الذين يصلهم خط الحافلة فقط أو يضطر أن يذهب من القرية بسيارة أجرة.

قالت إيستر: إنك تبدين بصحة ممتازة.

- كنت على وشك القول بأنك أنت التي تبدين في صحة ممتازة يا عزيزتي. لم أكن أعرف أنك تعيشين في هذه المنطقة.

- لقد سكنت هنا منذ فترة قصيرة فقط... منذ زواجي.

- آه، لم أكن أعلم. هذا أمر جميل، لا بد أنني فاتني معرفة الخبر رغم أنني أقرأ صفحة الزيجات دائماً.

- لقد تزوجت منذ أربعة أشهر أو خمسة، واسمي الآن هو السيدة أندرسون.

- السيدة أندرسون؟ نعم. يجب أن أحاول تذكره. وزوجك؟

فكرت بأنه سيكون من غير الطبيعي أن لا تسأل عن الزوج؛ فمشهور عن السيدات العجائز أنهن فضوليات جداً. قالت إيستر: إنه مهندس، وهو يدير فرع إحدى الشركات. إنه...

ترددت قليلاً قبل أن تضيف: أصغر مني بقليل.

أجابتها الآنسة ماربل على الفور: هذا أفضل بكثير. آه، أفضل

بكثير يا عزيزتي. في هذه الأيام يشيخ الرجال بسرعة أكثر من النساء. أعرف أن الناس لم يعتادوا قول ذلك، لكنها حقيقة واقعة بالفعل. أعني أن أمراضهم أكثر تعدداً، وأظن ذلك عائداً إلى أنهم يقلقون ويعملون كثيراً، ثم بعد ذلك يرتفع ضغط دمهم أو ينخفض أحياناً، وأحياناً أخرى يصابون ببعض المشكلات القلبية، كما أنهم معرضون للإصابة بالقرحة... لا أظن أننا نقلق كثيراً مثلهم معشر النساء، أعتقد أننا الجنس الأقوى.

- قد يكون هذا صحيحاً.

ابتسمت للآنسة ماربل، وأحست الآنسة ماربل بالاطمئنان. في آخر مرة رأت فيها إيستر كانت إيستر تبدو وكأنها تكرهها، وربما كانت تكرهها في ذلك الوقت فعلاً، أما الآن فربما كانت تشعر ببعض الامتنان. لعلها أدركت أنها ربما كانت ترقد الآن في قبر في مقبرة الكنيسة بدلاً من العيش حياة سعيدة مع السيد أندرسون.

قالت الآنسة ماربل: إنك تبدين في أتم صحة ومرحة جداً.

- وكذلك أنت يا آنسة ماربل.

- آه، لقد كبرت في السن الآن، وفي مثل سني يصاب المرء بكثير من الأمراض. لا أقصد الأمراض الميؤوس منها، ولكن المسنّ يصاب في العادة بالروماتزم أو ببعض الآلام والأوجاع في جسده. إن قدميّ ليستا كما أحب أن يكونا، كما أن ظهري وكتفيّ ويديّ تؤلمني. يا إلهي! ما كان يجب أن أتحدث عن هذه الأمور. إن بيتك جميل جداً.

- نعم، لم تمضِ علينا فترة طويلة فيه. لقد انتقلنا إليه قبل أربعة أشهر تقريباً.

نظرت الآنسة ماربل حولها. كانت قد ظنت أنهما لم ينتقلا إلاّ حديثاً بالفعل، بل إنها رأت أيضاً أنهما عندما انتقلا إلى هذا المنزل قد جهّزاه بكل وسائل الراحة؛ فالأثاث ثمين ومريح وفيه ترف: ستائر جيدة، أغطية جيدة، لا يوجد ذوق فني خاص واضح ولكنها لم تكن لتتوقع مثل هذا الذوق. ظنت أنها تعرف سبب هذا المظهر من الرخاء، ورأت أنه قد جاء من التركة الكبيرة التي تركها السيد رافائيل لإيستر. وقد سعدت عندما رأت أن السيد رافائيل لم يغير رأيه في هذه الناحية.

قالت إيستر وكأنها تكاد تعرف ما كان يدور في ذهن الآنسة ماربل: أظن أنك قد قرأت خبر نعي السيد رافائيل؟

- نعم، نعم؛ قرأته بالفعل. كان ذلك قبل نحو شهر، أليس كذلك؟ لقد أسفت كثيراً. أمر محزن جداً، رغم أن المرء كان يعرف ذلك كما أظن، فقد اعترف هو بنفسه به، أليس كذلك؟ لقد ألمح عدة مرات إلى أن حياته لن تطول. أظن أنه تصرف كرجل شجاع إزاء هذا الموضوع، أليس كذلك؟

- بلى؛ كان رجلاً شجاعاً جداً وكريماً جداً في الواقع. لقد أخبرني في بداية عملي عنده أنه سيعطيني راتباً ممتازاً ولكن عليّ أن أوفر جزءاً منه لأن عليّ -كما قال- أن لا أتوقع منه أي شيء آخر. والحقيقة أنني لم أتوقع أن أحصل منه على شيء آخر؛ فقد كان رجلاً يلتزم بكلمته كثيراً. لكن من الواضح أنه غيّر رأيه.

قالت الآنسة ماربل: نعم، نعم، أنا سعيدة بهذا. كنت أعتقد هذا... إنه لم يقل شيئاً من هذا بالطبع لكني تساءلت في نفسي.

قالت إيستر: لقد ترك لي مبلغاً كبيراً من المال، مبلغاً كبيراً فاجأني. كان ذلك مفاجأة كبيرة بالفعل، ولم أكد أصدق الأمر في البداية.

- أظن أنه أراد جعل الأمر مفاجأة لك؛ أظنه كان من هذا النوع من الرجال. هل ترك أي شيء لذلك الرجل... ماذا كان اسمه؟ ذلك الرجل الذي كان يسهر عليه ويعالجه، المدلّك؟

- آه، تقصدين جاكسون؟ لا، لم يترك له أي شيء، لكني أعتقد أنه قدّم له هدايا قيّمة وكبيرة في السنة الأخيرة.

- هل رأيت جاكسون بعدها؟

- لا، لا أظن أنني رأيته منذ أن غادرنا تلك الجزر. لم يبقَ مع السيد رافائيل بعد عودتنا إلى إنكلترا، وأظن أنه ذهب للعمل مع أحد اللوردات في منطقة جيرسي أو جيرنسي.

قالت الآنسة ماربل: كنت أرغب في رؤية السيد رافائيل مرة أخرى. يبدو غريباً أن لا أراه بعد كل ما عملناه معاً؛ أنا وهو وأنت وبعض الآخرين. وبعدها، بعدما عدتُ إلى الوطن وبعد مرور ستة أشهر بدا لي مدى العلاقة الحميمة التي توطدت بيننا في أوقات الشدة تلك، ومع ذلك استغربت كيف لا أعرف عن أخبار السيد رافائيل شيئاً. فكرت في هذا الأمر قبل أسابيع قليلة فقط بعدما قرأت خبر نعيه، وتمنيت لو أنني علمت المزيد عنه. أين وُلد؟ وماذا عن والديه،

كيف كانا؟ وهل له أولاد أو أبناء أو بنات أخوة أو أية أسرة؟ أودّ كثيراً معرفة ذلك.

ابتسمت إيستر أندرسون قليلاً، ونظرت إلى الآنسة ماربل وملامحها توشك أن تقول: "نعم، أنا واثقة من أنك تريدين دائماً معرفة كل شيء عن كل شخص تقابلينه". ولكنها اكتفت بالقول: الحق أن هناك شيئاً واحداً يعرفه الجميع عنه.

قالت الآنسة ماربل على الفور: أنه كان ثرياً جداً. هل هذا ما تقصدينه؟ عندما تعرفين أن شخصاً ما غني جداً فإنك لا تسألين أي شيء آخر عنه. أقصد أنك لا تطلبين معرفة المزيد عنه، فقط تقولين في نفسك: "إنه غني جداً"، أو تقولين: "إنه واسع الثراء"، وتخفضين صوتك قليلاً لأن لقاء أي شخص واسع الثراء أمر مؤثّر جداً ويترك انطباعاً في النفس.

ضحكت إيستر قليلاً، وسألتها الآنسة ماربل: هل كان متزوجاً؟ إنه لم يذكر شيئاً عن وجود زوجة.

- لقد فقَدَ زوجته قبل سنوات كثيرة. أظن أنه فقدها بعد زواجهما بوقت قصير، كما أظن أنها كانت أصغر منه بكثير. أعتقد أنها توفيت بمرض السرطان، أمر محزن.

- أكان له أولاد؟

- آه، نعم؛ ابنتان وولد. بنت متزوجة وتعيش في أمريكا، والبنت الأخرى توفيت وهي صغيرة على ما أظن. لقد قابلت البنت الأمريكية مرة، ولم تكن مثل أبيها على الإطلاق. كانت -في الواقع- فتاة هادئة وتبدو كئيبة. ولم يتحدث السيد رافائيل عن ابنه أبداً، أظن

أنه كانت بينها مشكلة، فضيحة أو شيء كهذا، وأظنه توفي قبل بضع سنوات. على أية حال فإن والده لم يكن يذكره أبداً.

- يا إلهي! هذا محزن جداً.

- أعتقد أن ذلك قد حدث منذ زمن بعيد، وأعتقد أنه رحل إلى مكان ما في الخارج ولم يعد أبداً... ومات هناك.

- وهل حزن السيد رافائيل لذلك؟

- لم يكن أحدٌ قادراً على معرفة أمره. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يسعون إلى تقليل خسائرهم دوماً، ولو ظهر له أن ابنه أصبح سيئاً وعبئاً عليه ونقمة بدل أن يكون نعمة فإن من شأنه -كما أظن- أن يتخلى عنه مباشرة. ربما قام بما هو ضروري بعد ذلك، كإرسال المال أو الدعم، ولكنه لن يفكر بابنه أبداً بعد ذلك.

- عجباً، ألم يتكلم عنه أبداً أو يقل أي شيء؟

- لعلك تتذكرين أنه لم يكن يتكلم بشيء عن مشاعره الشخصية أو حياته؟

- نعم، نعم، بالطبع. ولكني حسبت أنه ربما أفضى إليك بمتاعبه أو بمشكلاته حيث كنت سكرتيرته لسنوات عديدة.

- لم يكن من النوع الذي يفضي بمتاعبه للآخرين... هذا إن كانت عنده أية متاعب، وهو ما أشك فيه. لقد تزوج عمله إذا صحّ التعبير! كان أباً لعمله وكان عمله هو الابن الوحيد الذي يهتم له؛ كان يستمتع به أشد الاستمتاع، الاستثمار وجمع الأموال وتحقيق إنجازات تجارية غير متوقعة.

همست الآنسة ماربل وهي تكرر الكلمات وكأنها شعار: لا تقل إن فلاناً سعيد حتى يموت!

ويبدو فعلاً أن هذه العبارة قد أصبحت شعاراً في هذه الأيام، أو هكذا رأت الآنسة ماربل الأمر. سألت: إذن لم يكن لديه أي شيء يقلقه قبل وفاته؟

بدت إيستر وقد فوجئت، وقالت: نعم، ولماذا تظنين غير ذلك؟

- الواقع أنني لم أظن أي شيء. كان مجرد تساؤل لأن الناس يبدؤون في أخذ الأمور بقلق أكبر عندما... لن أقول عندما يكبرون بالسن لأنه لم يكن كبيراً بالسن، لكن أقصد أن الأمور تقلق الناس أكثر عندما يقعدهم المرض ولا يستطيعون العمل كما كانوا يفعلون وحينما يتوجب عليهم أن يهونوا على أنفسهم؛ عندها تنتابهم أنواع القلق وتصبح محسوسة أكثر لديهم.

- نعم، أفهم ما تقصدين. لكن لا أظن أن السيد رافائيل كان كذلك. على أية حال فقد اعتزلت العمل عنده منذ فترة... بعد شهر أو شهرين من لقائي بإدموند.

- آه، نعم، زوجك. لا بد أن السيد رافائيل قد تضايق من خسارته لك.

ردّت عليها إيستر بمرح: آه، لا أظن ذلك. لم يكن من شأنه أن ينزعج أو يتضايق من مسألة كهذه؛ كان سيُحضر سكرتيرة أخرى على الفور... وهو ما فعله. وبعدها، إذا لم تعجبه فإنه يتخلص منها ويحضر غيرها إلى أن يجد واحدة تناسبه. كان دوماً رجلاً واعياً جداً.

- نعم، نعم، أفهم هذا. رغم أنه كان يفقد أعصابه بسرعة.

- كان يستمتع بفقد أعصابه، وأظن أنه كان يرى في ذلك شيئاً من الإثارة.

قالت الآنسة ماربل متأملة: إثارة؟! هل تظنين... لقد تساءلت كثيراً، هل تظنين أنه كان للسيد رافائيل أي اهتمام خاص بعلم الجريمة، أقصد دراسة علم الجريمة؟ إنه... لا أدري.

- هل تقصدين بسبب ما حدث في الكاريبي؟

كان صوت إيستر قد أصبح قاسياً فجأة. وأحست الآنسة ماربل بالارتياب من إمكانية استمرارها، ومع ذلك كان لا بد لها من أن تحاول الحصول على معلومات قد تساعدها. قالت: لا، ليس بسبب ذلك، لكنه ربما تساءل بعد ذلك عن سيكولوجية تلك الأشياء، أو أنه أصبح يهتم بالقضايا التي لم تلقَ حلولاً عادلة أو...

كانت أفكارها تزداد تشوشاً شيئاً فشيئاً، فقالت إيستر: ولماذا يهتم بهذه الأشياء؟ لا نريد أن نتكلم عن ذلك الحادث المفزع في سينت هونري.

- آه، نعم، أظن أنك محقة تماماً. أنا آسفة جداً، لقد كنت أفكر في بعض الأشياء التي كان السيد رافائيل يقولها أحياناً. كانت عبارات غريبة مفاجئة وقد سألت نفسي إن كانت لديه أية نظريات... أعني فيما يتعلق بأسباب الجرائم؟

قالت إيستر باختصار: كانت اهتماماته مالية تماماً على الدوام.

ربما كان من شأن عملية احتيال ذكية جداً أن تجذب اهتمامه، ولكن الأمر لا يتعدى ذلك.

كانت تنظر إلى الآنسة ماربل نظرات فاترة، فقالت الآنسة ماربل معتذرة: أنا آسفة، ما كان عليّ أن أتحدث عن أمور محزنة أصبحت الآن من الماضي لحسن الحظ. كما يجب أن أنطلق الآن؛ أريد أن ألحق بالقطار. يا إلهي! ماذا فعلت بحقيبتي؟ آه، نعم، ها هي.

جمعت حقيبتها ومظلتها وبعض الأشياء الأخرى وهي تثرثر وتعتذر إلى أن هدأ التوتر قليلاً، وعندما خرجت من الباب التفتت إلى إيستر التي كانت تلحّ عليها بالبقاء وشرب فنجان من الشاي قائلة: لا، أشكرك يا عزيزتي، لقد تأخرت. إنني سعيدة جداً برؤيتك ثانية كما أهنئك على زواجك وأرجو لك حياة سعيدة. لا أظن أنك ستعملين في أية وظيفة، أليس كذلك؟

- بعض النساء مثلي يفعلن ذلك؛ إنهن يقلن إن العمل مشوق وإنهن يشعرن بالملل عندما لا يكون لديهن عمل، لكني أعتقد بأنني سأستمتع بحياة خالية من العمل، كما سأستمتع بالثروة التي تركها لي السيد رافائيل. كان ذلك عملاً لطيفاً منه وأظن أنه كان يريدني أن أستمتع بها حتى لو أنفقتها بطريقة كان يراها سخيفة وغبية، طريقة أنثوية! ثياب غالية الثمن وتسريحات شعر جديدة ومثل هذه الأشياء... لقد كان يرى مثل هذه الأشياء سخيفة جداً.

ثم أضافت فجأة: لقد كنت معجبة به، نعم، أعجبت به تماماً. أظن أن السبب أنه كان يمثل تحدياً لي، كان يصعب التعايش معه ولذلك استمتعت في إدارة شؤونه.

- وفي «إدارته» هو أيضاً، أليس كذلك؟

- ليس تماماً، ولكنني نجحت في ذلك بأكثر مما كان يعتقد في الحقيقة.

خرجت الآنسة ماربل إلى الشارع تمشي بخطوات متثاقلة. نظرت وراءها مرة ثانية ولوّحت بيدها، كانت إيستر أندرسون تقف على عتبة الباب ولوّحت لها مبتهجة.

قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: لقد ظننت أن لها علاقة بذلك الأمر أو أنها تعرف شيئاً عنه، ولكن أظن أنني مخطئة. نعم، لا أظن أنها معنية بهذا الأمر، أياً كانت طبيعته وبأية طريقة كانت. يا إلهي! أشعر أن السيد رافائيل كان يتوقع مني أن أكون أذكى بكثير مما أنا عليه. أعتقد أنه كان يتوقع مني تجميع الخيوط... ولكن أية خيوط؟ ترى ماذا أفعل بعد ذلك؟

هزت رأسها بأسف. كان عليها أن تفكر بالأشياء تفكيراً متروياً، لقد تُرك هذا الأمر لها، تُرك لها لكي ترفض أو تقبل، ولكي تفهم ما هو أو لا تفهم أي شيء، ولكي تواصل عملها ترجو أن يعطيها أحدٌ ما دليلاً أو إرشاداً معيناً ينير لها الطريق. كانت من وقت لآخر تغلق عينيها وتحاول أن تتخيل وجه السيد رافائيل، جالساً في حديقة الفندق في جزر الهند الغربية في بدلته الصيفية ووجهه المتجعد النكد وتهكماته. إن ما كانت تريد حقاً معرفته هو ما كان يدور في ذهنه عندما ابتدع هذه الخطة وعندما شرع في تنفيذها لكي يغريها بقبولها... لكي يقنعها بقبولها... أوربما لكي يرهبها لقبولها. وبالنظر لطبيعة السيد رافائيل فإن هذه العبارة الأخيرة هي الأرجح ضمن دوافعه. لكن لنفترض أنه

أراد عمل شيء واختارها لتقوم بهذا العمل. لماذا؟ ألأنها خطرت بباله فجأة؟ ولكن لماذا خطرت بباله؟

أعادت التفكير بالسيد رافائيل وبالأشياء التي حدثت في سينت هونري. هل جعلته المشكلة التي كان يفكر فيها وقت وفاته يعود إلى التفكير بزيارته تلك إلى جزر الهند الغربية؟ هل كانت تتعلق -بطريقة ما- بشخص كان موجوداً هناك، شخص شارك أو شاهد شيئاً هناك، وهل ذلك هو ما ذكّره بالآنسة ماربل؟ هل هناك أية رابطة أو صلة؟ إذا لم يكن فلماذا فكر بها فجأة؟ ما هي تلك الميزة التي تمتلكها وتجعلها مفيدة له؟ إنها عجوز مشتتة التفكير، إنسانة عادية تماماً، ليست قوية من الناحية الجسدية ومن الناحية العقلية لم تعد صافية الذهن كما كانت سابقاً. ما هي مؤهلاتها الخاصة؟ لم تستطع أن ترى أية مؤهلات. هل يمكن أن يكون الأمر دعابة من طرف السيد رافائيل؟ حتى لو كان السيد رافائيل على وشك الموت فإنه ربما أراد القيام بمزحة تتناسب مع روح السخرية الغريبة التي كان يمتاز بها.

لم تستطع أن تنكر أن السيد رافائيل ربما كان يريد الدعابة حتى وهو على سرير الموت، ربما كان يريد إشباع روح السخرية عنده. وقالت الآنسة ماربل تحدث نفسها بحزم: لا بد... لا بد أنني أمتلك مؤهلات محددة لأمر محدد.

لكن ما هي المؤهلات التي تملكها؟ تساءلت الآنسة ماربل: ما هي المؤهلات التي أملكها ويمكن أن تفيد أي شخص لعمل أي شيء؟

فكرت في نفسها بتواضع. إنها امرأة فضولية تسأل الأسئلة، إنها كأترابها من النساء المسنات اللاتي يُتوقع منهن توجيه الأسئلة. تلك

هي إحدى النقاط، نقطة محتمَلة. يمكنك أن ترسل متحرياً خاصاً ليوجه أسئلة أو محققاً نفسانياً، ولكنك تستطيع أيضاً وبسهولة أكثر أن ترسل سيدة مسنة ذات طبيعة فضولية وتطفلية، تتحدث كثيراً ولها رغبة في اكتشاف الأمور، ومع ذلك يبدو الأمر طبيعياً للغاية.

قالت الآنسة ماربل تحدث نفسها: عجوز ثرثارة... نعم، معروف عني أنني عجوز ثرثارة. يوجد الكثير من العجائز الثرثارات وكلهن متشابهات، وبالطبع فإنني عجوز عادية، عجوز عادية مشتتة التفكير. وهذا بالطبع تمويه جيد. يا إلهي! أتُراني أسير على الطريق السليم في التفكير. أحياناً أفكر تفكيراً سليماً وأعرف طبائع الناس، أقصد أنني أعرف طبائع الناس لأنهم يذكّرونني بأناس آخرين معينين ممن عرفتهم، ولذلك أعرفُ بعضَ عيوبهم وبعضَ حسناتهم وأعرف أي نوع من الناس هم. هذه ميزة أخرى.

فكرت ثانية في سينت هونري وفندق غولدن بالم. وحاولت مرة أخرى بحث احتمالات وجود رابطة من خلال زيارتها لإيستر والترز، لا شك أنها زيارة عديمة الجدوى... هذا ما قررته الآنسة ماربل. لم يبدُ وجود أية رابطة تبدأ من هناك، لا شيء يمكن ربطه مع طلب السيد رافائيل من الآنسة ماربل أن تشغل نفسها بأمر ما زالت تجهل طبيعته.

صاحت الآنسة ماربل: يا إلهي، كم أنت رجل مضجر يا سيد رافائيل!

قالتها بصوت مرتفع، وكانت نبرة التأنيب ظاهرة في صوتها. ومع ذلك، وعندما صعدت على سريرها فيما بعد ووضعت زجاجة

الماء الساخن فوق ذلك الجزء من ظهرها الذي يؤلمها من الروماتزم تكلمت ثانية بما يشبه الاعتذار: لقد بذلت قصارى جهدي.

تكلمت بصوت مرتفع وكأنها كانت تخاطب شخصاً موجوداً معها في الغرفة. صحيح أنه قد يكون في أي مكان، ولكن حتى في هذه الحالة ربما كان يوجد اتصال روحي ما أو هاتفي، وإذا ما كان الأمر كذلك فإنها ستتكلم بشكل محدد ومباشر: لقد فعلت كل ما بوسعي، أفضل شيء وفق إمكاناتي، ولا بد أن أترك الأمر لك الآن.

بعد ذلك اضطجعت بارتياح أكثر وبسطت يدها وأطفأت المصباح وراحت في نوم عميق.

* * *

الفصل الخامس
تعليمات من العالم الآخر

بعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة وصلها اتصال عن طريق بريد المساء. أخذت الآنسة ماربل الرسالة وعملت بها ما تعمله بالرسائل عادة، قلبتها ونظرت إلى الطابع ونظرت إلى الكتابة على المغلف وقررت أنها ليست فاتورة وفتحتها. كانت مطبوع بالآلة الطابعة.

عزيزتي الآنسة ماربل،

عندما تقرئين هذه الرسالة سأكون ميتاً ومدفوناً أيضاً. لن تُحرق جثتي لأنني كنت أرى دوماً أنه من غير المعقول أن يخرج شبحي من تلك الجرة البرونزية التي تحتوي على رماد جثتي لكي أخرج لشخص حينما أشاء! أما فكرة الخروج من القبر وظهور شبحي للناس فإنها فكرة محتملة أكثر، فهل سأفعل ذلك؟ من يدري! ربما أردت الاتصال بك.

في هذا الوقت سيكون محاميّ قد اتصل بك وقدّم لك عرضاً محدداً. أرجو أن تكوني قد قبلتِه، وإن لم تكوني قد قبلتِه فلا تشعري بالندم؛ إنه خيارك. ستصلك هذه

الرسالة في الحادي عشر من الشهر إذا فعل محاميّ ما طلبته منه وإذا قام ساعي البريد بأداء الواجب المتوقع منه، وخلال يومين من الآن ستتلقّين اتصالاً من أحد مكاتب السفريات في لندن. أرجو أن لا تستائي من العرض الذي سيتضمنه ذلك الاتصال. لا أريد أن أقول أكثر؛ أريدك أن تنظري إلى الأمر بعقل متفتح. اهتمي بنفسك. أعتقد أنك ستستطيعين القيام بذلك؛ فأنت امرأة ذكية جداً. أتمنى لك حظاً موفقاً وليحرسك الله.

صديقك المحب: ج. ب. رافائيل

قالت الآنسة ماربل: يومان!

أحست أنها لا تكاد تستطيع الانتظار. وقد قام مكتب البريد بواجبه المطلوب منه وكذلك مكتب السفريات، فوصلتها الرسالة بعد يومين:

الآنسة ماربل العزيزة،

بناء على التعليمات التي أُعطيت لنا من السيد رافائيل نرسل لك تفصيلات رحلتنا رقم ٣٧ التي ستنطلق من لندن يوم الخميس القادم السابع عشر من هذا الشهر، فإن استطعت المجيء إلى مكتبنا في لندن فإن السيدة ساندبورن التي سترافق الرحلة سيسرها أن تعطيك كل التفاصيل وتجيب على جميع أسئلتك.

إن رحلاتنا تستمر من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع، ويعتقد السيد رافائيل أن هذه الرحلة بالذات ستنال رضاك لأنها ستزور جزءاً من إنكلترا لم تذهبي إليه من قبل حسب

ظن السيد رافائيل، وهي تتضمن بعض المناظر الطبيعية الخلابة والحدائق الجذابة، وقد حجز لك أفضل إقامة وأفضل وسائل الراحة التي نستطيع توفيرها لك.

أرجو أن تخبرينا عن الموعد الذي يناسبك لزيارة مكاتبنا في شارع بيركلي.

طوت الآنسة ماربل الرسالة ووضعتها في حقيبتها وكتبت رقم الهاتف، وفكرت في بعض صديقاتها ثم اتصلت باثنتين، واحدة منهما كانت قد ذهبت في رحلة مماثلة مع شركة السفريات تلك وقد أثنت على الشركة، أما الثانية فلم تذهب شخصياً لكن بعض صديقاتها سافرن مع هذه الشركة بالذات وقلن إن كل شيء كان رائعاً رغم أنها مكلفة، لكنها ليست متعبة لامرأة مسنّة. ثم اتصلت برقم هاتف المكتب في شارع بيركلي وقالت إنها ستزورهم يوم الثلاثاء القادم.

وفي اليوم التالي تحدثت مع شيري في هذا الموضوع. قالت: ربما أسافر يا شيري في رحلة.

- رحلة؟ تقصدين رحلة خارجية؟

ليست خارجية، وإنما داخلية في البلد، لزيارة مبان تاريخية وحدائق.

- أترين ذلك خطوة صحيحة في مثل عمرك؟ هذه الرحلات متعبة جداً، وأحياناً يتطلب الأمر أن تمشي أميالاً.

- صحتي جيدة، وقد سمعت أنهم في هذه الرحلات يحرصون على تقديم فترات استراحة للأشخاص الضعفاء.

قال شيري: إذن اهتمي بنفسك، فلا نريدك أن تصابي بأزمة قلبية كائناً ما كانت روعة المناظر التي ستشاهدينها. إنك كبيرة قليلاً على مثل هذه الرحلات. اعذريني إذ أقول ذلك رغم أنها تبدو وقاحة مني، فأنا لا أحب أن أفكر بإمكانية مكروه يصيبك نتيجة الجهد الكبير والإرهاق.

قالت الآنسة ماربل بوقار: أستطيع الاهتمام بنفسي.

- حسناً، حاذري على نفسك.

* * *

حزمت الآنسة ماربل حقيبتها وذهبت إلى لندن وحجزت لها غرفة في فندق متواضع. فكرت في نفسها: آه، فندق بيرترام، كم كان رائعاً هذا الفندق! يا إلهي، يجب أن أطرد هذه الأمور من تفكيري، إن منطقة سينت جورج منطقة جيدة.

وفي الموعد المحدد كانت في شارع بيركلي ودخلت المكتب، حيث نهضت امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً لتحيتها، وقدمت نفسها بأنها السيدة ساندبورن وأنها مسؤولة شخصياً عن هذه الرحلة. قالت الآنسة ماربل: هل أفهم أن هذه الرحلة في حالتي...

ترددت، لكن السيدة ساندبورن التي أحست بارتباك الآنسة ماربل أسرعت تقول: آه، نعم، كان يجب أن أشرح لك الأمر في الرسالة التي بعثناها لك بطريقة أفضل. لقد دفع السيد رافائيل جميع النفقات.

- هل تعرفين أنه قد مات؟

- آه، نعم، لكن ذلك تم ترتيبه قبل وفاته. ذكر لنا أنه مريض لكنه يريد تقديم خدمة لصديقة كبيرة بالسن لم تحصل على فرصة في السفر كما كانت تتمنى.

* * *

بعد يومين حملت الآنسة ماربل حقيبتها اليدوية الصغيرة وحقيبة الملابس الجديدة الجميلة وسلمتها للسائق، وانطلقت بها حافلة مريحة فخمة باتجاه شمال غرب لندن. بدأت تتفحص قائمة الركاب المرفَقة مع كتاب دليل الرحلة الذي يعطي تفصيلات عن خط الرحلة ومعلومات مختلفة عن الفنادق ووجبات الطعام والأماكن التي سيشاهدها الركاب وبدائل أخرى في أيام التجول الحر.

قرأت الآنسة ماربل القائمة وتفحصت وجوه زملائها الركاب. لم يكن في هذا العمل أية صعوبة لأن الركاب الآخرين كانوا يفعلون الشيء نفسه، كانوا ينظرون إليها وإلى الآخرين، لكنها لاحظت عدم وجود أحد ينظر إليها نظرات ذات اهتمام خاص.

السيدة رايسلي بورتر

الآنسة جوانا كراوفورد

الكولونيل ووكر وزوجته

السيد باتلر وزوجته

الآنسة إليزابيث تيمبل

البروفسور وانستيد

السيد ريتشارد جيمسون

الآنسة لوملي

الآنسة بنثام

السيد كاسبر

الآنسة كوك

الآنسة بارو

السيد إيملين برايس

الآنسة جين ماربل

كان بين الركاب أربع سيدات مسنّات، لاحظتهن الآنسة ماربل أولاً حتى تزيحهن عن الطريق (إذا صح التعبير). اثنتان منهما كانتا مسافرتين معاً، وقدّرت الآنسة ماربل أن أعمارهما بحدود السبعين، يمكن اعتبارهما من بنات جيلها تقريباً. واحدة منهما من الواضح أنها من النوع شديد التذمر والشكوى، ممّن يصرون -مثلاً- على الجلوس في المقدمة، فإذا تعذر ذلك أصروا على مؤخرة الحافلة، في الجانب المواجه للشمس أو في جانب الظل... وكانتا تحملان معهما حصراً ولفحات صوف ومجموعة من الكتب الإرشادية. كانتا شبه مقعدتين وتتوجعان من آلام القدم أو الظهر أو الركبة ولكنهما كانتا من ذلك الطراز الذي لا يمنعه السن أو المرض من التمتع بالحياة طالما توفرت فرصة لذلك، من العجائز الثرثارات لكنهما ليستا -بالتأكيد- ممن يحبون الجلوس في البيت.

وفتحت الآنسة ماربل صفحة لهما في الدفتر الصغير الذي تحمله.

خمسة عشر راكباً بالإضافة إليها وإلى السيدة ساندبورن. وبما أنها وُضعت مع هذه المجموعة في الرحلة فلا بد أن لواحد من هؤلاء الركاب الخمسة عشر أهمية معينة؛ إمّا مصدراً للمعلومات أو شخصاً

معنياً بالقانون أو بقضية قانونية، أو ربما يكون قاتلاً... قاتلاً ربما ارتكب جريمة أو يستعد لارتكابها!

وفكرت الآنسة ماربل بأن أي شيء محتمَل وممكن مع السيد رافائيل! على أية حال لا بد أن تدوّن ملاحظات عن هؤلاء الركاب. ستدوّن على الصفحة اليمنى من دفترها الأشخاص الذين يستحقون الاهتمام من وجهة نظر السيد رافائيل وعلى الصفحة اليسرى ستدوّن أسماء الأشخاص الذين يمكن أن يفيدوا بشيء، كإعطائها معلومات مثلاً. قد تكون معلومات لا يعرفون هم أنفسهم أنهم يمتلكونها، أو حتى لو كانوا يمتلكونها فإنهم لا يعلمون أنها قد تكون مفيدة لها أو للسيد رافائيل أو للشرطة أو العدالة. وفي مؤخرة دفترها الصغير ربما تكتب هذه الليلة بعض الملاحظات حول ما إذا كان أحدٌ من الركاب قد ذكّرها بشخصيات عرفتها في الماضي في سينت ميري ميد وأماكن أخرى، أية تشابهات قد تكون مؤشّراً مفيداً، فمثل هذه الملاحظات كانت مفيدة في مناسبات سابقة.

بدا واضحاً أن السيدتين المسنّتين الأخريين كانتا مسافرتين كل واحدة على حدة، وكل واحدة منهما كانت في الستين من العمر تقريباً. إحداهما كانت امرأة تهتم بنفسها وبهندامها وواضحٌ أنها ذات مكانة اجتماعية رفيعة؛ كان صوتها عالياً واستبدادياً، ويبدو أنها قد جاءت مع واحدة أخرى، ابنة أخ لها في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها كانت تخاطبها بالعمة جيرالدين. ولاحظت الآنسة ماربل أن الفتاة معتادة على التأقلم مع سطوة عمتها، وكانت فتاة قديرة إضافة إلى كونها فتاة جذابة.

وعلى الجانب المناظر لمقعد الآنسة ماربل في الطرف الآخر

من الممر جلس رجل ضخم عريض المنكبين ذو جسم غير متناسق يبدو مثل لُعبة رَكبّها طفل من أحجار خشبية. أما وجهه فقد بدا أنه كان ينبغي أن يكون مستديراً، ولكنه تمرد على ذلك وسعى لاكتساب شكل مربع عن طريق حنك قوي عريض. كان ذا شعر كثيف أشيب وحاجبين كثّين عظيمين يتحركان صعوداً ونزولاً لإعطاء أهمية لما يقوله. أما عباراته فقد بدا أنها لا تصدر إلاّ على شكل سلسلة من النباح كما لو كان كلباً ثرثاراً! وكان يشترك معه في المقعد أجنبي أسمر طويل القامة يتململ في جلسته ويومئ برأسه كثيراً، وكان يتكلم بلهجة إنكليزية غريبة جداً تتخللها عبارات بالفرنسية والألمانية. وكان زميله الضخم يبدو قادراً على التأقلم مع هذه المذابح اللغوية وتغيير لسانه بكل سرور إلى الفرنسية والألمانية.

نظرت الآنسة ماربل إليهما نظرة سريعة وقررت أن صاحب الحاجب الغزير لا بد أن يكون البروفسور وانستيد وأن الأجنبي المهتاج هو السيد كاسبر. وتساءلت عن الموضوع الذي كانا يبحثانه بمثل هذه الحيوية، لكنها لم تستطع فهمه بسبب سرعة وقوة الإرسال لدى السيد كاسبر.

المقعد أمامهما شغلته المرأة الأخرى ذات الستين عاماً، وهي امرأة طويلة القامة ربما كانت تزيد عن الستين عاماً، ولكن كان من شأنها أن تقف متميزة ضمن أي حشد من الناس أينما كان. كانت امرأة قد حافظت على وسامة بالغة، ذات شعر أسود بيّضه الشيبُ يرتفع عن رأسها عالياً، وكان صوتها منخفضاً واضحاً. أحسّت الآنسة ماربل أنها امرأة ذات شخصية مرموقة، امرأة مهمة! نعم، كان واضحاً أنها ذات شخصية مهمة. قالت تحدّث نفسها: "إنه تذكرني بالسيدة إيميلي والدرون". كانت السيدة إيميلي والدرون عميدة كلية في أكسفورد

وعالمة مشهورة، ومنذ أن قابلتها الآنسة ماربل بصحبة ابن أخيها لم تنسَها أبداً.

تابعت الآنسة ماربل مسحها للركاب: هناك زوجان، الزوجة أمريكية في وسط العمر، وهي ودودة وتتكلم كثيراً، والزوج هادئ يوافقها على كل شيء، وكان واضحاً أنهما من محبّي السفر ورؤية المناظر. كما كان هناك زوجان إنكليزيان في منتصف العمر لم تتردد الآنسة ماربل لحظة في كتابة اسمَيهما على أنهما العسكري المتقاعد الكولونيل ووكر وزوجته.

وعلى المقعد خلفها كان يجلس رجل نحيف طويل القامة في الثلاثين من عمره تقريباً، يتكلم بعبارات عالية التخصص، ومن الواضح أنه مهندس معماري. وفي آخر الحافلة جلست سيدتان في أواسط العمر مسافرتين معاً. كانتا تتناقشان حول دليل الرحلة وما تحمله الرحلة من مفاجآت وأشياء جميلة، وكانت إحداهما سمراء نحيلة أما الثانية فكانت شقراء مكتنزة الجسم، وبدا وجهها مألوفاً بعض الشيء للآنسة ماربل. تساءلت أين رأتها أو التقت بها من قبل، لكنها لم تستطع تذكّر المناسبة. ربما كانت قد التقت بها في إحدى الحفلات أو جلست قبالتها في قطار... لم يكن فيها شيء خاص تتذكره.

بقي لها تخمين مسافر واحد فقط، وهو شاب في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر. كان يرتدي ثياباً تناسب عمره وجنسه، بنطالاً ضيقاً من الجينز الأسود وسترة أرجوانية اللون، وكان شعره كثّاً أسود غير مرتب. كان ينظر بشيء من الاهتمام إلى ابنة أخي المرأة المتسلطة، ولاحظت الآنسة ماربل أيضاً أن الفتاة كانت تنظر

إليه باهتمام هي الأخرى. فعلى الرغم من تفوق العجائز الثرثارات ومتوسطات العمر في العدد إلاّ أنه كان ثمة شابّان بين المسافرين.

* * *

توقفت الحافلة حتى يتناول الركاب طعام الغداء في أحد الفنادق على جانب النهر، وقد خصصت مدينة بلينهايم للتجول فيها لرؤية المناظر الطبيعية بعد الظهر. كانت الآنسة ماربل قد زارت بلينهايم من قبل مرتين، لذلك وفّرت جهدها ولم تخرج لرؤية المنطقة وذهبت تستمتع بمناظر الحدائق القريبة من الفندق.

وعندما وصلوا إلى الفندق الذي سيقضون فيه الليلة كان الركاب قد بدؤوا بالتعارف؛ فقد قامت السيدة ساندبورن القديرة بدورها على أكمل وجه في تعريف الركاب بعضهم ببعض، وذلك بتشكيل مجموعات صغيرة وضمّ مَن يبدو بمفرده إليها وهي تقول مثلاً: "يجب أن تطلب من الكولونيل ووكر وصف حديقته لك، إن في حديقته مجموعة رائعة من أشجار الفوشية"... وبهذه العبارات الصغيرة ألّفت بين قلوب الركاب.

في هذا الوقت كانت الآنسة ماربل قادرة على ربط أسماء جميع الركاب بأصحابها؛ فقد ظهر أن صاحب الحاجبين الكثين هو البروفسور وانستيد والرجل الأجنبي هو السيد كاسبر (وهو ما كانت تعتقده)، أما المرأة المتسلطة فكانت السيدة رايسلي بورتر واسم ابنة أخيها جوانا كراوفورد. الشاب ذو الشعر المنفوش هو إيملين برايس، وقد بدا أنه يستكشف مع جوانا كراوفورد ما يجمع بينهما من الأمور

المشتركة كآرائهما حول الاقتصاد والفن والسياسة، والأمور المشتركة التي يكرهانها أيضاً.

وتقربت السيدتان المسنتان من الآنسة ماربل بشكل طبيعي باعتبار قرابة العمر، فناقشن معاً بفرح أمراض المفاصل والروماتزم والحمية والأطباء الجدد والأدوية وذكرياتهن عن علاج ربات البيوت قديماً (الذي أثبت نجاحه رغم فشل جميع أنواع العلاج الأخرى)... ناقشن الرحلات الكثيرة التي سافرن فيها إلى بلاد أجنبية في أوروبا والفنادق ووكالات السفر، وأخيراً مقاطعة سومرست حيث كانت الآنسة لوملي والآنسة بنثام تعيشان، وحيث لا يمكن تصديق المصاعب التي يواجهها المرء في العثور على بستانيين مناسبين.

أما السيدتان متوسطتا العمر المسافرتان معاً فقد ظهر أنهما الآنسة كوك والآنسة بارو. ما زالت الآنسة ماربل تحس أن وجه الشقراء منهما (الآنسة كوك) مألوف لديها، لكنها -مع ذلك- لم تستطع أن تتذكر أين رأتها من قبل. ربما كان ذلك مجرد وهم من جانبها، قد يكون مجرد وهم، لكنها لم تستطع إلاّ أن تشعر بأن الآنسة بارو والآنسة كوك كانتا تتجنبانها؛ بدا أنهما تحرصان على الابتعاد كلما اقتربت... ربما كان ذلك مجرد وهم منها بالطبع.

خمسة عشر شخصاً، أحدهم على الأقل لا بد أن يكون مهماً بطريقة ما.

راحت في تلك الليلة تذكر اسم السيد رافائيل عرضاً حتى تلاحظ ردود فعل المستمعين، ولكن لم يظهر أي رد فعل من أي منهم. عُرِفت المرأة الجميلة المهمة بأنها الآنسة إليزابيث تيمبل،

وهي مديرة متقاعدة لإحدى مدارس البنات المشهورة. لم يبدُ للآنسة ماربل أن أحداً من أفراد المجموعة يمكن أن يكون قاتلاً إلاّ السيد كاسبر، وربما كان ذلك بسبب التحيّز ضد الأجانب. الشاب النحيف هو ريتشارد جيمسون، وهو مهندس معماري.

قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: ربما أنجزُ عملاً أفضل في الغد.

* * *

ذهبت الآنسة ماربل إلى النوم وقد نال منها التعب. كانت رؤية المناظر ممتعة لكنها مرهقة، وكان الأكثر إرهاقاً هو محاولة دراسة خمسة عشر شخصاً مرة واحدة مع التفكّر فيمن عساه يكون منهم ذا علاقة بجريمة قتل. أحسّت الآنسة ماربل أن في هذا الأمر من اللاواقعية ما يجعل المرء لا يأخذه على محمل الجد؛ فقد بدت المجموعة كلها مجموعة بشر لطفاء ممّن يحبون الأسفار والرحلات، ومع ذلك ألقت نظرة سريعة أخرى إلى قائمة الركاب ودوّنت بعض الملاحظات.

السيدة رايسلي بورتر: ليست مرتبطة بعالم الجريمة. امرأة اجتماعية جداً ومستقلة. ابنة أخيها جوان كراوفورد: الشيء نفسه، لكنها تبدو بالغة الكفاءة. ومع ذلك قد يكون لدى السيدة رايسلي بورتر معلومات من نوع معين قد تجد الآنسة ماربل أن لها علاقة بأمور معينة، لا بد أن تبقى على علاقة حسنة معها.

الآنسة إليزابيث تيمبل: ذات شخصية مرموقة مثيرة للاهتمام. إنها لا تُذكّر الآنسة ماربل بأي مجرمة قاتلة عرفتها. قالت الآنسة

ماربل في نفسها: "الواقع أنها امرأة تنضح استقامة، ولو أنها ارتكبت جريمة قتل فستكون لهدف سام أو لهدف اعتبرته سامياً". لكن ذلك لم يكن مقنعاً، ورأت أن الآنسة تيمبل تعرف دائماً ما تفعله ولماذا تفعله وليس من شأنها الانجراف خلف أية أفكار سخيفة عن السمو عندما تكون المسألة مسألة شر يُرتكَب. قالت الآنسة ماربل لنفسها: "إنها امرأة مهمة على أية حال، وربما أراد مني السيد رافائيل لقاءها لسبب معين"، وكتبت هذه الأفكار على الجانب الأيمن من دفتر ملاحظاتها.

ثم غيّرت مجال تفكيرها. كانت تفكر حتى الآن في قاتل محتمَل، ولكن ماذا عن ضحية محتمَلة؟ مَن يمكن أن يكون ضحية متوقعة؟ لا أحد محتمَل. ربما كانت السيدة رايسلي بورتر مؤهَّلة لهذا، فهي تبدو غنية ومكروهة بعض الشيء. ابنة أخيها القديرة قد ترثها، هي والفوضوي إيملين برايس قد يلتقيان في قضية معاداة الرأسمالية. إنها ليست فكرة يمكن تصديقها كثيراً، ولكن لا يبدو وجود أية جريمة أخرى متوقَّعة.

البروفسور وانستيد: رجل مثير، إنها واثقة من هذا، وهو لطيف أيضاً. هل هو عالم أم طبيب؟ لم تكن واثقة بعد لكنها اعتبرته عالماً. وهي نفسها لم تكن تعرف شيئاً عن العلم، ولكن ذلك لم يكن مستبعَداً تماماً.

السيد باتلر وزوجته: استبعدتهما. إنهما أمريكيان لطيفان، ليست لهما أية علاقات أو صلات مع أحد في الهند الغربية أو بأي شخص تعرفه. نعم، لم تظن أن لهما صلة بالموضوع.

ريتشارد جيمسون: ذلك المعماري النحيل. لم تفهم الآنسة

ماربل كيف يمكن إدخال فن المعمار في هذا الأمر، رغم إمكانية ارتباطه. ربما كان للأمر علاقة بتصميم مكان يختبئ فيه المجرم؟ ربما كان في أحد البيوت التي سيزورونها مكان للاختباء قد يحتوي على هيكل عظمي! ولأن السيد جيمسون مهندس معماري فإن من شأنه أن يعرف أين هذا المكان، وقد يساعدها على اكتشافه أو هي تساعده على اكتشافه ثم يكتشفان جثة هناك... لكن الآنسة ماربل ما لبثت أن قالت لنفسها: أي هراء هذا الذي أقوله وأفكر فيه!

الآنسة كوك والآنسة بارو: عاديتان جداً، ومع ذلك فقد رأت واحدة منهما من قبل بالتأكيد. لقد شاهدت الآنسة كوك على الأقل، وفكرت أنها ستتذكر دون شك.

الكولونيل ووكر وزوجته: شخصان لطيفان. متقاعد من الجيش خدم في الخارج، جميل التحدث معهما، لكنها لم تر أنها ستحصل منهما على شيء.

الآنسة بنثام والآنسة لوملي: السيدتان المسنتان. من غير المحتمل أن تكونا مجرمتين، ولكن بما أنهما عجوزان ثرثارتان فقد تعرفان الكثير من الشائعات والأقاويل، أو أن لديهما بعض المعلومات أو ربما قالتا ملاحظة ذات دلالة، حتى لو جاء ذلك في سياق الحديث عن الروماتزم أو التهاب المفاصل أو الأدوية.

السيد كاسبر: ربما كان صاحب شخصية خطيرة، يبدو سريع الاهتياج. سوف تبقيه في القائمة في الوقت الحالي.

إيملين برايس: يُفترَض أنه طالب، والطلاب عنيفون عادة. هل يمكن أن يكون السيد رافائيل قد أرسلها لتعقب طالب؟ ربما اعتمد

هذا على ما فعله الطالب أو أراد فعله أو سيفعله لاحقاً، ربما كان فوضوياً يميل إلى العنف مثلاً.

قالت الآنسة ماربل وقد تعبت فجأة: يا إلهي! يجب أن أنام.

كانت تشعر بالألم في قدميها وفي ظهرها، ورأت أن قواها العقلية لم تكن في أحسن حالاتها. نامت على الفور، وكان نومها مليئاً بالأحلام العديدة. رأت في أحدها أن حاجبَي البروفسور وانستيد قد سقطا لأنهما لم يكونا حاجبيه الحقيقيين بل كانا زائفين! وعندما استيقظت بعد قليل كان انطباعها الأول هو الانطباع الذي يتبع جميع الأحلام في الغالب، وهو الاعتقاد بأن هذا الحلم قد حلّ كل شيء. فكرت في نفسها: "بالطبع، بالطبع!"... حاجباه زائفان وهذا يحل كل شيء؛ إنه هو المجرم!

وللأسف، سرعان ما رأت أنها لم تحل شيئاً، فسقوط حاجبَي البروفسور وانستيد لم يساعدها أبداً. ولسوء الحظ لم تعد تشعر بعد ذلك بالنعاس، فجلست على سريرها وقد عزمت أمرها. تنهّدت ولبست رداءها وذهبت إلى حيث يوجد كرسي عالي الظهر وأخرجت من حقيبتها دفتر ملاحظات أكبر قليلاً وشرعت في العمل.

كتبت: إن المشروع الذي توليته مرتبط بجريمة من نوع ما بالتأكيد؛ فالسيد رافائيل ذكر ذلك في رسالته بوضوح. لقد قال إن لي موهبة في تحسس العدالة وهذا يشمل موهبة تحسس الجرائم بالضرورة، إذن فالأمر ذو علاقة بجريمة، ويفترَض أنها ليست جريمة تجسس أو احتيال أو سرقة لأن مثل هذه الجرائم لم تصادفني أبداً، وليس لي علاقة بمثل هذه الأعمال أو أي معرفة بها أو مهارات خاصة تتعلق بها. إن ما عرفه السيد رافائيل عني ينحصر في تجربته معي

عندما كنّا معاً في سينت هونري، وقد ارتبطنا هناك بجريمة قتل. إن تقارير جرائم القتل التي تنشر في الصحف لم تثر اهتمامي أبداً، كما أنني لم أقرأ كتباً عن علم الجريمة ولم أهتمّ بمثل هذا الموضوع. لقد حدث فقط أن وجدت نفسي في محيط من جرائم القتل مرات أكثر قليلاً من المعتاد. لقد توجه انتباهي إلى جرائم قتل تتعلق بأصدقاء لي أو معارف، وهذه المصادفات الغريبة في ارتباط أناس معينين بموضوعات محددة تحدث أحياناً في الحياة. أتذكّر أن إحدى عماتي تحطمت السفن التي تركبها خمس مرات مختلفة، كما أن إحدى صديقاتي كانت ما يمكن أن أسميه «متعهّدة حوادث» بحيث أن بعض زميلاتها كنّ يرفضنَ ركوب سيارة أجرة معها. لقد وقعت لها أربع حوادث في سيارات أجرة وثلاث حوادث في سيارات خاصة وحادثتا قطار... أشياء كهذه يبدو أنها تقع لأناس معيّنين دون سبب معروف، ورغم أنني لا أحب تدوين ذلك إلاّ أن جرائم القتل تحدث دوماً في المحيط الذي أكون فيه، وأحمد الله أنها لا تحدث لي شخصياً.

توقفت الآنسة ماربل وغيّرت موقعها ووضعت مسنداً وراء ظهرها وأكملت: لا بد من محاولة عمل مسح منطقي قدر الإمكان لهذا المشروع الذي توليت القيام به. إن التعليمات التي لديّ ما زالت ناقصة تماماً حتى الآن، بل غائبة عملياً. ولذلك لا بد أن أسأل نفسي سؤالاً واضحاً: عَلامَ يدور هذا الأمر كله؟ الإجابة: لا أعرف. أمر غريب ومثير، طريقة تصرف غريبة لرجل مثل السيد رافائيل، وخصوصاً أنه كان رجل أعمال ورجل مال ناجحاً. يريدني أن أخمّن وأن أوظّف غريزتي، وأن أمتثل وأطيع هذه التوجيهات التي تُعطى لي أو يُلمِّح بها إليّ.

إذن، النقطة رقم (١): ستُعطى لي توجيهات من رجل ميت.

النقطة رقم (٢): إن القضية التي أقف إزاءها هي قضية عدالة. إما أن أزيل أو أصحح ظلماً أو أنتقم من الشر بتقديمه إلى العدالة، إن هذا يتوافق مع كلمة السر «انتقام العدالة» التي أعطاها لي السيد رافائيل.

بعد الشروحات التي قُدّمت للقضية المطروحة استلمت أول توجيه حقيقي، فقد وجّه السيد رافائيل قبل موته بأن أذهب في الرحلة رقم ٣٧ لشركة السفريات هذه. لماذا؟ هذا ما يجب أن أسأله نفسي. أهو لسبب جغرافي معين أم لوجود صلة ما أو مفتاح للغز؟ بيت مشهور مثلاً؟ أو شيء له علاقة بحديقة معينة أو منظر طبيعي ما؟ كل هذا يبدو مستبعَداً. التفسير الأكثر احتمالاً يكمن في الناس، أو أحد الناس الموجودين ضمن هذه الرحلة. لا أعرف أحداً منهم شخصياً، لكن واحداً منهم على الأقل لا بد أن يكون مرتبطاً باللغز الذي عليّ حلّه. في مجموعتنا شخص مرتبط بجريمة قتل أو معنيٌّ بها، شخص لديه معلومات أو صلة خاصة بضحية الجريمة، أو هو نفسه القاتل. قاتل ما زال بعيداً عن الشبهات.

توقفت الآنسة ماربل هنا فجأة وأومأت برأسها. كانت راضية عن تحليلها حتى الآن. وهكذا ذهبت إلى النوم بعد أن أضافت في دفتر ملاحظاتها عبارة تقول: «هنا ينتهي اليوم الأول».

* * *

الفصل السادس

الحب

في صباح اليوم التالي زارت المجموعة بيتاً ريفياً صغيراً للملكة آن. لم تكن الرحلة إلى هناك طويلة أو متعبة، وكان البيت ساحراً جميلاً ذا تاريخ مشوّق، وكانت له حديقة جميلة غير عادية.

أُعجِب المعماري ريتشارد جيمسون بالبناء الجميل للقصر غاية الإعجاب، وبما أنه كان شاباً من أولئك الذين يحبون التباهي فقد ظل في كل غرفة من غرف القصر يتمهل سير المجموعة ليشير إلى نوعية المواقد في الغرف وليعطي معلومات وتواريخ عنها. ومع استمرار هذه المحاضرات الرتيبة بدأ بعض أفراد المجموعة بالإحساس بالضجر بعد أن أبدوا تقديرهم في البداية، وبدأ بعضهم ينحرف جانباً عن خط سير المجموعة أو يتخلف وراءها. أما القيّم المحليّ على القصر الذي كان مسؤولاً عن مرافقة الزوار فلم يكن سعيداً هو الآخر من قيام أحد الزوار باغتصاب دوره، فقام بعدة جهود لإعادة الأمور إلى نصابها واستلام زمام المبادرة وأداء دوره، لكن السيد جيمسون لم يكن ليذعن. ثم قام الدليل بمحاولة أخيرة قائلاً: في هذه الغرفة -أيها السيدات والسادة- التي يسميها أهل المنطقة «الغرفة البيضاء» عُثر

على جثة! كانت جثة شاب ممدة أمام الموقد وقد طُعن بخنجر، وكان ذلك في القرن الثامن عشر. ويقال إن سيدة القصر كان لها عشيق وقتها، وقد دخل من باب جانبي صغير وصعد درجاً شديد الانحدار ليدخل هذه الغرفة من باب سري قرب الموقد، وقيل إن زوجها السير ريتشارد موفات كان مسافراً إلى بلد بعيد لكنه عاد إلى بيته فجأة فشاهدهما معاً.

ثم سكت سكوت المعجب بنفسه. كان سعيداً من ردود فعل مستمعيه الذين استراحوا من التفصيلات المعمارية التي أجبروا على تجرعها رغماً عنهم.

قالت السيدة باتلر بلهجتها الأمريكية الرنّانة: أليس هذا مثيراً يا هنري؟ في هذه الغرفة جو من نوع خاص... إنني أحس به، أحسّ به بالتأكيد.

قال زوجها مفتخراً وهو يخاطب مَن حوله: إن ميمي حساسة جداً تجاه أجواء الأماكن. عندما كنّا ذات مرة في بيت قديم في لويزيانا...

بدا أن الكلام حول حساسية ميمي تجاه الأجواء سيمضي إلى نهايته، ولذلك انتهزت الآنسة ماربل وبعض الآخرين الفرصة فخرجوا من الغرفة بهدوء ونزلوا الدرج إلى الطابق الأرضي.

قالت الآنسة ماربل تخاطب الآنسة كوك والآنسة بارو اللتين كانتا بجانبها: لقد عاشت إحدى صديقاتي تجربة مثيرة للأعصاب قبل بضع سنوات، فقد وجدت جثة على أرضية غرفة المكتبة في بيتها ذات صباح.

سألتها الآنسة بارو: هل كانت واحدة من العائلة؟ هل كانت مجرد نوبة صرع مثلاً؟

- لا، بل جريمة قتل. كانت فتاة غريبة بلباس السهرة، شقراء، لكن شعرها كان مصبوغاً. كانت فتاة سمراء في الحقيقة و... آه!

سكتت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى شعر الآنسة كوك الأصفر وهو يتدلى من تحت منديلها. لقد تذكرت فجأة؛ عرفت الآن لماذا كان وجه الآنسة كوك مألوفاً لها وعرفت أين رأتها من قبل. لكنها عندما رأتها تلك المرة كان شعرها أسود، أما الآن فهو أصفر زاه.

قالت الآنسة رايسلي بورتر بحزم وهي تنزل الدرج والآخرون وراءها باتجاه الصالة: لن أصعد وأنزل هذا الدرج بعد الآن، كما أن الوقوف في هذه الغرف متعبٌ جداً. أعتقد أن الحدائق هنا قد نالت استحسان دوائر المهتمين بتنسيق الحدائق، وأرى أن نذهب إلى هناك دون إضاعة أي وقت؛ إذ يبدو أن السُحُب تتراكم بسرعة وأعتقد أن السماء ستمطر قبل انقضاء الصباح.

كان للسلطة التي تتحدث بها السيدة رايسلي بورتر أثرها المعتاد؛ فقد تبعها كل من كانوا على مقربة منها أو سمعوها ليخرجوا من الأبواب الزجاجية لقاعة الطعام إلى الحديقة. كانت الحدائق كما قالت السيدة رايسلي بورتر عنها فعلاً، وسرعان ما أمسكت السيدة بزمام الكولونيل ووكر بإحكام وانطلقت معه، وتبعهما بعض القوم بينما فضّل الآخرون الذهاب إلى أماكن في الاتجاه الآخر.

أما الآنسة ماربل فقد اتجهت نحو أحد المقاعد الموجودة في الحديقة وكان مقعداً مريحاً، فجلست عليه وهي تتنهد بارتياح، ثم

جاءت الآنسة إليزابيث تيمبل فتنهدت بدورها وجلست بجانبها على المقعد. قالت الآنسة تيمبل: إن التجول في البيوت مرهق دائماً، أكثر ما يسبب الإرهاق في هذا العالم، ولا سيما إذا توجب عليك أن تصغي إلى محاضرة مملّة في كل غرفة...

ردّت عليها الآنسة ماربل بارتياب: كل ما قيل لنا مثير جداً بالطبع.

- آه، أتعتقدين ذلك؟

التفتت برأسها قليلاً وقابلت عيناها عينَي الآنسة ماربل. نشأ بين المرأتين نوع من الصلة أو التفاهم، وسألتها الآنسة ماربل: ألا ترين أنت ذلك؟

- لا أظن.

هذه المرّة كان التفاهم قد استقر بينهما. جلستا متجاورتين في صمت، وسرعان ما بدأت الآنسة تيمبل تتحدث عن الحدائق وعن هذه الحديقة على وجه الخصوص. قالت: لقد صممها هولمان قريباً من عام ١٨٠٠، لقد مات شاباً، يا له من أمر مؤسف، فقد كان عبقرياً.

- أمر محزن أن يموت الإنسان صغيراً.

قالت الآنسة تيمبل بطريقة غريبة تأملية: لا أدري!

- ولكنهم بذلك يفقدون أشياء كثيرة، كثيرة جداً.

- أو يرتاحون من أشياء كثيرة.

قالت الآنسة ماربل: لا أملك -وأنا في هذه العمر المتقدم الآن- إلاّ الإحساس بأن الموت المبكر يعني فقدان الأشياء.

قالت الآنسة تيمبل: أما أنا فكوني قد قضيت معظم حياتي وسط الشباب فإنني أنظر إلى الحياة كفترة من الزمن كاملة بحد ذاتها. ما ذلك المقطع الذي قاله الشاعر إليوت؟ «إن دقيقة الوردة ودقيقة شجرة الصنوبر متساويتان».

قالت الآنسة ماربل: فهمت ما تقصدينه... الحياة تجربة مكتملة مهما كان طولها. ولكن ألا...

ترددت قليلاً ثم قالت: ألا ترين أن الحياة قد لا تكون مكتملة إذا ما قُطعت قبل أوانها؟

- بلى، هذا صحيح.

قالت الآنسة ماربل وهي تنظر إلى الأزهار بجانبها: كم هي جميلة أزهار الألفاوانيا هذه. إن فيها الكثير من الكبرياء رغم هشاشتها الجميلة.

التفتت إليزابيث تيمبل إليها وقالت: هل جئت في هذه الرحلة لرؤية البيوت أم لرؤية الحدائق؟

- أظنني جئت لرؤية البيوت. سوف أستمتع بالحدائق أكثر لكن البيوت ستكون تجربة جديدة لي، بتنوعها وتاريخها وهذا الأثاث القديم الجميل والصور الجميلة...

ثم أضافت تقول: إن صديقاً طيباً لي قد أهداني تذكرة هذه

الرحلة، وأنا شاكرة له كثيراً؛ فأنا لم أرَ كثيراً من البيوت المشهورة الكبيرة في حياتي من قبل.

- إنها لفتة طيبة.

سألتها الآنسة ماربل: هل تسافرين في مثل هذه الرحلات لرؤية المناظر الطبيعية؟

- لا، هذه ليست رحلة لرؤية المناظر الطبيعية بالضبط بالنسبة لي.

نظرت إليها الآنسة ماربل باهتمام. كانت على وشك أن تتكلم لكنها أحجمت عن سؤالها، وابتسمت لها الآنسة تيمبل وقالت: إنك تتساءلين عن سبب وجودي هنا؛ ما هو دافعي أو غرضي. حسناً، لماذا لا تخمّنين؟

- لا أحب التدخل بهذا الشكل.

- بل خمّني، خمّني... إن ذلك يسليني حقاً. هيا خمّني.

سكتت الآنسة ماربل بضع لحظات. كانت تركز بصرها على إليزابيث تيمبل وتتأمّلها في محاولة لتقييمها، ثم قالت: إن ما سأقوله ليس مما أعرفه عنك أو مما قيل لي عنك. أعرف أنك شخصية مشهورة وأن مَدرستك مشهورة جداً. لا، سوف أخمّن بناء على ما يبدو عليك. إنني... يمكن أن أصفك بأنك حاجّة؛ إنك تبدين مثل امرأة تحج إلى مكان مقدس.

قالت إليزابيث بعد صمت: هذا يصف الحال جيداً. نعم، أنا في رحلة حج.

قالت الآنسة ماربل بعد لحظات من الصمت: إن صديقي الذي أرسلني في هذه الرحلة ودفع كل النفقات ميت الآن. إنه السيد رافائيل، كان رجلاً غنياً جداً. هل تعرفينه؟

- جيسن رافائيل؟ أعرفه بالاسم بالطبع، لكني لم أعرفه شخصياً ولم أقابله أبداً. لقد قدّم منحة كبيرة لأحد المشاريع التعليمية التي كنت مهتمة بها، وكنت ممتنّة له كثيراً. لقد كان غنياً جداً كما قلت، وقد رأيت خبر نعيه في الصحف قبل بضع أسابيع. إذن فقد كان صديقاً قديماً لك؟

- لا، لقد التقيته قبل أكثر من سنة في الخارج، في جزر الهند الغربية. لم أعرف عنه الكثير أبداً، لم أعرف شيئاً عن حياته أو عائلته أو أي من أصدقائه. كان مستثمراً عظيماً ولكنه -كما يقول الناس- كان رجلاً كتوماً جداً فيما عدا ذلك، فيما يتعلق بشخصه. هل كنت تعرفين عائلته أو أحداً من...؟

سكتت الآنسة ماربل قليلاً، ثم قالت: لقد تساءلتُ كثيراً، ولكن المرء لا يحب طرح الكثير من الأسئلة والظهور بمظهر المتطفّل.

سكتت إليزابيث قليلاً ثم قالت: عرفت فتاة ذات مرة، فتاة كانت تلميذة عندي في مدرستي فالوفيلد. لم تكن من أقارب السيد رافائيل الفعليين، لكنها كانت مخطوبة لابن السيد رافائيل ذات يوم.

- وهل تزوّجا؟

- لا.

- ولِمَ لا؟

- لأنها كانت فتاة عاقلة كما أظن، فهو لم يكن شاباً يمكن لشخص أن يرغب بتزويجه ابنته. كانت فتاة رائعة الجمال ومهذبة جداً، ولا أعرف لماذا لم تتزوجه. لم يخبرني أحدٌ عن ذلك أبداً.

تنهدت ثم أضافت: لقد ماتت على أية حال.

- وما هو سبب موتها؟

حدّقت الآنسة تيمبل إلى أزهار الألفاوانيا لبعض الوقت، وعندما تكلمت نطقت بكلمة واحدة كان صداها كرنّة جرس عميقة إلى حد يثير الدهشة. قالت: الحب.

كررت الآنسة ماربل الكلمة بحدّة: الحب؟!

- إنها واحدة من أكثر الكلمات رهباً في هذه الدنيا.

كانت المرارة وظلال المأساة ظاهرَين في صوتها وهي تردد: الحب!

* * *

الفصل السابع

دعوة

قررت الآنسة ماربل تجاهل رحلة بعد الظهر، واعترفت بأنها مرهقة وأنها ربما سيفوتها رؤية كنيسة قديمة يعود زجاجها إلى القرن الرابع عشر. قالت إنها سترتاح قليلاً ثم تنضمّ إليهم في أحد المقاهي الموجودة في الشارع الرئيسي بعد أن أعطيت عنوانه، وكانت السيدة ساندبورن متفهمة للموقف فعذرتها.

جلست الآنسة ماربل على مقعد مريح خارج المقهى تفكّر فيما تخطط للقيام به في الخطوة التالية، وفيما إذا كان من الحكمة القيام به أم لا.

عندما انضمّ إليها الآخرون في المقهى كان من السهل عليها أن تجلس مع الآنسة كوك والآنسة بارو على طاولة مخصصة لأربعة أشخاص دون أن يبدو ذلك تطفلاً منها، وقد جلس على الكرسي الرابع السيد كاسبر الذي اعتبرته الآنسة ماربل متحدثاً غير قدير في اللغة الإنكليزية، لذلك فإن وجوده لا يهم.

قالت الآنسة ماربل تخاطب الآنسة كوك وهي تميل بجسدها

على الطاولة وتتناول قليلاً من قطعة الكعك أمامها: أنا متأكدة تماماً أننا التقينا من قبل، كنت أتساءل وأتساءل عن ذلك... إنني لم أعد أستطيع تذكر الوجوه كثيراً لكني واثقة من لنني التقيت بك من قبل في مكان ما.

بدت الآنسة كوك وكأنها قد ارتابت، ونظرت إلى صديقتها الآنسة بارو، وكذلك فعلت الآنسة ماربل. لم تظهر الآنسة بارو أية بادرة للمساعدة في حل هذه المسألة، وأكملت الآنسة ماربل تقول: لا أعرف إن كنتِ قد أقمتِ في المنطقة التي أعيش فيها أم لا. إنني أعيش في سينت ميري ميد، وهي قرية صغيرة جداً. إنها ليست صغيرة جداً في هذه الأيام على أية حال فهناك الكثير من المباني تقام في كل مكان، وهي ليست بعيدة عن متش بنهام وتبعد اثني عشر ميلاً فقط عن ساحل لوماوث.

قالت الآنسة كوك: آه، دعيني أتذّكر. إنني أعرف لوماوث جيداً، وربما...

فجأة صاحت الآنسة ماربل مسرورة: يا إلهي، بالطبع! كنتُ في حديقة بيتي ذات يوم في سينت ميري ميد وتحدثتِ أنت معي وأنت تمرين على الطريق خارج حديقتي. أذكر أنك قلت لي إنك تقيمين هناك مع صديقة.

هتفت الآنسة كوك: بالطبع، يا لي من غبية! لقد تذكرت الآن؛ تكلمنا عن الصعوبة في العثور على بستاني يقوم بأعمال الحديقة هذه الأيام... أقصد أي بستاني يمكن أن يفيد بأي شيء.

- نعم، وأظن أنك لم تكوني تعيشين هناك بل كنت تقيمين مع إحداهنّ؟

- بلى، كنت أقيم مع... مع...

ترددت الآنسة كوك وكأنها لا تعرف أو لا تتذكر الاسم. قالت الآنسة ماربل: مع سيدة تدعى ساذرلاند؟

- لا، لا، كانت السيدة... السيدة...

قالت الآنسة بارو بقوة وهي تتناول قطعة من الكعك: هيستنغز.

قالت الآنسة ماربل: آه، نعم، كانت تسكن في واحد من تلك البيوت الجديدة.

قال السيد كاسبر على نحو غير متوقع: هيستنغز...

وابتسم ثم قال: لقد ذهبت إلى هيستنغز وذهبت إلى إيستبورن أيضاً. جميلة جداً... قرب البحر.

قالت الآنسة ماربل: يا لها من مصادفة! أن نلتقي مرة أخرى بهذه السرعة... إنه عالَم صغير، أليس كذلك؟

قالت الآنسة كوك بأسلوب غامض: آه، كلنا نحب الحدائق كثيراً.

قال السيد كاسبر: الأزهار جميلة جداً، أحبها كثيراً.

ثم ابتسم ثانية، وقالت الآنسة كوك: كثير من النباتات والشجيرات النادرة.

انخرطت الآنسة ماربل بكل قوة في حديث سريع متخصص عن الحدائق، فيما بادلتها الآنسة كوك الموضوعات ذاتها. أما الآنسة بارو فقد كانت تلقي بملاحظة عابرة من وقت لآخر، وظلّ السيد كاسبر صامتاً يبتسم.

بعد ذلك، وبينما كانت الآنسة ماربل ترتاح كعادتها قبل العشاء بدأت تدرس ما جمعته من معلومات. لقد اعترفت الآنسة كوك بأنها كانت في سينت ميري ميد، وقد اعترفت بأنها مرّت أمام بيت الآنسة ماربل، واتفقت معها على أنها محض مصادفة. مصادفة؟

فكرت الآنسة ماربل بتأمل وهي تُقلّب تلك الكلمة وتتلفظ بها. هل كانت مصادفة فعلاً، أم أن سبباً دفعها للمجيء إلى هناك؟ هل أرسلها أحدٌ ما إلى هناك؟ ولماذا عساها تُرسَل إلى هناك؟ هل كان ذلك مجرد خيال سخيف؟

قالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: إن أية مصادفة تستحق الملاحظة دائماً، ثم يمكنك أن تتجاهلها فيما بعد إذا اتضح أنها مجرد مصادفة لا غير.

بدت الآنستان كوك وبارو صديقتين عاديتين تماماً تقومان كل عام بمثل هذه الرحلة كما تقولان؛ سافرتا في رحلة إلى اليونان في العام الماضي وفي رحلة إلى هولندا قبلها بعام وإلى أيرلندا الشمالية قبل ذلك بعام... إنهما تبدوان سيدتين عاديتين تماماً ومحبوبتين، لكنها فكرت أن الآنسة كوك قد بدت وكأنها توشك أن تنكر زيارتها لسينت ميري ميد، وقد نظرت إلى صديقتها الآنسة بارو وكأنها تبحث عن تعليمات حول ما ستقوله. كان واضحاً أن الآنسة بارو هي

الشريك الأقوى والمهيمن. وفكّرت الآنسة ماربل: ربما كنت أتخيل هذه الأشياء بالطبع، ربما لا تحمل أية دلالة أبداً.

فجأة تذكرت كلمة «خطر». لقد استخدمها السيد رافائيل في رسالته الأولى، وفي الرسالة الثانية كان يشير إلى احتمال حاجتها إلى حراسة الله. هل ستواجه الخطر في هذا الأمر؟ ولماذا؟ وممّن؟

ليس من الآنسة كوك أو الآنسة بارو بالتأكيد؛ فهما سيدتان عاديتان. ومع ذلك فقد صبغت الآنسة كوك شعرها وغيرت تسريحة شعرها، والواقع أنها تنكّرت بقدر استطاعتها، وأقل ما يقال عن ذلك أنه أمر غريب!

وفكرت مرة أخرى بزملائها المسافرين معها: السيد كاسبر، من السهل الآن أكثر من ذي قبل أن تتخيل أنه قد يكون خطيراً. هل تُراه يفهم من الإنكليزية أكثر مما يتظاهر أنه يفهمه؟ بدأت تتساءل عن أمر السيد كاسبر.

لم تنجح الآنسة ماربل أبداً في التخلي عن نظرتها الفيكتورية تجاه الأجانب. إن المرء لا يعرف حقيقة الأجانب. من السخافة أن تشعر بمثل ذلك الشعور بالطبع، فلديها الكثير من الأصدقاء من دول أجنبية مختلفة. ومع ذلك...

الآنسة كوك، الآنسة بارو، السيد كاسبر، ذلك الشاب ذو الشعر الأشعث، إيملين... ثوري فوضوي؟ السيد باتلر وزوجته، زوجان أمريكيان لطيفان، ولكن ربما كانا أكثر لطفاً من أن يقنعا المرء؟ قالت الآنسة ماربل: الحقيقة أنني يجب أن أستجمع قواي.

حولت انتباهها إلى دليل الرحلة، ورأت أن اليوم التالي سيكون

يوماً شاقاً: رحلة صباحية لرؤية المناظر الطبيعية ستبدأ في وقت مبكر، سير على الأقدام لمسافة طويلة على طريق ساحلي بعد الظهر، نباتات بحرية مثيرة... قد تكون مملة. وقد أُلحق بالبرنامج اقتراح لبق: أي شخص يشعر أنه بحاجة إلى الراحة يمكنه البقاء في الفندق، «غولدن بور»، وهو ذو حديقة جميلة جداً، أو يمكنه القيام برحلة قصيرة تستغرق ساعة واحدة فقط إلى منطقة جميلة في مكان قريب من الفندق.

ورأت أنها ربما تفعل ذلك. ولكن قُدِّر لخططها أن تتغير فجأة، وهو ما لم تكن تعرفه وقتها.

* * *

بينما نزلت الآنسة ماربل من غرفتها في فندق غولدن بور في اليوم التالي -وقد غسلت يديها استعداداً للغداء- تقدمت منها بشيء من الارتباك امرأة تلبس معطفاً صوفياً وتنّورة وتكلمت معها: أرجو المعذرة، هل أنت الآنسة ماربل... الآنسة جين ماربل؟

ردّت عليها الآنسة ماربل وقد فوجئت قليلاً: نعم، هذه أنا.

اسمي السيدة غلين، لافينيا غلين. إنني أعيش مع أختين لي قريباً من هنا... وقد سمعنا أنك قادمة.

قالت الآنسة ماربل وقد فوجئت: سمعتِ أنني قادمة؟

- نعم، كتب إلينا صديقٌ قديم رسالة... آه، منذ وقت طويل، لا بد أن ذلك كان قبل ثلاثة أسابيع، لكنه طلب منّا أن نسجل تاريخ اليوم، اليوم الذي تصل فيه رحلة هذه الشركة. قال إن إحدى صديقاته المقربات أو... قريباته قادمة في الرحلة، لا أدري أيهما قال.

واصلت الآنسة ماربل إظهار دهشتها. قالت السيدة غلين: إنني أتكلم عن شخص يدعى السيد رافائيل.

- آه، السيد رافائيل! هل... هل تعرفين أنه...

- أنه مات؟ نعم، إنه أمر محزن. بعد أن وصلت رسالته بوقت قليل فقط. أظن أنه مات بعد أن كتب لنا هذه الرسالة بوقت قصير، لكننا شعرنا بضرورة خاصة في أن نحاول القيام بما طلبه منّا. لقد اقترح أن تأتي وتقيمي معنا لمدة ليلتين. إن هذا الجزء من الرحلة شاق ومتعب، أقصد أنه لا بأس به للشباب لكنه متعب لكبار السن، فهو يتضمّن المشي لعدة أميال وفيه تسلّق لمنحدرات صخرية صعبة... سنكون أنا وشقيقتاي مسرورات جداً إذا ما جئت وأقمت في بيتنا هنا. إنه يبعد عن الفندق مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام، وأنا واثقة أننا نستطيع أن نريك كثيراً من الأشياء المثيرة في المنطقة.

ترددت الآنسة ماربل قليلاً. لقد أعجبت بمظهر السيدة غلين، كانت ممتلئة الجسم ذات نظرات ودودة، وبدت طيبة مع طبع خجول بعض الشيء، وإلى جانب ذلك... فلا بد أن تعليمات السيد رافائيل تكمن هنا مرة أخرى. أتكون تلك هي الخطوة التالية أمامها؟ نعم، لا بد أن الأمر كذلك.

تساءلت لماذا شعرت بالارتباك. ربما لأنها باتت تشعر الآن بالألفة مع زملائها في الرحلة وبأنها جزء من المجموعة، رغم أنها لا تعرفهم إلاّ منذ ثلاثة أيام فقط. التفتت إلى حيث كانت السيدة غلين تقف منتظرة بلهفة وقالت: شكراً لك، هذا لطف كبير منك. سأكون سعيدة جداً بزيارتكم.

* * *

الفصل الثامن
الأخوات الثلاث

وقفت الآنسة ماربل تنظر خارج النافذة وعلى السرير وراءها كانت حقيبتها. نظرت إلى الحديقة دون أن تراها، ولم يكن من عادتها أن تنظر إلى حديقة دون أن تراها، سواء أكان ذلك بعين المعجب أم بعين الناقد. وفي هذه الحالة كان من شأن الآنسة ماربل أن تنظر إلى هذه الحديقة بعين الناقد، فقد كانت حديقة مهمَلة، حديقة لم ينفق من الأموال عليها إلا مبلغ ضئيل منذ سنوات عديدة ولم ينجَز فيها إلاّ عمل قليل.

والبيت أيضاً كان مهمَلاً. كان بيتاً جيد التناسق ذا أثاث كان جيداً ذات مرة، ولكنه لم ينل في السنوات الأخيرة إلاّ القليل من الصيانة والاهتمام. ورأت أن البيت لم يلقَ -في السنوات الأخيرة على الأقل- حُباً من ساكنيه، ولكنه استطاع الاحتفاظ بمدلولات اسمه: «بيت العزبة القديم»... بيت بُني بتناسق ومقدار من الجمال وعاش فيه أهله في وقت من الأوقات وأحبوه ورعوه، ثم تزوج الأولاد والبنات وتركوه، وتعيش فيه الآن السيدة غلين التي قالت عبارة تلفّظت بها بلا وعي وهي ترافق الآنسة ماربل إلى غرفتها، قائلة إنها قد ورثته هي

وأخواتها من أحد أعمامها وجاءت إلى هنا للعيش فيه مع أخواتها بعد وفاة زوجها. وقد كبرن كلّهن في العمر وتضاءلت مداخيلهن وأصبح توظيف أيد عاملة للبيت أكثر صعوبة.

ويبدو أن شقيقتيها بقيتا بلا زواج. كانت إحداهن أكبر من السيدة غلين والأخرى أصغر منها، وكلاهما تُدعيان باسم الآنسة سكوت. لم يكن في البيت شيء يخص طفلاً أو يدل على وجوده، لا كرة ملقاة ولا عربة أطفال ولا كرسي صغير... كان مجرد بيت ذي ثلاث أخوات.

همست الآنسة ماربل تحدث نفسها: "يبدو ذلك روسياً جداً". لعلها كانت تقصد قصة «الأخوات الثلاث». أكانت من أعمال تشيخوف؟ أم أنه ديستوفسكي؟ لم تستطع أن تتذكر أيهما. أخواتٌ ثلاث... لكن هؤلاء بالتأكيد لسن على شاكلة الأخوات الثلاث المتلهفات على الذهاب إلى موسكو، كانت شبه واثقة من أن هؤلاء الأخوات الثلاث قانعات بالبقاء حيث هن. لقد قدمتها مضيفتها إلى أختيها عندما خرجت إحداهما من المطبخ، فيما نزلت الثانية الدرج لترحّب بها. كانتا مهذبتين ولطيفتين ويدلّ سلوكهما على تربية جيدة، ورأت أنهن من تلك الفئة التي تراجعت مكانتها الاجتماعية ممن اعتاد والد الآنسة ماربل قديماً أن يطلق عليهن اسم «السيدات البائسات».

إلاّ أن السيدات هذه الأيام لم يعدن بائسات؛ إنهن يتلقين المساعدات من الحكومة أو من الجمعيات أو من قريب غني، أو ربما من شخص مثل السيد رافائيل. ألم يكن ذلك -في نهاية الأمر- هو المغزى والسبب في وجودها هنا في هذا البيت؟ لقد رتّب السيد رافائيل كل هذا، لقد تجشم عناء هذا كله. كان يُفترض أنه قد عرف

-قبل عدة أسابيع- الموعد المحتمل لوفاته، مع السماح بهامش خطأ بسيط!

السيد رافائيل. كان هذا هو الشخص الذي كانت الآنسة ماربل تفكر فيه وهي تنظر إلى الحديقة بعينين شاردتين. السيد رافائيل؟ أحست الآن أنها تقترب قليلاً من فهم المهمة التي أنيطت بها، أو المشروع الذي اقتُرِحَ عليها. كان السيد رافائيل رجلاً يضع الخطط، يضعها الطريقة ذاتها التي كان يخطط فيها لعمل الصفقات المالية. وكما تقول خادمتها شيري فإنه كان يعاني من مشكلة، وعندما كانت شيري تواجه مشكلة كانت تأتي وتستشير الآنسة ماربل بخصوصها.

كانت هذه مشكلة لم يستطع السيد رافائيل معالجتها بنفسه، وهو ما أزعجه كثيراً كما ظنّت الآنسة ماربل، لأنه كان يستطيع معالجة مشكلاته بنفسه في العادة وكان يصرّ على ذلك... لكنه كان طريح الفراش يحتضر. كان يستطيع تدبير أموره المالية والاتصال بمحاميه وموظفيه وأصدقائه وأقاربه، ولكن كان هناك شيء أو شخص لم يستطع تدبره؛ مشكلة لم يحلها، مشكلة ما زالت بحاجة إلى حل، مشروع يريد تنفيذه... وواضح أنها لم تكن مشكلة يمكن تسويتها بواسطة المال أو بصفقات عمل أو بخدمات يقدمها له المحامي. قالت الآنسة ماربل: لذلك فكّر فيّ.

ما زال ذلك يدهشها كثيراً، كثيراً جداً. ومع ذلك فإن رسالته -بالمعنى الذي تفكر فيه الآن- كانت واضحة تماماً. لقد فكر بأنها تمتلك مؤهلات معينة لعمل شيء معين، وفكرت مرة أخرى بأن لذلك علاقة بالجرائم أو بما يمكن أن ينتج عن الجرائم؛ إذ إن الشيء الآخر الوحيد الذي كان يعرفه عن الآنسة ماربل هو أنها كانت تحب

الحدائق، ولا يمكن أن يكون قد أراد منها حل مشكلة تتعلق بحديقة! لكنه يمكن أن يفكر فيها إذا تعلق الأمر بعالم الجريمة، جريمة في جزر الهند الغربية وجرائم في منطقتها نفسها. جريمة... أين؟

لقد قام السيد رافائيل بعمل ترتيبات، ترتيبات مع محاميه أولاً، وقد قام محاميه بدوره. بعد فترة محددة من الزمن أرسل لها المحامي رسالته، ورأت أنها كانت رسالة مدروسة تماماً. ربما كان من الأبسط -بالتأكيد- أن يخبرها بالضبط ما الذي أراد منها أن تفعله ولماذا. لقد أدهشها أنه لم يعمد قبل وفاته إلى الإرسال في طلبها بإلحاح لتراه وهو على فراش موته ليجبرها على الإذعان لما يطلبه منها، ولكنها فكرت بأن السيد رافائيل لم يكن ليتصرف بهذا الأسلوب. صحيح أن بوسعه أن يضغط على الناس، ولكن هذه القضية لم تكن قضية ضغط، كما أنها واثقة من أنه لم يرد أن يتوسل إليها أو يناشدها عَمَل معروف من أجله أو أن تصلح خطأ ما. لا؛ هذا أيضاً ليس من أساليب السيد رافائيل. لقد رأت أنه أراد -كما هي عادته- أن يدفع ثمن ما يطلبه من خدمة، لقد أراد أن يدفع لها ولذلك أراد أن يثير اهتمامها إلى درجة تجعلها تستمتع بذلك العمل المطلوب، لقد قدّم لها المبلغ لكي يأسر اهتمامها وليس من أجل إغرائها. لم ترَ أنه فكر بأن هذا المبلغ سيجعلها تقفز فرحاً لأنها لم تكن بحاجة ماسة إلى المال؛ فإن لها ابن أخ كانت عزيزة عليه ويحبها وكان مستعداً لأن يدفع لها ما تطلبه من مال عند الحاجة، إن أرادت إصلاح بيتها أو زيارة طبيب أو قضاء مُتَع خاصة مثلاً. كان ريموند يعطيها ما تحتاجه دائماً. نعم، إن المبلغ الذي عرضه عليها كان يقصد إثارتها، كان مبلغاً كبيراً من المال لا يمكنك أن تحصل عليه إلاّ عن طريق الحظ.

ولكن مع ذلك... فكرت الآنسة ماربل في نفسها بأنها ستحتاج

إلى بعض الحظ إضافة إلى العمل الجَاد، وستحتاج إلى كثير من التفكير والتأمل، وربما انطوى ما تفعله على بعض الخطر. ولكن كان عليها أن تكتشف بنفسها فحوى هذا الأمر كله، فهو لم يُرِدْ إخبارها، ربما لأنه لم يُرِد التأثير على تفكيرها؛ فمن الصعب أن تخبر شخصاً بشيء دون أن تنضح منك -دون إرادة- وجهة نظرك حول هذا الأمر. ربما ظن السيد رافائيل أن وجهة نظره قد تكون خطأ. لم يكن من طبيعته أن يفكر مثل هذا التفكير، ولكنه أمر محتمل. ربما شك في أن حكمه -وقد أضعفه المرض- لم يعد جيداً كما كان؛ لذلك عليها هي الآنسة ماربل، وكيلته أو موظفته، أن تخمّن وحدها وتصل إلى النتائج بنفسها. حسناً، لقد حان الوقت لأن تصل إلى بعض النتائج؛ أي أن عليها أن تعود إلى السؤال القديم: علامَ يدور هذا الأمر كله؟

لقد أعطيت لها توجيهات، فلتأخذ ذلك بعين الاعتبار بداية. لقد أعطاها التوجيهات رجلٌ هو الآن في عداد الأموات، لقد أُعطيت توجيهات لتخرج من سينت ميري ميد، لذلك فإن المهمة -مهما تكن- لا يمكن البدء بها من هناك. لم تكن مشكلة قريبة منها ولم تكن مشكلة يمكن حلها بمطالعة قصاصات الصحف أو عمل تحقيقات إلاّ إذا عرفت السبب الذي تريد عمل التحقيقات من أجله. لقد أُعطيت توجيهات، أولاً أن تذهب إلى مكتب المحامي ثم لتقرأ رسالة... بل رسالتين... في بيتها، ثم لكي تذهب في رحلة جميلة مدروسة يقوم بها مكتب سفريات.

ومن هناك وصلت إلى الخطوة التالية وهو البيت الذي هي فيه الآن في جوسلين سينت ميري، حيث تعيش السيدة غلين والآنسة كلوتيلد سكوت والآنسة آنثيا سكوت. لقد رتّبَ السيد رافائيل هذا، رتبه مسبقاً قبل أسابيع من وفاته. ربما كان ذلك هو الشيء التالي

الذي فعله بعد التوجيهات التي أعطاها لمحاميه وبعد أن حجز باسمها مقعداً في الرحلة، لذلك فهي موجودة في هذا البيت لغرض محدد. ربما كان ذلك لليلتين فقط وربما كان أكثر، قد تكون هناك أمور معيّنة تم ترتيبها يمكن أن تدفعها إلى البقاء مدة أطول أو قد يُطلب منها أن تمكث مدة أطول...

وأعادها ذلك التفكير إلى حيث تقف الآن. السيدة غلين وشقيقتاها: لا بد أنهن معنيّات بهذه القضية، سيتعين عليها اكتشاف حقيقة هذا الأمر. الوقت قصير، هذه هي المشكلة الوحيدة. لم يساور الآنسة ماربل أدنى شك في قدرتها على اكتشاف الأمور؛ إنها واحدة من هؤلاء السيدات العجائز المحبات للقيل والقال واللاتي يتوقع منهن الآخرون أن يتحدثن كثيراً ويوجهن أسئلة تُعتبر من حيث الظاهر مجرد أسئلة من سيدة عجوز ثرثارة. يمكنها أن تتحدث عن طفولتها فيدفع ذلك واحدة من الأخوات الثلاث لأن تتحدث عن طفولتها هي الأخرى. يمكنها أن تتحدث عن الطعام الذي أكلته والخدم الذين عملوا عندها، عن البنات والأقارب، وعن السفر والزيجات والمواليد و... نعم، عن الوفيات. عليها أن لا تُظهر أي اهتمام خاص عندما تسمع شيئاً عن حادثِ وفاة مثلاً، يجب أن تكون أجوبتها عفوية وتلقائية، يجب عليها أن تكتشف القرابات والحوادث والسِّيَر الحياتية، وترى إن كان هناك أي حادث له دلالة معينة. قد يكون حادثاً في الجوار غير مرتبط بهؤلاء السيدات الثلاث مباشرة، شيء يمكن أن يعرفن عنه وأن يتحدثن عنه.

على أية حال لا بد من وجود شيء ما هنا، مفتاح لغز معين، مؤشر معين. بعد يومين من الآن ستعود لتنضم إلى زملائها في

الرحلة، إلاّ إذا حصلت خلال هذه الفترة على مؤشرٍ معين يتطلب منها أن لا تعود لمتابعة الرحلة.

انساب تفكيرها من البيت إلى الحافلة والركاب الجالسين فيها: قد يكون ما تبحث عنه موجوداً هناك في الحافلة، وسيكون هناك مرة أخرى عندما تعود إليها. شخص واحد، عدة أشخاص، بعض الأبرياء أو بعض مَن ليسوا أبرياء تماماً، قصة تعود بتاريخها إلى الماضي البعيد... قطبت جبينها قليلاً محاولة أن تتذكر شيئاً، شيئاً لمع في ذهنها جعلها تفكر وتقول في نفسها: أحقٌّ أنني متأكدة... متأكدة من ماذا؟

عادت بتفكيرها إلى الأخوات الثلاث: يجب أن لا تبقى في غرفتها هذه طويلاً. يجب أن تُخرج بعض حاجياتها المتواضعة من حقيبتها والتي تلزمها لقضاء ليلتين، شيئاً تُغيّر به ثيابها لهذه الأمسية ولباس النوم وتفرغ حقيبتها الصغيرة ثم تنزل وتنضمّ إلى مضيفاتها للتحدث معهن حديثاً شيقاً. ثمة نقطة رئيسية ينبغي حسمها: هل أُريد للأخوات الثلاث أن يكنّ حليفات لها أم عدوّات؟ كِلا الاحتمالين وارد، ويجب أن تفكر في هذا الأمر بحذر.

سمعت دقات على الباب، ثم دخلت السيدة غلين وقالت: أرجو أن تكوني مرتاحة تماماً هنا. هل أساعدك في تفريغ حقيبتك؟ عندنا امرأة لطيفة جداً تخدمنا في البيت لكنها تأتي إلى هنا في الصباح فقط، سوف تساعدك في كل شيء.

قالت الآنسة ماربل: آه، لا، شكراً لك. لقد أخرجت فقط بعض الأشياء الضرورية.

- يجب أن أريك الطريق الذي ينزلك إلى الطابق الأرضي مرة أخرى، إنه بيت متداع، ويوجد درجان ممّا يجعل الأمر صعباً بعض الشيء، فأحياناً يضيع الناس فيه.

- آه، هذا لطف منك.

- أرجو أن تنزلي لتناول الشاي معنا قبل الغداء.

قبلت الآنسة ماربل العرض بامتنان وتبعت مضيفتها، ونزلتا الدرج. رأت أن السيدة غلين تصغرها كثيراً، ربما كانت في الخمسين من عمرها ولا تزيد عن ذلك كثيراً.

تغلبت الآنسة ماربل على عقبة نزول الدرج بحذر، فركبتها اليسرى تسبب لها الألم دائماً. وقد كان على أحد جانبَي الدرج درابزين، كان درجاً جميلاً. وعلّقت قائلة: إنه بيت جميل جداً بالفعل. أظن أنه بُني في القرن الثامن عشر. هل هذا صحيح؟

قالت السيدة غلين: في عام ١٧٨٠.

بدت مسرورة من إعجاب الآنسة ماربل. أخذتها إلى غرفة الاستقبال، وكانت غرفة كبيرة جميلة فيها بعض قطع الأثاث الجميلة من نوعيات جيدة، أما الستائر فكانت من القطن وذات ألوان باهتة وبالية إلى حد ما. أما السجاد فلاحظت الآنسة ماربل أنه أيرلندي، وكانت الأريكة ثقيلة جداً والمخمل الذي يكسوها بالياً تماماً.

كانت أختا السيدة غلين جالستين في الغرفة، وقد نهضتا لتحية الآنسة ماربل. إحداهما كانت تحمل فنجاناً من الشاي والأخرى كانت تشير إليها بالجلوس على أحد الكراسي. قالت: لا أدري إن كنت

تفضلين الجلوس على كرسي مرتفع؟ كثير من الناس يحبون ذلك.

قالت الآنسة ماربل: أحب ذلك، فهو أسهل بكثير. إن ظهري ليس على ما يرام.

بدا أن الأخوات الثلاث يعرفن عن آلام الظهر الكثير؛ كانت كبراهن امرأة طويلة القامة وسيمة سمراء البشرة سوداء الشعر. أما الأخرى فهي أصغر منها كثيراً، وكانت نحيفة ذات شعر أشيب كان أشقر فيما مضى وقد تدلى على كتفيها دون نظام، وبدا في مظهرها العام ما يكاد يذكّر المرء بشكل شبح.

ورأت الآنسة ماربل أنها تصلح تماماً لدور أوفيليا فيما لو أتيح لأوفيليا شكسبير أن تعمر طويلاً. أما الأخت الأخرى، كلوتيلد، فقد رأت الآنسة ماربل أنها ليست مثل أوفيليا بالتأكيد، بل إنها ربما كانت لتنجح تماماً في دور كليتمنسترا؛ إذ كان من شأنها أن تطعن زوجها وهو في حمّامه متهللة فرحة. ولكن بما أنها لم تتزوج أبداً فإن هذا التشبيه لا ينفع.

كلوتيلد، آنثيا، لافينيا... كانت كلوتيلد وسيمة جذابة، ولافينيا دميمة ولكنها تسر الناظر إليها، أما آنثيا فكان أحد جفنيها يرتعش من وقت لآخر. كانت عيناها كبيرتين رماديتين وكانت لها طريقة غريبة في النظر حولها يميناً ثم شمالاً، ثم تنظر فجأة وبطريقة غريبة إلى الوراء وكأنها تشعر بأن شخصاً يراقبها طول الوقت. رأت الآنسة ماربل ذلك غريباً واحتارت قليلاً في أمر آنثيا.

جلس الجميع ودار الحديث، ثم غادرت السيدة غلين الغرفة، كان واضحاً أنها ذاهبة إلى المطبخ وبدا أنها أنشطهن في الواجبات

المنزلية. اتخذ الحديث المسار المعتاد، فشرحت كلوتيلد بأن البيت كان للعائلة، كان ملكاً لعم أبيها ثم لعمها، وعندما مات تركه لها ولأختيها اللتين انضمتا إليها هنا. ثم مضت الآنسة سكوت تقول: كان له ابن واحد وقد قُتل في الحرب، ونحن -في الحقيقة- آخر من بقي من العائلة على قيد الحياة ما عدا بعض الأقارب البعيدين جداً.

قالت الآنسة ماربل: إنه بيت جميل التناسق، وقد أخبرتني أختك أنه بُني في عام ١٧٨٠ تقريباً.

- نعم، أظن ذلك. ولكن المرء يتمنى لو لم يكن كبيراً ومتداعياً إلى هذا الحد.

قالت الآنسة ماربل: كما أن الإصلاحات تكلّف كثيراً هذه الأيام.

ردّت عليها كلوتيلد وهي تتنهد: نعم، بالفعل. كان علينا أن نترك كثيراً من أجزاء البيت تقع وتتساقط، أقصد المباني الخارجية التابعة لهذا البيت، كالمُستنبَت الزجاجي على سبيل المثال... لقد كان لدينا بيتُ نباتٍ زجاجي كبير وجميل جداً.

قالت آنثيا: وكانت فيه دالية عنب مسكية رائعة، كما أن العُلّيق كان ينمو فيغطي الجدران من الداخل. نعم، إنني آسفُ على ذلك كثيراً؛ لم نستطع إحضار أي بستاني للعمل عندنا في أثناء الحرب بالطبع. كان لدينا بستاني شاب ثم استُدعي للخدمة العسكرية. نحن لا نكره هذا بالطبع، ولكن كان من المستحيل إصلاح الأمور بعد ذهابه، وهكذا تلف البيت الزجاجي كله وسقط.

- وهذا ما حدث مع بيت الخزين الصغير قرب البيت أيضاً.

تنهدت الشقيقتان كمَن أحس بمرور الزمن وتغيراته، تلك التغيرات التي لم تكن إلى الأفضل. ولاحظت الآنسة ماربل أن ثمة كآبة تخيّم على هذا البيت، كانت كآبة مُشرَّبة بالحزن... الحزن الذي لم يكن من الممكن التخلص منه أو انتزاعه لأن جذوره أصبحت عميقة جداً. لقد غارت جذوره عميقاً.

وارتعشت الآنسة ماربل فجأة.

* * *

الفصل التاسع
عصا الراعي

كانت الوجبة تقليدية؛ قطعة صغيرة من لحم الضأن والبطاطا المقلية تبعها قطعة من كعكة الخوخ وبعض الفطائر العادية. كانت بعض الرسومات معلقة على جدران غرفة الطعام، وافترضت الآنسة ماربل أنها تمثل صور أفراد من العائلة، وكانت رسومات تعود إلى العصر الفكتوري ولا تحمل قيمة فنية ذات شأن. وكانت الستائر قرمزية داكنة، وكان يمكن أن يجلس إلى الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الماهوغاني الأحمر عشرة أشخاص.

تحدثت الآنسة ماربل عن الأحداث التي عاشتها في رحلتها الحالية. وحيث إنه لم يمضِ على هذه الرحلة إلاّ ثلاثة أيام فقط فلم يكن لديها الكثير مما يقال.

قالت الآنسة سكوت الكبرى: أظن أن السيد رافائيل كان صديقاً قديماً لك؟

قالت الآنسة ماربل: ليس كذلك في الحقيقة؛ لقد التقيته أول

مرة عندما كنت في رحلة إلى جزر الهند الغربية، وكان موجوداً هناك للعلاج والنقاهة حسب ظني.

قالت آنثيا: نعم، كان مُقعَداً منذ سنوات.

قالت الآنسة ماربل: أمر محزن جداً، محزن بالفعل. كنت معجبة بجَلَدِه، فقد بدا قادراً على عمل كثير من الأعمال. كان يملي رسائله على سكرتيرته كل يوم ويرسل البرقيات باستمرار، ولم يَبدُ مستسلماً لمرضه أبداً.

قالت آنثيا: نعم، لم يكن ليستسلم.

قالت السيدة غلين: لم نره كثيراً في السنوات الأخيرة، فقد كان كثير المشاغل، ولكنه كان يتذكرنا دائماً في أعياد الميلاد.

سألتها آنثيا: هل تعيشين في لندن يا آنسة ماربل؟

- لا، بل أعيش في الريف، في قرية صغيرة جداً في منتصف الطريق بين لوماوث وماركت بيسنغ، وهي تبعد عن لندن نحو خمسة وعشرين ميلاً. كانت قرية جميلة تذكّر المرء بالعالم القديم، ولكنها كغيرها من الأشياء صارت تنتمي الآن لما يسمّونه «المناطق المطوَّرة».

ثم أضافت تقول: أظن أن السيد رافائيل كان يعيش في لندن؟ لاحظت على الأقل أنه كان يسجّل في سجلّ فندق سينت هونري عنوانه في إيتون سكوير، أم أنها بلغريف سكوير؟

قالت كلوتيلد: كان له بيت ريفي في كنت، وأظن أنه اعتاد على الاستجمام هناك في بعض الأحيان مع أصدقاء العمل أو مع أناس من

الخارج. لا أظن أن أي واحد منّا قد زاره هناك أبداً، كان يستضيفنا في لندن دائماً، في المناسبات النادرة التي كنا نصادفه بها.

قالت الآنسة ماربل: كان لطفاً بالغاً منه أن يقترح عليكنّ دعوتي إلى هنا في أثناء هذه الرحلة. كانت لفتة كريمة منه، فما كان المرء ليتوقع من رجل مشغول مثله التفكير بمثل هذه اللفتة اللطيفة.

- لقد دعونا قبلك أصدقاء له مشتركين في هذه الرحلات. إنهم يراعون قدرات المشاركين وأذواقهم عندما يرتّبون مثل هذه الرحلات، رغم أنه من المستحيل مراعاة أذواق الجميع بالطبع. الشباب يحبون المشي والقيام برحلات طويلة وصعود المرتفعات لرؤية المناظر، أما الكبار الذين لا يستطيعون ذلك فيبقون في الفنادق. لكن الفنادق هنا ليست فخمة أبداً. أنا واثقة من أنك كنت ستجدين رحلة اليوم ورحلة الغد إلى سينت بونافينتشر متعبتَين جداً، أظن أن في الغد زيارة لإحدى الجزر على متن قارب، وهي رحلة قاسية أحياناً.

قالت السيدة غلين: حتى التجول لرؤية البيوت قد يكون متعباً.

قالت الآنسة ماربل: أعرف، مشي كثير ووقوف... أمر يتعب القدمين. ما كان يجب أن آتي في مثل هذه الرحلات، لكن ما أغراني بالمجيء هو رؤية المباني الأثرية والغرف الجميلة والأثاث القديم، وبعض اللوحات الرائعة بالطبع.

قالت آنثيا: والحدائق... أنت تحبين الحدائق، أليس كذلك؟

- بلى، ومن الوصف المعطى في النشرة الخاصة بالرحلة

فإنني أتطلع حقاً لرؤية بعض حدائق البيوت التاريخية الجميلة التي سنزورها.

ثم نظرت حولها إلى الطاولة وهي تبتسم. كان كل شيء طبيعياً جداً ويبعث على السرور، ومع ذلك تساءلت لماذا تشعر بشيء من التوتر؟ إحساس بوجود شيء غير طبيعي في هذا المكان. ولكن ماذا تقصد بقولها غير طبيعي؟ فالحديث كان عادياً معظمه كلام مكرر؛ هي نفسها كانت تقول عبارات عادية تقليدية، وكذلك الأخوات الثلاث.

«الأخوات الثلاث»... فكرت الآنسة ماربل مرة أخرى في تلك العبارة. لماذا كلما فكرنا في شيء من ثلاث وَحدات أوحى إلينا ذلك بجو من الشر؟ الساحرات الثلاث في مسرحية ماكبث... مع أنه لا يمكن مقارنة هؤلاء الأخوات الثلاث بالساحرات الثلاث. رغم أن الآنسة ماربل قد رأت دائماً أن مُنتجي المسرحيات أخطؤوا في الطريقة التي أظهروا فيها الساحرات الثلاث. بل إنها شاهدت إخراجاً للمسرحية كان في غاية السخف، حيث بدت الساحرات وكأنهن مخلوقات تتخاطب بالإيماء، بأجنحة ترفرف وقبعات أسطوانية غريبة تافهة.

وتذكرت الآنسة ماربل قولها لابن أخيها الذين دعته آنذاك إلى تلك الوليمة الشيكسبيرية: أتعرف يا عزيزي ريموند؟ لو قُدّر لي أن أقوم أنا بإخراج هذه المسرحية الرائعة لجعلت هؤلاء الساحرات الثلاث مختلفات تماماً. كنت سأجعلهن عجائز عاديات طبيعيات، لكن سينظر بعضهن إلى بعض نظرات ماكرة، وكنت ستشعر بنوع من الخطر الكامن خلف مظهرهن الطبيعي هذا.

أكلت الآنسة ماربل آخر لقمة من كعكة الخوخ ونظرت أمامها حيث تجلس آنثيا. امرأة عادية غير مرتبة يلفّها الغموض، مع شيء من التشوش. لماذا يمكن أن تشعر بأن آنثيا امرأة شريرة؟ قالت الآنسة ماربل في نفسها: إنني أتخيل أشياء، يجب أن لا أفعل ذلك.

وبعد الغداء أخذتها آنثيا في جولة في الحديقة. أحسّت الآنسة ماربل أنها حديقة تبعث على الأسف، فقد كانت موضع عناية واهتمام ذات يوم، رغم أنها لم تكن بالغة التنظيم والتميز. كانت تملك مقومات الحديقة العادية للعصر الفكتوري؛ منطقة مخصصة للشجيرات وطريق من نباتات الغار المرقطة، ولا شك أنه كان هناك ذات مرة مرجة وممرات معتنى بها جيداً وحديقة مطبخ واسعة، واضح أنها كبيرة جداً على ثلاث أخوات يعشن هنا الآن. وقد تُرك جزء منها غير مزروع فنبتت فيه الأعشاب الضارة، وغطت شُجيرات طفيلية معظمَ مساكب الورد... ولم تكد الآنسة ماربل تستطيع السيطرة على يديها اللتين كانتا توّاقتين للإمساك بتلك النباتات الضارة واقتلاعها.

تطاير شعر الآنسة آنثيا في الريح مُسقطاً دبوس شعرها على الممر أو العشب من وقت لآخر، وتكلمت بأسلوب متقطع نزِق بعض الشيء: أظن أن لديك حديقة جميلة جداً في بيتك؟

قالت الآنسة ماربل: آه، إنها صغيرة جداً.

كانتا قد وصلتا إلى ممر مكسو بالعشب وتوقفتا أمام كومة تراب عند أحد الجدران في نهاية الممر. قالت الآنسة آنثيا حزينة: هذا كان بيت النبات الزجاجي.

- آه، نعم، حيث كنتم تزرعون دالية العنب؟

- ثلاث داليات؛ واحدة كانت تعطي عنباً أسود وواحدة تعطي عنباً أبيض صغيراً حلواً جداً، والثالثة دالية مسكية.

- ودوّار الشمس أيضاً كما قلتِ لي من قبل؟

- بل العُلّيق.

- آه، نعم، إنه طيب الرائحة بالفعل. هل سقطت أية قنبلة هنا؟ هل هي التي... دمرت البيت الزجاجي؟

- لا، لم تواجهنا مشكلات كهذه، فهذه المنطقة لم تصلها القنابل في أثناء الحرب. لا، لقد سقط بسبب القِدَم والتآكل. إننا لم نأت إلى هنا منذ وقت طويل وليس لدينا المال لإصلاحه أو بنائه ثانية، والواقع أن بناءه لن يفيد لأننا لن نستطيع المحافظة عليه. أخشى أننا قد تركناه يسقط، فلم يكن بوسعنا عمل أي شيء آخر. وكما ترين فقد نما العشب عليه.

- آه، لقد غطاه ذلك الـ... ما هي هذه النبتة الزاحفة التي توشك أن تزهر؟

- نعم، إنها شائعة جداً. ماذا يسمونها؟ لا أعرف ما اسمها بالضبط.

- أظن أنني أعرف الاسم؛ إنها نبتة «عصا الراعي». أظن أنها سريعة النمو، أليس كذلك؟ والحق أنها مفيدة جداً إذا أراد المرء أن يخفي تحتها بناء آيلاً للسقوط أو أي شيء قبيح غيره.

كانت كومة التراب أمامها مغطاة بطبقة سميكة من أوراق تلك النبتة المزهرة بأزهار بيضاء، وكانت الآنسة ماربل تعرف تماماً أن

هذه النبتة خطر على أي شيء آخر يُراد زرعه، فنباتات عصا الراعي تغطي كل شيء، وهي تغطيه في وقت قصير جداً. قالت: لا بد أن بيت النبات الزجاجي كان كبير الحجم.

- آه، نعم، وكنّا نزرع فيه الخوخ والدرّاق أيضاً.

بدت آنثيا بائسة، وقالت الآنسة ماربل بلهجة مواسية: تبدو جميلة جداً الآن. هذه الأزهار البيضاء جميلة جداً، أليس كذلك؟

- عندنا شجرة ماغنوليا جميلة إلى يسار هذا الممر، وأحسب أنه كانت هنا قديماً سكة من الشجيرات جميلة جداً. ولكن المرء لا يستطيع المحافظة عليها أيضاً. أمر صعب جداً، كل شيء صعب جداً. لم يبقَ شيء على حاله، كل شيء فسد... في كل مكان.

ثم قادت ضيفتها إلى الممر على اليمين بسرعة. كان الممر على طول جدار جانبي، وازدادت خطواتها سرعة حتى لم تكد الآنسة ماربل تستطيع مجاراتها. بدا للآنسة ماربل كما لو أن مضيفتها كانت تتعمّد إبعادها عن تلك الكومة المزروعة بعصا الراعي، وكأنها تريد إبعادها عن مكان قبيح أو كريه. هل أحست بالخجل لأن الأمجاد السابقة لم تعد قائمة؟ إن نباتات عصا الراعي قد تُركت لتنمو بإهمال كبير حتى إنها لم تُقلّم أو يُضبَط نموها عند حد معقول، مما جعل ذلك الجزء من الحديقة أشبهَ بأرض عامه لا يد تتدخل بنباتاتها.

لقد كادت تبدو كمن يهرب من ذلك المكان، هذا ما أحسته الآنسة ماربل وهي تلحق بها. وسرعان ما لفتت انتباهَها زريبةٌ خَرِبة كانت تحفّ بها بعض الورود المتسلقة. وأوضحت آنثيا تقول: كان عم والدي يربي بعض الخنازير، ولكننا لا نفكر بمثل هذا الأمر في

هذه الأيام بالطبع؛ فهي تثير الاشمئزاز. لدينا بعض ورود الفلوريياندا قرب البيت، وأعتقد أنها تشكل عزاء رائعاً في الشدائد.

- آه، أعرف.

ثم ذكرت أسماء بعض الورود، وشعرت بأن هذه الأسماء كلها كانت غريبة تماماً على الآنسة آنثيا.

- هل تأتين في مثل هذه الرحلات كثيراً؟

جاء السؤال فجأة، فقالت الآنسة ماربل: هل تقصدين الرحلات للاطلاع على البيوت والحدائق؟

- نعم، بعض الناس يأتون في هذه الرحلات كل عام.

- آه، لا أستطيع ذلك، فهي مكلفة جداً. لقد قدّم لي صديقٌ هذه التذكرة هدية للاحتفال بعيد ميلادي، إنه كريم جداً.

- آه، لقد تساءلت... تساءلت عن سبب قدومك. أقصد أنها رحلة متعبة، أليس كذلك؟ ولكن إن كنت معتادة على الذهاب إلى جزر الهند الغربية وأماكن كهذه...

- آه، إن رحلة جزر الهند الغربية تلك كانت مكرمة مُنِحت لي هي الأخرى، وفي تلك المرة قدمها لي ابن أخي، ولد عزيز، وكانت هدية رائعة جداً يقدمها لعمته العجوز.

- آه، فهمت، فهمت.

- لا أعرف ماذا يمكننا أن نفعل من غير الشباب؛ إنهم بالغو اللطف والعطف، أليس كذلك؟

- أظن... أظن ذلك. لا أدري حقاً، فليس... ليس لديّ أقارب من الشباب.

- هل لأختك السيدة غلين أي أولاد؟ إنها لم تذكر ذلك، ولا يرغب المرء بطرح مثل هذا السؤال.

- لا، فهي لم ترزق بأي طفل من زوجها، وربما كان ذلك أفضل.

تعجبت الآنسة ماربل وهما عائدتان إلى البيت وقالت في نفسها: ماذا تقصد بهذا؟

* * *

الفصل العاشر
الأيام الماضية الحلوة

في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي سمعت الآنسة ماربل دقات خفيفة على باب غرفتها. طلبت من الطارق أن يدخل، ففُتح الباب ودخلت امرأة مسنة وهي تحمل صينية عليها إبريق شاي وفنجان وإبريق حليب وصحن صغير فيه خبز وزبدة. وقالت مبتهجة: شاي الصباح يا سيدتي. إنه يوم جميل، أرى أنك قد فتحت الستائر، هل نمت جيداً إذن؟

قالت الآنسة ماربل وهي تضع كتاباً صغيراً كانت تقرأ منه جانباً: لقد نمت جيداً ولله الحمد.

- إنه يوم رائع، وسوف يناسبهم ذلك في ذهابهم إلى صخور بونافينتشر. ولكن من الجيد أنك لم تذهبي معهم، فهي رحلة تتعب الساقين.

قالت الآنسة ماربل: أنا سعيدة جداً بوجودي هنا؛ جميل جداً من الآنستين سكوت والسيدة غلين أن يقدّمنَ لي هذه الدعوة.

- هذا جميل لهن أيضاً؛ فإن ممّا يبهجهنّ أن يجدنَ رفقة معهن في المنزل. إنه بيت كئيب في هذه الأيام.

فتحت الستائر أكثر ودفعت بكرسي إلى الوراء، ووضعت علبة من الماء الساخن في الحوض الصيني ثم قالت: يوجد حمّام في الطابق العلوي ولكننا نرى أن من الأفضل لأي شخص كبير في السن أن يكون الماء الساخن عنده هنا حتى لا يضطر إلى صعود الدرج.

- إنه لطف كبير منك. هل تعرفين هذا البيت جيداً؟

- إنني أعمل هنا منذ أن كنت فتاة... كنت وقتها خادمة المنزل. كان لديهم ثلاثة من الخدم، طاهية وخادمة منزل وخادمة استقبال، وخادمة مطبخ أيضاً في وقت ما. كان ذلك في زمن الكولونيل العجوز، وكان يربي خيولاً وكان له سائس خيول. آه! كان ذلك في الأيام الخوالي. إنه لأمر محزن أن يحدث ما حدث له؛ لقد فقد الكولونيل زوجتَه وهي صغيرة، وابنه قُتل في الحرب وابنته الوحيدة رحلت لتعيش في الجانب الآخر من العالم، تزوجت رجلاً نيوزيلندياً ثم ماتت وهي تضع مولودها وتوفي المولود أيضاً. كان رجلاً حزيناً يعيش هنا وحيداً، وقد أهمل المنزل فلم يعد يُصان كما ينبغي، وعندما توفي ترك البيت لابنة أخيه الآنسة كلوتيلد وشقيقتَيها، وجاءت هي والآنسة آنثيا للعيش هنا، وبعد ذلك توفي زوج لافينيا فجاءت لتعيش مع أختيها.

تنهدت وهزت رأسها بأسف وقالت: لم يفعلن الكثير للمحافظة على البيت. لم يستطعن تحمّل النفقات، وتركن الحديقة تخرب أيضاً...

- كل شيء يدعو إلى الأسف.

- إنهن سيدات لطيفات على أي حال. الآنسة آنثيا مشوشة الذهن وغير منظّمة لكن الآنسة كلوتيلد ذهبت للجامعة وهي ذكية جداً وتتكلم بثلاث لغات، والسيدة غلين سيدة لطيفة جداً. كنت أظن أن الأمور ستتحسن بقدومها للعيش مع أختيها، ولكن المرء لا يعرف أبداً ما يحمله المستقبل له. أحياناً أشعر أن القدر المشؤوم قد حكم هذا البيت.

نظرت الآنسة ماربل بتساؤل فمضت الخادمة تقول: يحدث شيء أولاً ثم يحدث شيء آخر. ذلك الحادث الرهيب للطائرة... في أسبانيا، حيث قُتل الجميع. إن الطائرات مخيفة، ما كنت لأركب واحدة منها أبداً. قُتل صديقا الآنسة كلوتيلد الاثنان، الزوج وزوجته، وكانت ابنتهما ما تزال في المدرسة لحسن حظها فنجت من الحادث، لكن الآنسة كلوتيلد أحضرتها لتعيش هنا وعملت كل شيء من أجلها، فأخذتها في رحلات إلى الخارج... إلى إيطاليا وفرنسا، وعاملتها كأنها ابنتها. كانت فتاة سعيدة ولطيفة جداً، ولم يظنّ أحدٌ أن يحدث لها ذلك الحادث الرهيب.

- حادث رهيب؟ ما هو؟ هل حدث هنا؟

- لا، ليس هنا والحمد لله، رغم أنك تستطيعين -بطريقة ما- أن تقولي إنه حدث هنا. لقد التقت به هنا، كان يسكن في مكان قريب، والسيدات يعرفن والده وكان رجلاً غنياً جداً، ولذلك جاء إلى هنا للزيارة... كانت تلك هي البداية.

- أحبّ كل منهما الآخر؟

- نعم، لقد وقعت في حبه مباشرة. كان ولداً وسيماً جذاباً ذا طريقة لطيفة في الحديث. ما كان المرء ليحسب... ما كان المرء ليحسب أبداً...

ثم سكتت، فقالت الآنسة ماربل: نشأت علاقة غرامية ثم فشلت، فانتحرت الفتاة. أليس كذلك؟

هتفت الخادمة العجوز في الآنسة ماربل مذعورة: انتحار؟! من الذي أخبرك بذلك؟ كانت جريمة قتل... جريمة قتل واضحة؛ لقد خُنقت وهُشِّم رأسها. واضطرت الآنسة كلوتيلد أن تذهب لتتعرف على جثتها، ومنذ ذلك الوقت لم تعد كما كانت. لقد وجدوا جثتها على بعد ثلاثين ميلاً من هنا وسط أشجار منحدر مهجور، ويُعتقَد بأنها لم تكن أول جريمة يرتكبها، فقد قتل فتيات غيرها. لقد ظلت مفقودة لمدة ستة أشهر، وكانت الشرطة تبحث عنها في كل مكان. آه! إنه وغد حقير... يبدو أنه شخص حقير شرير منذ يوم ولادته. يقولون هذه الأيام أن هناك أناساً لا يستطيعون السيطرة على أفعالهم... أو أنهم مصابون بلوثة في عقولهم وبالتالي لا يمكن أن يتحملوا مسؤولية أفعالهم. إنني لا أصدق كلمة واحدة من هذا كله؛ القتلة هم القتلة. حتى أنهم لا يحكمون عليهم بالإعدام هذه الأيام. أعرف أن بعض العائلات القديمة كانت تتوارث الجنون. كانت هناك عائلة ديرونت في براسينغتن... كان يظهر بين جيل وآخر من أفراد العائلة من يموت في مستشفى المجانين... وهناك السيدة بوليت العجوز التي كانت تخرج إلى الأزقة وتضع التاج على رأسها وتقول إنها ماري أنطوانيت إلى أن أسكتوها. ولكن لم يكن فيها أي شيء غير طبيعي، كان امرأة سخيفة فقط. أما هذا الولد فكان شريراً تماماً.

- وماذا فعلوا به؟

كانوا قد ألغوا حكم الإعدام وقتها... أو أنه كان صغيراً في السن، لا أستطيع أن أتذكر ما حدث بالضبط. لقد أدانوه بالجريمة وأرسلوه إلى بوستول أو برودساند، إلى أحد هذه الأماكن التي تبدأ بحرف الباء.

- ما اسم ذلك الفتى؟

- مايكل... لا أتذكر اسم عائلته. لقد حدث ذلك منذ عشر سنوات، لذلك فقد نسيت. اسمه إيطالي كاسم الرسام الإيطالي... رافيل، أظن ذلك.

- مايكل رافائيل؟

- هذا صحيح. لقد أشيع وقتها أن والده أخرجه من السجن بحكم ثروته وغناه، اعتُبر هروباً من السجن مثل هؤلاء الذين يسطون على البنوك. لكني أظن أن ذلك كان مجرد كلام.

- إذن لم يكن ذلك انتحاراً بل جريمة قتل؟ لقد قالت إليزابيث تيمبل إن «الحب» كان السبب في وفاة إحدى الفتيات، وكانت على حق نوعاً ما. فتاة شابة وقعت في حب قاتل... وبسبب حبها له قام باقتيادها إلى موت بشع على حين غرة.

ارتعدت الآنسة ماربل قليلاً. كانت قد مرّت بالأمس وهي تسير في شارع القرية أمام لوحة إعلانات لإحدى الصحف، وكانت اللوحة تقول: «جريمة في إبسوم داونز، اكتشاف جثة لفتاة أخرى، مطلوب من الشباب مساعدة الشرطة».

* * *

عندما نزلت الآنسة ماربل الدرج صباح ذلك اليوم قبل وقتها المتوقع لم تجد ما يشير إلى وجود مضيفاتها. خرجت من الباب الرئيسي وتجولت في الحديقة. ولم يكن ذلك لأنها أحبت تلك الحديقة وأرادت الاستمتاع برؤيتها، بل كان ذلك بسبب شعور غامض بوجود شيء هناك يجب عليها ملاحظته، شيء سيعطيها فكرة أو أنه أعطاها فكرة لم تكن هي من الذكاء بحيث تفهمها. شيء كان يجب عليها أن تلحظه، شيء له علاقة بمهمتها.

في تلك اللحظة لم تكن مهتمة برؤية واحدة من الأخوات الثلاث، بل كانت تريد تقليب بعض الأمور في ذهنها: الحقائق الجديدة التي عرفتها من خلال كلام الخادمة جانيت معها صباح اليوم.

كانت إحدى البوابات الجانبية مفتوحة فخرجت منها إلى شارع القرية ثم إلى صف من المحلات الصغيرة، ثم إلى الكنيسة والمقبرة التابعة لها. فتحت بوابة المقبرة وصارت تتجول بين القبور. بعض القبور يعود إلى زمن قديم، وتلك القبور عند الجدار البعيد تعود إلى زمن قريب، ووراء الجدار قبور قليلة كان واضحاً أنها جديدة. لم يكن في القبور القديمة أي شيء يثير الاهتمام: أسماء معينة تتكرر كما يحدث في القرى، عدد كبير من أفراد عائلة برنس من أبناء هذه القرية مدفونون هنا، جاسبر برنس المأسوف على شبابه، مارغري برنس، إدغار وولتر برنس، ميلاني برنس ماتت عن أربع سنوات... ثم صف من القبور لعائلة أخرى: هيرام برود، إيلين جين برود، إليزا برود، ٩١ عاماً.

كانت قد بدأت تبتعد عن ذلك القبر الأخير عندما لاحظت

رجلاً كهلاً يتحرك بين القبور ببطء وهو يعدّل ملابسه، وحياها قائلاً: صباح الخير.

ردّت عليه الآنسة ماربل: صباح الخير، إنه يوم جميل بالفعل.

قال العجوز: سينقلب إلى جو ماطر فيما بعد.

كان يتكلم بكل ثقة، وقالت الآنسة ماربل: يبدو أن كثيراً من عائلة برنس وبرود مدفونون هنا.

- آه، نعم؛ كانت عائلة برنس تعيش هنا، كانوا يملكون كثيراً من الأراضي ذات يوم. كما كانت تعيش هنا عائلة برود قبل سنوات عديدة أيضاً.

- أرى طفلة مدفونة هنا. من المحزن جداً أن نرى قبر طفلة.

- آه، لا بد أنه قبر الصغيرة ميلاني، وقد كنّا ندعوها ميلي. نعم، كانت وفاتها محزنة، لقد دُعست. خرجت إلى الشارع تركض وذهبت لتشتري حلوى من محل الحلوى... يحدث هذا كثيراً هذه الأيام حيث السيارات المسرعة الكثيرة.

- كم هو محزن عندما نرى كثيراً من الناس يموتون باستمرار، غير أن المرء لا ينتبه لذلك إلاّ عندما يقرأ الشواهد على القبور. المرض، والعجز، وأطفال يُدعَسون، وأحياناً أشياء مرعبة أكثر... فتيات مقتولات، أقصد جرائم القتل.

- آه، نعم، هناك الكثير من هذه الجرائم. معظمهنّ فتيات سخيفات، كما أن أمهاتهن ليس لديهن الوقت الكافي للعناية بهن

بالطريقة الصحيحة هذه الأيام بسبب خروجهن للعمل لساعات طويلة.

وافقته الآنسة ماربل على هذا النقد، لكنها لم تكن ترغب بإضاعة وقتها في الموافقة على الأفكار السائدة. سألها الرجل العجوز: أنت تقيمين في بيت العزبة القديمة، أليس كذلك؟ أظن أنك وصلت مع الرحلة. لكني أعتقد أنها مُرهِقة جداً بالنسبة لك، إن بعض كبار السن لا يستطيعون تحملها.

اعترفت الآنسة ماربل: لقد وجدتها فعلاً مرهِقة بعض الشيء، وقد كتب صديق كريم يدعى السيد رافائيل إلى بعض أصدقائه هنا فدعوني للإقامة عندهم ليلتين.

بدا واضحاً أن اسم رافائيل لم يعنِ شيئاً للبستاني العجوز. قالت الآنسة ماربل: كانت السيدة غلين وشقيقتاها في منتهى الكرم، أظن أنهن يعشن هنا منذ زمن طويل؟

- ليس طويلاً إلى هذا الحد، ربما منذ عشرين سنة فقط. كان البيت مُلكاً للكولونيل العجوز برادبيري سكوت... أقصد بيت العزبة القديمة. كان قريباً من السبعين عندما مات.

- هل كان له أي أولاد؟

- ابن قُتل في الحرب، ولذلك أورث هذا المكان لبنات أخيه. لم يكن له أي وريث آخر.

عاد إلى عمله بين القبور، ودخلت الآنسة ماربل الكنسية. كانت لمسات العصر الفكتوري واضحة عليها، وكان زجاج النوافذ لامعاً

وبعض النحاسيات واللوحات المعلقة على الجدران هي كل ما بقي من الماضي.

جلست الآنسة ماربل على أحد المقاعد الخشبية غير المريحة وراحت تتساءل في نفسها: هل كانت تسير على الطريق الصحيح؟ لقد بدأت الأمور تترابط، ولكن الروابط بينها كانت أبعد ما يكون عن الوضوح. فتاة قُتلت (والواقع أن عدة فتيات قد قُتلن)... الاشتباه في بعض الشباب وقيام الشرطة باعتقالهم «ليساعدوها في تحقيقاتها» نموذج عام وشائع، لكن ذلك كله أصبح تاريخاً قديماً يعود إلى عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة. لا شيء يمكن اكتشافه... الآن، لا توجد مشكلات لحلها. مأساة أسدل عليها الستار.

ما الذي يمكنها أن تفعله؟ ما الذي كان السيد رافائيل يريد منها أن تفعله؟

إليزابيث تيمبل... يجب عليها أن تحمل إليزابيث تيمبل على إخبارها بالمزيد. لقد تحدثت إليزابيث عن فتاة كانت مخطوبة لمايكل رافائيل، ولكن هل كان الأمر كذلك حقاً؟ يبدو أن ذلك غير معروف للسيدات في بيت العزبة القديمة.

تذكرت الآنسة ماربل قصة مألوفة أكثر لديها، قصة كانت تتكرر باستمرار في قريتها، كانت تبدأ دائماً: «فتى يلتقي بفتاة» وكانت تتطور في نفس الطريقة المعتادة... وقالت الآنسة ماربل تحدّث نفسها: ثم تجد الفتاة نفسها حاملاً وتخبر الفتى وتطلب منه أن يتزوجها، ولكنه ربما لا يريد الزواج بها أو لم يفكر أبداً بالزواج منها. وتصبح الأمور صعبة عليه في هذه الحالة، إذ ربما عارض والده معارضة شديدة

فيما يصرّ أقاربها على أن «يصلح خطأه»، وفي هذه الفترة يكون قد سئم من الفتاة... وربما عرف فتاة غيرها، ولذلك يقوم بخطوة سريعة وحشية: يخنقها ويضربها على رأسها ويهشمه حتى لا يتعرف أحد عليها! إنه سيناريو يناسب هذه القضية، جريمة وحشية قذرة ولكنها نُسيت وانتهى أمرها.

نظرت حولها إلى الكنيسة التي كانت تجلس فيها. بدت هادئة جداً، وكان يصعب تصديق حقيقة وجود الشر. موهبة اكتشاف الشر... هذا ما نسبه السيد رافائيل إليها. نهضت وخرجت من الكنسية ووقفت تنظر حولها إلى المقبرة مرة أخرى، ولم يتحرك في نفسها هنا بين هذه القبور أي إحساس بالشر.

أكان الشر هو الذي أحست به بالأمس في بيت العزبة القديمة؟ ذلك الحزن العميق، ذلك الحزن اليائس. آنثيا سكوت وهي تنظر من جهة واحدة إلى الوراء نظرات خوف وكأنها تخشى من وجود أحد يقف هناك... يقف دائماً هناك... وراءها! إنهن يعرفن شيئاً، هؤلاء الأخوات الثلاث، ولكن ما الذي يعرفنه؟

مرة أخرى، إليزابيث تيمبل. تخيلت إليزابيث تيمبل مع بقية زملائها في الرحلة تسير بخطوات سريعة، تنزل وتصعد الممرات المنحدرة وتنظر إلى البحر من فوق الصخور الشاهقة. غداً، عندما تنضمّ إلى الرحلة ثانية ستطلب من إليزابيث تيمبل أن تخبرها بالمزيد.

عادت الآنسة ماربل أدراجها إلى بيت العزبة القديمة وهي تمشي ببطء لأنها صارت مرهقة الآن. لم تتمكن من الشعور بأن هذا الصباح قد أثمر شيئاً مفيداً؛ فحتى هذه اللحظة لم يعطِها بيتُ العزبة القديمة أيةَ أفكار محددة ذات دلالة معينة مهما كانت. لديها قصة عن مأساة

قديمة سردتها جانيت، ولكنك تجد الكثير من أمثال هذه المآسي والحوادث الماضية مكنوزة في ذاكرة الخادمات اللاتي يتذكرنَها كما يتذكرنَ جميع الأحداث السعيدة كحفلات الزفاف والعمليات الناجحة أو الحوادث التي ينجو منها الناس بأعجوبة...

وعندما كانت تقترب من البوابة رأت امرأتين تقفان هناك. جاءتها واحدة منهما وكانت السيدة غلين، وقالت: آه، أنت هنا؟ لقد تساءلنا عنك. اعتقدت أنك خرجت تتمشين في مكان ما ولذلك تمنيت أن لا تكوني قد أجهدتِ نفسك. لو كنت أعرف أنك نزلت وخرجت من البيت لجئت معك لأريك ما يمكن رؤيته، مع أنه ليس هناك الكثير.

قالت الآنسة ماربل: لقد تجوّلت في المنطقة القريبة فقط، وزرت مقبرة الكنيسة والكنيسة. إنني مهتمة بالكنائس، أحياناً توجد نقوش غريبة جداً على الأضرحة، وأنا أجمع مثل هذه النقوش. أظن أن الكنيسة قد جُدّدت في العصر الفكتوري؟

- نعم، أظن أنهم وضعوا فيها بعض المقاعد القبيحة. إنها مقاعد من خشب جيد النوعية وقوي ولكن ليس فيها ذوق.

- أرجو أن لا يكونوا قد أخذوا منها شيئاً ذا أهمية خاصة؟

- لا أظن ذلك؛ إنها ليست قديمة جداً في الحقيقة.

وافقتها الآنسة ماربل: لا يبدو أن فيها طاولات كثيرة أو نحاسيات كثيرة أو أي شيء من هذا القبيل.

- يبدو أنك مهتمة بالعمارة الكنسية؟

- آه، إنني لم أدرسها، ولكن في قريتي سينت ميري ميد تدور الأمور كلها حول الكنيسة. أقصد أنها كانت دوماً كذلك، كان ذلك أيام صباي، أما اليوم فإنه مختلف بالطبع. هل نشأت في هذه المنطقة؟

- لا، لقد عشنا في منطقة ليست بعيدة كثيراً من هنا، نحو ثلاثين ميلاً، في ليتل هيردسلي. كان والدي عسكرياً متقاعداً، رائداً في سلاح المدفعية. وكنّا نأتي إلى هنا من وقت لآخر لرؤية عمي، والواقع أننا كنّا نأتي لرؤية عم والدي قبله... لكني لم آتِ إلى هنا كثيراً في السنوات الأخيرة. انتقلت شقيقتاي إلى هنا بعد وفاة عمي ولكني كنت في الخارج مع زوجي في ذلك الوقت، لقد توفي قبل أربع سنوات أو خمس فقط.

- آه، فهمت.

- كانتا حريصتين على أن آتي لأعيش معهما هنا، والواقع أنه كان أفضل شيء أعمله. لقد عشنا في الهند بضع سنوات، كان زوجي مقيماً هناك وقت وفاته. من الصعب جداً أن يعرف الإنسان أين يضع جذوره في هذه الأيام.

- نعم، أفهم هذا تماماً. وبالطبع فقد أحسست بأن لديك جذوراً هنا حيث إن عائلتك كانت تعيش هنا منذ وقت طويل.

- نعم، نعم، لقد شعرت بذلك. بالطبع كنت على اتصال دائم بشقيقتيّ وكنت أزورهن باستمرار، لكن الأمور تختلف دائماً عمّا نظن أنها ستكون عليه. لقد اشتريت كوخاً صغيراً قرب لندن، قرب هامبتون كورت حيث أقضي وقتاً طويلاً وأقوم ببعض الأعمال

الصغيرة لصالح بعض الجمعيات الخيرية في لندن.

- إذن فوقتك مشغول تماماً؟ يا له من تصرف حكيم!

- ربما أحسست في الفترة الأخيرة بضرورة أن أقضي وقتاً أطول هنا، لقد كنت قلقة على شقيقتيّ قليلاً.

- على صحتهما؟ الكل يقلق هذه الأيام وخصوصاً عندما لا يوجد شخص قدير يمكن توظيفه لرعاية كبار السن عندما يضعفون أو يمرضون. كثيرٌ من الناس يصابون بالروماتزم والتهاب المفاصل، والمرء يخشى على نفسه من الوقوع في الحمّام أو السقوط عن الدرج.

قالت السيدة غلين: لقد كانت كلوتيلد قوية على الدوام، وأستطيع وصفها بالمرأة الخشنة، لكنني أشعر بالقلق على آنثيا أحياناً. إنها غامضة، غامضة جداً بالفعل، وهي تخرج تتجول أحياناً ولا تعرف أين هي.

- نعم، أمر محزن أن يقلق الناس. ثمة الكثير ممّا يُقلق الناس.

- لكني لا أرى ما يستحق أن تقلق آنثيا من أجله.

- ربما تقلق من ضريبة الدخل أو من مسائل مالية؟

- لا، لا، هذه ليست أموراً بالغة الأهمية. إنها قلقة جداً على الحديقة، تتذكر كيف كانت الحديقة وتفكر كثيراً في صرف الأموال من أجل إصلاح البيت... وقد أخبرتها كلوتيلد أننا لا نستطيع تحمل هذه النفقات في الوقت الحاضر، لكنها ما تزال تتكلم عن بيوت

النبات الزجاجية وأشجار الخوخ التي كانت تُزرع فيها ودوالي العنب... وما إلى ذلك.

- ونباتات العُلّيق المتسلقة على الجدران.

- غريب أن تتذكري هذا. نعم، نعم، إنها من الأشياء التي ترسخ في الذاكرة، فلها رائحة جذابة كما أنها ذات اسم رنّان أيضاً ويتذكره المرء دائماً. ودالية العنب، العنب الصغير حلو الطعم. آه، لا ينبغي أن نفكر بالماضي كثيراً.

- وشجيرات الورد أيضاً.

- نعم. نعم، أرادت آنثيا إحاطة المكان بشجيرات كبيرة مُزهرة كما كان الأمر من قبل. ولكن ذلك لم يعد ممكناً، إذ يصعب في هذه الأيام كثيراً إحضار أناس من أهل القرية لكي يجزُّوا الأعشاب الموجودة على المرجة كل أسبوعين. كما أن آنثيا تحب زراعة حشائش البامباس مرة أخرى وأيضاً شجرة التين التي كانت فيما مضى خارج بيت النبات الزجاجي... إنها تتذكر كل هذه الأمور ولا تزال تتحدث عنها.

- لا بد أنه أمر صعب عليك.

- هو كذلك؛ إن المجادلات ليست أمراً محبذاً، وكلوتيلد عنيدة جداً في مثل هذه الأمور، فهي ترفض الاقتراحات مباشرة وتقول إنها لا تريد سماع كلمة أخرى عنها.

قالت الآنسة ماربل: يصعب على الإنسان معرفة كيفية معالجة الأمور. هل يكون المرء حازماً أو مستبداً؟ هل يكون قاسياً بعض

الشيء أم يكون متعاطفاً؟ يصغي للمقترحات ويبقي على محدّثه متفائلاً وهو يعرف أنه ليس لهذا التفاؤل ما يبرره؟ نعم، إنه لأمر صعب.

- لكن الأمور أسهل بالنسبة لي لأنني أرحل ثم أعود من وقت لآخر للإقامة هنا، ولذلك فمن السهل عليّ أن أتظاهر بأن الأمور ستكون أسهل في المستقبل القريب وبالتالي يمكن عمل شيء. لكني عدت إلى البيت قبل أيام ووجدت أن آنثيا قد حاولت التعاقد مع مكتب يتقاضى أجوراً باهظة لتأمين عمّال حديقة وبَستنة لإحياء حديقة البيت وبناء بيت النبات الزجاجي مرة أخرى... وهو عمل سخيف تماماً، فحتى لو زرعنا دوالي العنب فإنها لن تحمل ثماراً قبل سنتين أو ثلاث. لم تكن كلوتيلد تعرف أي شيء عن الأمر وغضبت إلى أبعد حد عندما قرأت القيمة التقديرية لهذا العمل على مكتب آنثيا.. لقد كانت قاسية معها بحق.

قالت الآنسة ماربل: هناك أشياء كثيرة صعبة.

كانت تلك عبارة مفيدة تستخدمها كثيراً، ثم ما لبثت أن قالت: أظن أن عليّ أن أذهب في وقت مبكر من صباح الغد. كنت أقوم ببعض الاستفسارات في فندق غولدن بور حيث ستجتمع مجموعة المسافرين صباح الغد، سوف ينطلقون في وقت مبكر، في الساعة التاسعة.

- أرجو أن لا يكون هذا متعباً لك.

- لا أظن ذلك. وأحسب أننا سنذهب إلى مكان يدعى... ماذا يدعى؟ سيترلنغ سينت ميري... اسم قريب من هذا، ويبدو أنه

غير بعيد من هنا. هناك كنيسة مثيرة للاهتمام نريد رؤيتها في الطريق وكذلك قلعة، وبعد الظهر سنزور حديقة جميلة جداً صغيرة لكن بها أزهاراً من نوع خاص. أنا واثقة من أنني سأكون على خير ما يرام بعد هذه الاستراحة اللطيفة لي هنا، ولقد كنت سأتعب كثيراً لو ذهبت معهم لتسلق تلك الصخور والمرتفعات.

قالت السيدة غلين وهما تدخلان البيت: يجب أن ترتاحي بعد ظهر اليوم حتى تستعدي للغد.

ثم قالت تخاطب كلوتيلد: لقد ذهبت الآنسة ماربل لزيارة الكنسية.

قالت كلوتيلد: ليس فيها الكثير مما يستحق المشاهدة، ليس فيها سوى الزجاج الفكتوري الذي أراه كريهاً تماماً. لقد صُرف عليها الكثير، وأظن أن بعض اللوم يقع على عمي الذي كان سعيداً جداً بهذا الزجاج الأحمر والأزرق غير المتقن.

قالت لافينيا غلين: لطالما رأيتُه فجّ الذوق.

ذهبت الآنسة ماربل بعد الغداء لترتاح في قيلولة قصيرة، ولم تنضم إلى مضيفاتها إلاّ عند اقتراب موعد العشاء تقريباً. وبعد العشاء دار حديث طويل بينهن إلى أن حان وقت النوم، وقد وجّهت الآنسة ماربل الحديث باتجاه استعادة الذكريات... ذكرياتها عن أيام شبابها وصباها والأماكن التي زارتها والرحلات والأسفار التي قامت بها والناس الذين كانت تعرفهم...

ثم ذهبت إلى النوم متعبة وهي تحمل معها إحساساً بالفشل.

لم تعرف أكثرَ مما كانت تعرفه أصلاً، ربما لأنه لم يكن ثمة ما يمكن معرفته. كانت رحلة لصيد السمك لم تظهر فيها السمكة... ربما لأن أي سمكة لم تكن موجودة أصلاً، أو أنها لم تهتدِ إلى الطُعم المناسب الذي ينبغي استخدامه.



الفصل الحادي عشر

حادث

قُدِّم الشاي للآنسة ماربل في الساعة السابعة والنصف صباح اليوم التالي ليكون معها وقت كاف لتنهض وتحزم أمتعتها القليلة. كانت تُغلق حقيبتها الصغيرة عندما سمعت طرقات مستعجلة على الباب لتدخل كلوتيلد وهي تبدو منزعجة. قالت: آه يا عزيزتي، في الصالة شاب جاء لرؤيتك يا آنسة ماربل. اسمه إيملين برايس، وهو مشارك في الرحلة معك وقد أرسلوه إلى هنا.

- أتذكره بالطبع. نعم، الشاب الصغير؟

- نعم، شاب على الموضة ذو شعر طويل. ولكنه في الحقيقة قد جاء... جاء ليبلغك أخباراً سيئة. لقد وقع حادث للأسف.

حدّقت إليها الآنسة ماربل وقالت: حادث؟ تقصدين... للحافلة؟ هل وقع حادث سير؟ هل أصيب أحدٌ؟

- لا، لا، ليست الحافلة، لم يحدث لها أي شيء، بل وقع حادث في أثناء الرحلة بعد ظهر الأمس. ربما تتذكرين هبوب ريح قوية رغم أنني لا أعتقد أن لهذا علاقة بالحادث. أظن أن الناس

يتيهون قليلاً في المنطقة، ثمة ممر ممهَّد ولكن المرء يستطيع أيضاً التسلق من طرق أخرى على المرتفع، وكِلا الطريقين يؤديان إلى البرج التذكاري على قمة مرتفعات بونافينشر التي هي وجهة الجميع. لقد تفرق المشاركون في الرحلة، ويبدو أن أحداً لم يكن يرشدهم أو يعتني بهم (وهو أمر كان ينبغي الالتزام به). ويبدو أن بعض الناس لا يتأكدون من خطواتهم جيداً بشكل دائم، كما أن المنحدرات حادة جداً. وقد سقطت صخور وحجارة من جانب الهضبة فأصابت إحدى السيدات المتسلقات.

هتفت الآنسة ماربل: يا إلهي! إنه أمر مؤسف، مؤسف جداً. مَن هي التي أصيبت؟

- فهمت أنها تدعى الآنسة تيمبل.

قالت الآنسة ماربل: إليزابيث تيمبل؟ يا إلهي، يا له من أمر مؤسف! لقد تحدثت معها كثيراً وكنت أجلس إلى جانبها في الحافلة. أظن أنها مديرة مدرسة متقاعدة، امرأة معروفة جداً.

قالت كلوتيلد: بالطبع، أعرفها جيداً. كانت مديرة مدرسة فالوفيلد، وهي مدرسة مشهورة جداً. لم أكن أعرف أنها مشاركة في هذه الرحلة. لقد تقاعدت من عملها قبل سنة أو سنتين، لكنها ليست كبيرة بالسن، أظن أنها في الستين من عمرها تقريباً، وهي نشيطة جداً وتحب تسلق الجبال والمشي وغير ذلك من أنواع الرياضة. إنه لأمر مؤسف جداً، أرجو أن لا تكون قد أصيبت إصابة بالغة. لم أسمع أية تفاصيل بعد.

قالت الآنسة ماربل وهي تنتشل حقيبتها: سأنزل على الفور لأرى السيد برايس.

أمسكت كلوتيلد بالحقيبة وقالت: اتركيها لي، أستطيع حملها نيابة عنك. انزلي معي واحذري الدرج.

نزلت الآنسة ماربل، وكان إيملين برايس في انتظارها. بدا شعره أشعث أكثر من المعتاد وكان يلبس حذاء رياضياً جميلاً وسترة من جلد وبنطالاً أخضر زاهياً. قال وهو يمسك بيد الآنسة ماربل: إنه حادث مؤسف، وقد رأيت أن آتي بنفسي وأبلغك به. أظن أن الآنسة سكوت قد أبلغتك الخبر... إنها الآنسة تيمبل... تعرفينها، مديرة المدرسة. لا أعرف ما كانت تفعله أو ما حدث تحديداً، ولكن بعض الصخور الضخمة تدحرجت من أعلى. إنه منحدر شديد، وقد رمتها الصخور في الهاوية فاضطروا لأخذها إلى المستشفى في الليلة الماضية في حالة إغماء نتيجة إصابة في رأسها. أظنّ أن حالتها سيئة، وعلى أية حال فقد أُلغيت رحلة اليوم وسنبقى هذه الليلة هنا.

قالت الآنسة ماربل: إنه أمر مؤسف، مؤسف جداً.

- أظن أنهم قرروا أن لا يذهبوا اليوم في انتظار ما سيسفر عنه التقرير الطبي، ولذلك فإننا نعتزم قضاء ليلة أخرى في فندق غولدن بور وإعادة ترتيب برنامج الرحلة قليلاً، وربما لا نذهب إلى غرانغ ميرنغ كما كان مخططاً غداً (وهي ليست مكاناً مثيراً في الحقيقة، أو هكذا يقولون). لقد ذهبت السيدة ساندبورن إلى المستشفى في وقت مبكر من صباح اليوم لتفقد المريضة، وستنضم إلينا في غولدن بور

في الساعة الحادية عشرة عند تناول القهوة، وقد فكرت أنك ربما أردت المجيء لسماع آخر الأخبار.

- سآتي معك بالتأكيد، بالطبع، على الفور.

التفتت لوداع كلوتيلد والسيدة غلين التي جاءت معها. قالت: شكراً لكُنّ، لقد كنتُنّ في غاية الكرم واللطف معي. لقد سعدت جداً بقضاء هاتين الليلتين هنا، وأشعر بالراحة الكبيرة. إن ما حدث أمر مؤسف جداً.

قالت السيدة غلين: إذا رغبت بقضاء ليلة أخرى فأنا متأكدة...

ثم نظرت إلى أختها كلوتيلد. ولاحظت الآنسة ماربل (ذات النظرات الجانبية الحادة) أن نظرة كلوتيلد لم تُبدِ استحساناً للفكرة، بل إنها كادت تهزّ رأسها لأختها ناهية، رغم أنها كانت حركة خفيفة لا تكاد تُلاحظ. لكن الآنسة ماربل رأت أنها بحركتها تلك كانت تريد منع أختها من إكمال اقتراحها.

وأكملت السيدة غلين: رغم أنني أظن طبعاً أن الأصول تقتضي منك أن تكوني مع زملائك و...

قالت الآنسة ماربل: نعم، أظن أنه سيكون أفضل. سأعرف ما هي خططهم وماذا سنفعل وربما أمكنني تقديم المساعدة بطريقة ما. شكراً لكُنّ مرة أخرى.

ثم نظرت إلى إيملين وقالت: أظن أنه لن يكون صعباً حجزُ غرفة في فندق غولدن بور؟

أجابها إيملين مُطَمئناً: سيكون الأمر على ما يرام؛ لقد أُخليت عدة غرف اليوم، وأظن أن السيدة ساندبورن قد حجزت لجميع الركاب لقضاء الليلة وسنرى غداً... سنرى كيف ستجري الأمور.

تم تبادل كلمات الوداع والشكر مرة أخرى، وحمل إيملين برايس أغراض الآنسة ماربل وخرج مسرعاً، ثم قال: إنه قريب من الزاوية ثم أول شارع إلى اليسار.

- نعم، أظن أنني مررت من أمامه بالأمس. مسكينة الآنسة تيمبل، أرجو أن لا تكون إصابتها سيئة.

- بل أظنها كذلك للأسف. أنت تعرفين بالطبع كيف هم الأطباء والعاملون بالمستشفى، يقولون الكلام ذاته دائما: "المريض بأفضل حال يمكن توقعه". لم يجدوا مستشفى محلياً، ولذلك اضطروا لأخذها إلى كارستاون التي تبعد ثمانية أميال تقريباً. على أية حال سوف تعود السيدة ساندبورن ومعها الأخبار عندما تستقرين في الفندق.

وصلا هناك فوجدا أفراد الرحلة مجتمعين في المقهى يشربون القهوة ويتناولون الفطائر وحلوى الصباح. كان السيد باتلر وزوجته يتحدثان في تلك اللحظة، وقالت السيدة باتلر: آه، إنه حادث مأساوي جداً. أليس مزعجاً أن يحدث ذلك ونحن جميعاً في أوج سعادتنا واستمتاعنا؟ مسكينة الآنسة تيمبل! وأنا التي كنت أظن دائماً أنها ثابتة القدمين. ولكن المرء لا يستطيع الجزم بشيء، أليس كذلك يا هنري؟

قال هنري: بالطبع، بالطبع. إنني أتساءل... نعم، فوقتنا قصير

جداً... أتساءل إن كان من الأفضل لنا أن نتخلى عن هذه الرحلة هنا. لا نريد أن نستمر فيها، إذ يبدو لي أنه سيكون من الصعب استئناف الرحلة إلاّ إذا عرفنا حالة المريضة على وجه التحديد. فلو كانت حالتها خطيرة... أقصد إذا كانت إصابتها قاتلة فقد يكون... أقصد ربما يجري تحقيق أو شيء من هذا القبيل.

- آه، هنري، لا تقل مثل هذه الأشياء الفظيعة!

قالت الآنسة كوك: أنت متشائم قليلاً يا سيد باتلر، إنني متأكدة من أن الأمور ليست بهذه الخطورة.

قال السيد كاسبر بلهجته الأجنبية: بلى، إنها خطيرة. لقد سمعت بالأمس عندما كانت السيدة ساندبورن تتحدث مع الطبيب بالهاتف، سمعت أن حالتها خطيرة، خطيرة جداً. يقولون إن إصابتها خطيرة جداً، وسوف يأتي طبيب خاص ليفحصها ويقرر ما إذا كان باستطاعته إجراء عملية جراحية لها أم أن ذلك مستحيل. نعم، إن حالتها سيئة جداً.

قالت الآنسة لوملي: يا إلهي! إن كان هناك أي شك فقد يتوجب علينا العودة إلى البيت يا ميلدريد، يجب أن أرى مواعيد القطارات.

ثم التفتت إلى السيدة باتلر وقالت: لقد عملت الترتيبات لوضع قططي عند الجيران، وإذا تأخرت يوماً أو يومين فسيكون الأمر صعباً جداً على الجميع.

قالت السيدة رايسلي بورتر بصوتها الجهوري الآمر: لا حاجة لأن نرهق أنفسنا بالقلق والوساوس. جوانا، ألقي بهذه الكعكة في سلة

المهملات، إن طعمها فظيع ولا أريد تركها في طبقي حتى لا تزداد مشاعري سوءاً.

بعد أن تخلصت جوانا من قطعة الحلوى قالت: هل ترين بأساً في خروجي مع إيملين لكي نتمشى قليلاً؟ أقصد لنرى البلدة. إن جلوسنا هنا لا يفيد ونحن نسمع هذا الكلام الحزين، فنحن لا نستطيع عمل أي شيء.

بادرت الآنسة كوك قائلة: أظن أن من الحكمة أن تخرجا.

وقالت الآنسة بارو قبل أن تتفوه السيدة رايسلي بورتر: نعم، اذهبا الآن.

تبادلت الآنسة كوك والآنسة بارو النظرات وتنهّدتا وهما تهزان رأسيهما، وقالت الآنسة بارو: كان العشب زَلِقاً جداً، لقد زلقت قدمي أكثر من مرة على تلك المرجة الصغيرة.

قالت الآنسة كوك: والحجارة أيضاً... كانت قطع الأحجار الصغيرة تتساقط عليّ عندما كنت أنعطف عند زاوية الطريق. نعم، أحد الأحجار أصابني في كتفي إصابة قوية.

بعد أن فرغ القوم من شرب الشاي والقهوة وأكل الكعك بدا الجميع مشوشين قلقين، فعندما تحدثُ كارثة يصعب معرفة الأسلوب المناسب في التعامل معها. لقد عرض كل امرئ وجهة نظره وأعرب عن دهشته وحزنه، وهم الآن بانتظار الأخبار في الوقت الذي تراودهم رغبة في الخروج والتجول، رغبة في العثور على اهتمام يشغلهم بحيث يقضون هذا الصباح. لن يُقدَّم الغداء إلاّ في الساعة

الواحدة، وقد أحسوا أن الجلوس وتكرار العبارات والكلمات نفسها سيكون أمراً كئيباً مزعجاً.

نهضت الآنسة كوك والآنسة بارو كأنهما امرأة واحدة، وقالتا إن عليهن القيام ببعض التسوق وشراء بعض الأغراض والذهاب إلى مكتب البريد لشراء طوابع. قالت الآنسة بارو: أريد أن أرسل بعض بطاقات المعايدة، كما أريد سؤالهم عن الرسوم البريدية لإرسال رسالة إلى الصين.

وقالت الآنسة كوك: أما أنا فأريد معاينة بعض الصوف، كما بدا لي أن هناك مبنى مثيراً للاهتمام على الجانب الآخر من ساحة السوق.

قالت الآنسة بارو: أظن أن الخروج سيفيدنا جميعاً.

نهض الكولونيل وولكر وزوجته أيضاً واقترحا على السيد باتلر وزوجته أن يخرجوا ويروا ما يمكن رؤيته. أعربت السيدة باتلر عن أملها بالعثور على محل لبيع التحف قائلة: لا أقصد محل تحف حقيقي، بل محل خردوات فقط. أحياناً يجد المرء أشياء مثيرة هناك.

خرجوا جميعاً. وكان إيملين برايس قد انسل إلى الباب واختفى على إثر جوانا دون أن يكلف نفسه عناء الاعتذار وتبرير خروجه، أما السيدة رايسلي بورتر فبعد أن قامت بمحاولة أخيرة لمناداة ابنة أخيها قالت إنها تعتقد أن الجلوس في الردهة أفضل من البقاء هنا، ووافقتها الآنسة لوملي، ورافق السيد كاسبر السيدتين إلى الردهة.

بقي البروفسور وانستيد والآنسة ماربل، وقال البروفسور وانستيد مخاطباً الآنسة ماربل: أنا أعتقد أن الجلوس خارج الفندق أفضل، ثمة مصطبة صغيرة تطل على الشارع، هل باستطاعتي دعوتك للخروج إليها؟

شكرته الآنسة ماربل ونهضت واقفة. إنها لم تتبادل كلمة واحدة حتى الآن مع البروفسور وانستيد. كان معه عدة كتب علمية وكان دائم القراءة في أحدها، حتى وهو في الحافلة كان يحاول القراءة. قال: ربما أردت أنت أيضاً التسوق؟ بالنسبة لي فإنني أفضل الانتظار في مكان ما بهدوء لحين عودة السيدة ساندبورن؛ أظن أن من المهم جداً أن نعرف موقع أقدامنا بالضبط.

قالت الآنسة ماربل: أوافقك الرأي تماماً في هذا. لقد مشيت كثيراً في البلدة بالأمس ولا أشعر بأية ضرورة لفعل ذلك اليوم، بل أفضّل الانتظار حتى أرى إن كان في استطاعتي عمل أي شيء للمساعدة. لا أظن وجود شيء يمكن عمله، ولكن مَن يدري؟

خرجا من باب الفندق ودارا حوله من الخارج حيث كانت هناك حديقة صغيرة وممشى حجري قريب من جدار الفندق توجد عليه أشكال مختلفة من الكراسي. لم يكن ثمة أحد في تلك اللحظة، ونظرت الآنسة ماربل إلى مرافقها نظرات متأملة، نظرت إلى وجهه المتجعد وحاجبيه الكثين ورأسه ذي الشعر الكثيف الذي كساه الشيب. كان يمشي محدودباً بعض الشيء، ورأت الآنسة ماربل أن له وجهاً مثيراً. كان صوته جافاً لاذعاً، وأحسّت أنه رجل محترف كائناً ما كانت مهنته.

قال البروفسور: أنت الآنسة جين ماربل، إن لم أكن مخطئاً؟

- أنا جين ماربل، نعم.

دُهشت قليلاً رغم عدم وجود سبب معين. إن المجموعة لم تقضِ من الوقت معاً ما يسمح بتعارف الركاب، وفي آخر ليلتين لم تكن الآنسة ماربل مع بقية المجموعة، فبدا تعرّفه عليها أمراً غيرَ طبيعي.

قال البروفسور وانستيد: لقد استنتجت ذلك من وصفٍ رُويَ لي عنك.

قالت الآنسة ماربل وقد فوجئت مرة ثانية: وصف روي لك عني؟

- نعم، عندي وصف لك...

سكت قليلاً، ولم ينخفض صوته تماماً لكنه فقد جَهوريته رغم أنها كانت تستطيع سماعه بسهولة. أضاف يقول: من السيد رافائيل.

جفلت الآنسة ماربل وقالت: آه، من السيد رافائيل!

- هل فوجئت؟

- نعم، فوجئت.

- لا أرى سبباً لذلك.

- لم أتوقع...

سكتت الآنسة ماربل ولم تكمل، ولم يتكلم البروفسور وانستيد. كان يجلس وينظر إليها نظرات متفحصة، وشعرت الآنسة ماربل أنه لن

يلبث أن يسألها: "ما هي الأعراض لديك بالضبط؟ هل تجدين صعوبة في البلع؟ هل تعانين من الأرق؟ هل هضمك على ما يرام؟"... باتت الآن شبه متأكدة من أنه طبيب، وقالت له: متى وصفني لك؟ لا بد أن ذلك...

- كنت ستقولين قبل وقت طويل... قبل أسابيع. الصحيح أن ذلك كان قبل وفاته؛ أخبرني بأنك ستكونين في هذه الرحلة.

- وكان يعرف أنك الآخر ستكون فيها... أو ستذهب فيها؟

- يمكنك قول هذا. قال لي إنك قد تسافرين في هذه الرحلة وإنه قد رتب أمور سفرك فيها.

- كان ذلك عملاً لطيفاً منه، لطيفاً جداً. لقد فوجئت كثيراً عندما علمت أنه حجز لي في الرحلة. إنها رحلة رائعة، وما كنت لأستطيع تحمل نفقاتها.

- نعم، أحسنت التعبير.

ثم أومأ برأسه كالذي أعجبه أداء جيد لتلميذ مدرسة. قالت الآنسة ماربل: أمر مؤسف أن يتخلل الرحلةَ مثلُ هذا الحادث، مؤسف جداً. في الوقت الذي كنا نستمتع فيه جميعاً بأوقاتنا.

قال البروفسور وانستيد: نعم، نعم، مؤسف جداً. وغير متوقع، أم أنك ترينه متوقعاً؟

- ماذا تقصد بهذا يا بروفسور؟

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يرى نظراتها المتحدية. قال: لقد حدثني السيد رافائيل عنك بالتفصيل يا آنسة ماربل، واقترح عليّ

أن آتي في هذه الرحلة معك. كان يجب أن أتعرف عليك في الوقت المناسب، حيث إن المشاركين في أي رحلة يتعارفون حتماً رغم أنهم يفترقون بعد يوم أو يومين إلى مجموعات حسب ميولهم وأذواقهم واهتماماتهم. كما أنه طلب مني مراقبتك.

قالت الآنسة ماربل باستياء: مراقبتي؟ ولماذا؟

- أظن أن ذلك كان بغرض حمايتك، لقد أراد التأكد من عدم حدوث شيء لك.

- عدم حدوث شيء لي؟ وماذا عساه يحدث لي، هذا ما أودّ معرفته؟

- ربما ما حدث للآنسة إليزابيث تيمبل.

ظهرت جوانا كروفورد عند زاوية الفندق وهي تحمل سلة مشتريات، ومرّت من أمامهما وأومأت برأسها ونظرت إليهما ببعض الفضول ثم نزلت الشارع. لم يتكلم البروفسور وانستيد إلاّ بعد أن توارت عن الأنظار، قال: فتاة لطيفة، هذا ما أعتقده على الأقل. إنها راضية في الوقت الحالي بأن تكون مرافقة وخادمة لعمتها المستبدة، لكنني لا أشك في أنها ستصل إلى سن الثورة عليها عمّا قريب.

قالت الآنسة ماربل غيرَ آبهة حالياً باحتمال ثورة جوانا: ماذا كنت تقصد بالذي قلته قبل قليل؟

- ربما توجّب علينا مناقشة هذه المسألة على ضوء ما حدث.

- أتقصد بسبب الحادث؟

- نعم، إن كان حادثاً فعلاً.

- هل تظن أنه لم يكن حادثاً؟

- أظن أن هذا محتمَل، هذا كل ما في الأمر.

قالت الآنسة ماربل مترددة: أنا لا أعرف شيئاً عن الأمر بالطبع.

- نعم، فأنت لم تكوني هناك. لقد كنت... إن صحّ التعبير... في مهمة في مكان آخر.

سكتت الآنسة ماربل لحظة، ونظرت إلى البروفسور وانستيد مرة أو مرتين ثم قالت: لا أظن أنني أفهم ما تعنيه بالضبط.

- إنك تحاولين أن تكوني حذرة، ولك كل الحق في ذلك.

- لقد جعلتُ من ذلك عادة لي.

- أن تكوني حذرة؟

- لا أريد أن أقول ذلك بالضبط، لكني جعلت دأبي أن أكون مستعدة دائماً لتصديق أو عدم تصديق أي شيء يُقال لي.

- نعم، وأنت محقة في ذلك تماماً. أنت لا تعرفين أي شيء عني، تعرفين اسمي من قائمة الركاب الخاصة برحلة عادية تزور القلاع والبيوت التاريخية والحدائق الرائعة... أظن أن الحدائق هي أكثر ما يثير اهتمامك؟

- ربما.

- يوجد هنا أناس آخرون مهتمون بالحدائق أيضاً.

- أو يتظاهرون بالاهتمام بالحدائق.

قال البروفسور وانستيد: آه، لقد لاحظت ذلك إذن؟ ثم أكمل يقول: كان دوري (في البداية على الأقل) أن أقوم بملاحظتك ومراقبة ما تفعلينه وأن أكون قريباً منك في حال وقوع أي حادث قذر مهما كان، لكن الأمور تغيرت قليلاً الآن... يجب أن تقرري إن كنتُ عدواً لك أو حليفاً.

قالت الآنسة ماربل: ربما تكون على حق. لقد أوضحت لي الأمر تماماً، ولكنك لم تقدم لي معلومات عنك -بعد- حتى أحكم عليك. أظن أنك كنت صديقاً للسيد رافائيل؟

- لا، لم أكن صديقاً للسيد رافائيل. لقد التقيته مرة واحدة أو مرتين فقط؛ مرة في اجتماع لجنة إحدى المستشفيات ومرة في مناسبة عامة أخرى. كنت أعرف عنه، وأظن أنه كان يعرف عني أيضاً. إن قلت لك -يا آنسة ماربل- إنني رجل بارز في مهنتي فلربما ظننتِ أنني رجل مغرور.

قالت الآنسة ماربل: لا أظن ذلك، ما دمت تقول هذا عن نفسك فأظن أنك تقول الحقيقة. ربما تكون طبيباً.

- آه، أنت حادة الملاحظة يا آنسة ماربل. نعم، إنك حادة الملاحظة. أنا أحمل شهادة في الطب، ولكنني متخصص أيضاً. إنني أخصائي في علم الأمراض والتشريح وطبيب نفساني أيضاً. وأنا لا أحمل معي أوراقاً ثبوتية هنا، لذلك ربما كنت مضطرة لقبول كلامي على ظاهره إلى حد ما، رغم أنني أستطيع أن أريك رسائل موجهة لي وربما مستندات رسمية قد تقنعك. إنني أتولى -بشكل رئيسي- عملاً خاصاً له صلة بالطب الشرعي، وحتى أوضح الأمر لك بلغة مفهومة وبسيطة فإنني مهتم بالأنواع المختلفة للعقل الإجرامي. إنني أدرس

هذا الموضوع منذ عدة سنوات، وقد ألّفت كتباً في هذا الموضوع أثار بعضها جدلاً عنيفاً، فيما وجد بعضها من يتبنّى أفكاري ويتحمس لها. إنني لا أقوم هذه الأيام بعمل جاد كبير، بل أقضي وقتي في الكتابة عن موضوعي مؤكداً على نقاط معينة خطرت لي، وأحياناً أصادف بعض الأمور التي أرى أنها مثيرة، وهي أمور أريد دراستها عن قرب أكثر. أخشى أن هذا يبدو لك عملاً مضجراً؟

قالت الآنسة ماربل: أبداً، ربما تستطيع -مما تقوله الآن- أن تشرح لي أموراً معينة رأى السيد رافائيل أن من غير المناسب شرحها لي. لقد طلب مني مباشرة مشروع معين لكنه لم يعطِني معلومات مفيدة أعمل على أساسها. وترك لي قبول هذا التكليف أو رفضه، مع أنني أجهل كل شيء. وقد بدا لي أن معالجته للأمر بهذه الطريقة أمر بالغ الحماقة.

- لكنك قبلته، أليس كذلك؟

- بلى، قبلته. سأكون صادقة معك تماماً؛ لديّ حافز مالي.

- وهل لهذا أهمية عندك؟

سكتت الآنسة ماربل لحظة ثم قالت ببطء: قد لا تصدق ذلك، لكن ردي على هذا هو أنه لا يهمني حقيقة.

- لم يفاجئني جوابك هذا، ولكن ما تريدين قوله هو أن اهتمامك قد تضاعف نتيجة المكافأة.

- نعم، لقد زاد اهتمامي. لم أعرف السيد رافائيل معرفة جيدة وإنما عرضية لفترة محددة من الزمن، والواقع أنها بضع أسابيع فقط...

في جزر الهند الغربية. أرى أنك تعلم عن هذا الأمر قليلاً أو كثيراً.

- أعرف أنك التقيت بالسيد رافائيل هناك حيث تعاونتما معاً.

نظرت الآنسة ماربل إليه بارتياب، ثم قالت: آه، هل قال لك هذا؟

ثم هزّت رأسها أسفاً. قال البروفسور وانستيد: نعم، قال لي. قال لي إن لك موهبة بارزة في الأمور الجنائية.

رفعت الآنسة ماربل حاجبيها دهشة وهي تنظر إليه، قالت: أظن أن ذلك يبدو لك بعيد الاحتمال، أرى أنه قد فاجأك.

- نادراً ما أسمح لنفسي بأن أُفاجَأ بما يحدث. كان السيد رافائيل ذكياً جداً وداهية وذا حكم صائب على الناس، وكان يرى أنك أنت أيضاً ذات حكم صائب على الناس.

- أنا لا أعتبر نفسي جيدة في الحكم على الناس، إنما أقول إن بعض الناس يذكّرني ببعض الناس الآخرين الذين عرفتهم، ولذلك أستطيع أن أفترض مسبقاً وجود تشابه معين في الطريقة التي يتصرفون فيها. إن كنت تعتقد بأنني أعرف كل شيء عن السبب الذي يفترض أنني هنا من أجله فأنت مخطئ.

- يبدو أننا جلسنا هنا -مصادفة أكثر منها تدبيراً- في مكان مناسب نستطيع فيه مناقشة أمور معينة. لا يبدو أن أحداً يراقبنا ولا يمكن لأحد أن يتنصّت علينا بسهولة ولسنا قريبين من نافذة أو باب ولا توجد أية شرفة أو نافذة فوقنا... الواقع أننا نستطيع أن نتحدث.

قالت الآنسة ماربل: سيسعدني ذلك، إنني أؤكد على حقيقة أنني أجهل تماماً ما أقوم به أو ما يُفتَرَض أنني أقوم به... لا أعرف لماذا أراد السيد رافائيل أن تجري الأمور بمثل هذا الأسلوب.

- أظن أنني أستطيع تخمين السبب. لقد أرادك أن تتناولي مجموعة محددة من الحقائق والأحداث دون أن تتأثري بأقوال الناس أولاً.

بدت الآنسة ماربل غاضبة وقالت: أي أنك لن تخبرني شيئاً أنت أيضاً؟ عجباً! إن لكل شيء حداً.

- نعم.

قالها البروفسور وانستيد، ثم ابتسم فجأة قائلاً: أوافقك الرأي؛ يجب أن نزيل بعض هذه الحدود. سأخبرك بحقائق محددة توضح لك الأمور بشكل جيد، وأنت بدورك قد تستطيعين إخباري بحقائق معينة.

قالت الآنسة ماربل: أشك في ذلك، ربما كانت عندي بعض المؤشرات الغريبة نوعاً ما، ولكن المؤشرات ليست حقائق.

قال البروفسور وانستيد: ولذلك...

ثم سكت، فقالت الآنسة ماربل: بالله عليك، أخبرني شيئاً ما!

* * *

الفصل الثاني عشر
استشارة

قال البروفسور وانستيد: لن أجعل من الأمر قصة طويلة؛ سأشرح لك -ببساطة- كيف دخلت في هذا الأمر. إنني أعمل مستشاراً سرياً لوزارة الداخلية من وقت لآخر، كما أنني على اتصال بمؤسسات معينة. توجد بعض المؤسسات التي تقدّم في حالة حدوث جريمة المأوى والإقامة لنوع من المجرمين الذين تتم إدانتهم بأعمال معينة، إنهم يبقون في تلك المؤسسات تحت ما يسمى «أمر صاحبة الجلالة الملكة» لفترات محددة من الزمن، وأحياناً حسب أعمارهم. وإذا كانوا دون سن معينة فيجب استقبالهم في مكان محدد يتم احتجازهم فيه... لا شك أنك تفهمين هذا.

- نعم، أفهم ما تقصده تماماً.

- في العادة يتم استشارتي فور وقوع جريمة حتى أحكم على بعض الأمور، كأسلوب التعامل والاحتمالات الموجودة في القضية وما يمكن أن يحدث... وهي أمور لا تهم كثيراً ولذلك فلن أطيل فيها. كما تتم استشارتي أيضاً من وقت لآخر من قبل مسؤولي هذه

المؤسسات من أجل غرض معين. في هذه المسألة تلقيت بلاغاً من دائرة معينة وصلت إليّ عن طريق وزارة الداخلية، فذهبت لزيارة رئيس هذه المؤسسة. والواقع أنه الحاكم المسؤول عن السجون أو المرضى... سمِّهم ما شئتِ من تسميات. وقد كان صديقاً لي، صديقاً منذ فترة طويلة رغم أنه لم تكن تربطني به علاقة حميمة جداً. ذهبت إلى تلك المؤسسة ووضع الحاكم مشكلته أمامي. كانت مشكلة تتعلق بنزيل ما، ولم يكن الحاكم مقتنعاً بأمر هذا النزيل، بل كانت تراوده بعض الشكوك. كانت تلك قضية نزيل شاب أو نزيل كان شاباً، وفي الواقع أنه كان أقرب إلى صبي عندما جاء إلى تلك المؤسسة. كان ذلك منذ عدة سنوات، ومضت السنون بعد ذلك، وبعد أن تولى الحاكم الحالي عمله الجديد هناك شعر بالقلق (وهو لم يكن موجوداً حين أدخل ذلك النزيل السجن). لم يكن قلقه ناتجاً عن كونه مِهَنياً محترفاً، بل لأنه رجل ذو خبرة بالمرضى والسجناء المجرمين. وحتى أبسّط لك الأمور أكثر: كان ذلك النزيل صبياً ذا ماض غير مُرضٍ أبداً، يمكنك أن تسميه ما شئت: حدث جانح أو منحرف صغير أو صبي شرير أو شخص غير مسؤول... هناك كثير من المصطلحات، بعضها ينطبق عليه وبعضها لا ينطبق. كان من النوع الإجرامي، وهو أمر مؤكد. لقد انضم إلى عصابات وقام بضرب أناس وكان لصاً سرق واختلس وشارك في أعمال نصب واحتيال... لقد كان ذلك الصبي -باختصار- مصدر يأس أبيه.

قالت الآنسة ماربل: آه، فهمت.

- وماذا فهمت يا آنسة ماربل؟

- أظنك تتحدث عن ابن السيد رافائيل.

- أنت على حق تماماً؛ إنني أتكلم عن ابن السيد رافائيل. ما الذي تعرفينه عنه؟

- لا شيء، لقد سمعت بالأمس فقط أن للسيد رافائيل ولداً جانحاً أو غير مُرضٍ، إذا ما أردنا تخفيف وقع الكلمة. كان ولداً ذا سجل إجرامي، وقد عرفت عنه القليل جداً. هل كان ابن السيد رافائيل الوحيد؟

- نعم، كان الابن الوحيد للسيد رافائيل، لكن كانت للسيد رافائيل ابنتان غيره، إحداهما ماتت وهي في الرابعة عشرة من عمرها والكبرى تزوجت لكنها لم ترزق بأطفال.

- هذا محزن جداً له.

قال البروفسور وانستيد: ربما، مَن يدري؟ لقد توفيت زوجته وهي صغيرة، وأظن أن وفاتها قد سببت له حزناً بليغاً على الرغم من أنه لم يكن مستعداً أبداً لإظهار ذلك. لا أعرف إلى أي مدى كان مهتماً بابنه وابنتيه. كان يعيلهم، وقد بذل جهده من أجلهم، بذل ما في وسعه من أجل ابنه لكننا لا نعرف حقيقة مشاعره. لم يكن من السهل معرفة مشاعره، وأظن أن عمله وجمع المال كانا محور حياته واهتماماته. كان جمع المال والعمل له هو ما يهمه وليس المال بحد ذاته، كان يستمتع بجمع المال ويحبه، ولم يكن يفكر بالكثير من الأمور الأخرى.

أظن أنه فعل كل ما استطاعه من أجل ابنه؛ لقد أنقذه من المآزق والورطات التي وقع فيها عندما كان في المدرسة واستخدم أفضل المحامين لتخليصه من المحاكم عندما كان ذلك ممكناً، لكن الضربة

النهائية جاءت، وربما كانت أحداثٌ قبلها قد أنذرت بوقوعها. أُخذ الصبي إلى المحكمة بتهمة الاعتداء على فتاة صغيرة، وقيل إنه كان اعتداء واغتصاباً، وظل مدة في ذلك السجن رغم الرأفة التي عومل بها بسبب صغر سنّه، ولكن بعد ذلك أدين بتهمة أخرى خطيرة فعلاً.

قالت الآنسة ماربل: قَتَل فتاة، أليس هذا صحيحاً؟ هذا ما سمعته.

- لقد استدرج فتاة للخروج معه بعيداً عن بيتها، وقد وجدوا جثتها بعد وقت طويل. كانت مخنوقة وقد شُوِّه وجهها واختفت ملامحه بسبب ضربه بأحجار كبيرة، وربما كان ذلك حتى لا يتعرف أحدٌ على هويتها.

قالت الآنسة ماربل باللهجة التي تستخدمها العجائز إزاء مثل هذه الفظائع: لم يكن ذلك عملاً لطيفاً.

نظر البروفسور وانستيد إليها بعض الوقت ثم قال: هكذا تصفين الحادث؟

- هذا ما يبدو لي. لا أحب مثل هذه الجرائم، ولم أحبها أبداً. إن كنت تتوقع مني أن أشعر بالتعاطف والأسف وأنسب الأمر إلى الطفولة البائسة وألوم البيئة السيئة، وإن كنت تتوقع مني أن أبكي عليه فإنني لا أميل إلى الشعور بمثل هذه الأمور تجاه هذا القاتل الصغير. أنا لا أحب الأشرار الذين يقومون بالأعمال الشريرة.

قال البروفسور وانستيد: بل أنا مسرور لسماع هذا. لا يمكنك أن تصدقي ما أعانيه في عملي من أناس ينتحبون ويَصرّون بأسنانهم

وينسبون كل شيء إلى أمور حدثت في الماضي. لو علم الناس بالبيئة السيئة التي عاش فيها الناس والقسوة والمصاعب التي واجهتهم في حياتهم وحقيقة أنهم مع ذلك خرجوا من تجاربهم مستقيمين شرفاء لما تبنوا وجهة النظر المضادة تلك! إن الحاكم رجل خبير، وقد أخبرني بالضبط لماذا هو مهتم كثيراً بمعرفة حكمي.

- وماذا حصل بعد ذلك؟

- شعر الحاكم بصورة متزايدة من خلال خبرته ومشاهدته لهذا السجين بالذات بأن الولد لم يكن قاتلاً. لم يرَ فيه نمط القاتل، ولم يكن يشبه أي قاتل رآه من قبل. كان يرى أن الولد مجرم لا يمكن إصلاحه مهما أعطي له من علاج وأنه لن يصلح نفسه أبداً وأنه لا يمكن عمل شيء له، لكنه شعر -في الوقت ذاته- شعوراً متزايداً بأن الحكم الذي صدر على الصبي كان حكماً خاطئاً. لم يصدق أن الولد قد قتل فتاة، أنه خنقها أولاً ثم شوّهَ معالم وجهها بعد أن ألقى بجثتها في حفرة! إنه لم يستطيع إقناع نفسه بتصديق ذلك، وراجع مراراً حقائق القضية التي كانت تبدو ثابتة ومؤكدة؛ فقد عرف الولد تلك الفتاة وشوهد معها في مناسبات مختلفة قبل وقوع الجريمة، وقد شوهدت سيارته في منطقة قريبة وهو نفسه تم التعرف عليه. كانت قضية واضحة تماماً، لكن صديقي لم يكن راضياً عنها كما قال. كان رجلاً ذا حس قوي جداً بالعدل، وكان يريد رأياً مختلفاً. لم يكن ما أراده -في الواقع- هو رأي الشرطة الذي كان يعرفه، وإنما وجهة نظر طبية مهنية، وقال لي إن ذلك هو مجال اختصاصي. أرادني أن أرى هذا الشاب وأتحدث معه وأزوره وأقوم بدراسة عملية لتقييم حالته لكي أعطيه بعد ذلك رأيي بالأمر.

قالت الآنسة ماربل: هذا مثير جداً. نعم، أعتبره مثيراً جداً. فصديقك... أقصد الحاكم... كان رجلاً خبيراً، رجلاً يحب العدالة. إنه رجل يرغب الإنسان في الاستماع إليه، وإذن فيُفترض أنك قد أصغيت له؟

- نعم، كنت شديد الاهتمام. رأيت النزيل مادة الدراسة كما سأسميه، وقد دخلت إليه من مداخل وزوايا مختلفة عديدة؛ تحدثت معه وناقشت معه التغيرات الكثيرة المحتمَل أن تحدث في القانون. قلت له إن من الممكن إحضار محام ليرى النقاط التي يمكن أن تكون موجودة لصالحه، إلخ. ذهبت إليه بصورة صديق ثم ذهبت إليه بصورة عدو لأرى كيف سيكون ردّ فعله نحو هذه المداخل المختلفة، كما قمت أيضاً بعمل الكثير من الاختبارات الجسدية التي نستخدمها كثيراً هذه الأيام. ولن أناقش هذه الأمور معك لأنها فنية صرفة.

- وما الذي توصلت إليه في النهاية؟

- لقد رأيت... رأيت أن المرجَّح هو أن صديقي على حق؛ لم أرَ مايكل رافائيل قاتلاً.

- وماذا عن القضية الأولى التي ذكرتها؟

- كانت تدينه بالطبع. ليس في ذهن المحلفين لأنهم لم يسمعوا عنها إلاّ بعد أن استعرض القاضي الأدلة، ولكن تلك السابقة أدانته في ذهن القاضي بالتأكيد. كانت القضية تدينه، ولكني قمت ببعض التحقيقات والاستفسارات بعد ذلك. لقد اعتدى على فتاة ولكنه لم يحاول خنقها، وأظن -مما شاهدته في المحاكم كثيراً- أن من غير المحتمَل وجود قضية اعتداء واضحة ضده أصلاً؛ فقد كان للفتاة

موضوع الحديث عدة أصدقاء من الشباب ممّن ذهبوا بعلاقتهم معها إلى أبعد من الصداقة البريئة، ولم أرَ أن تلك العلاقة تعتبر دليلاً يدينه. أما قضية القتل الفعلية (وقد كانت فعلاً قضية قتل لا شك فيها) فقد بقيت أشعر -نتيجة لكل الفحوصات، الفحوصات الجسدية والنفسية والعقلية- بأن أياً منها لا يمكن أن يتطابق مع هذه الجريمة بالذات.

- وماذا فعلت بعدها؟

- اتصلت بالسيد رافائيل وأخبرته بأنني أريد لقاءه بخصوص مسألة معينة تتعلق بابنه. ذهبت إليه، وأخبرته بما كنت أعتقده وبرأي الحاكم وبأنه ليس لدينا دليل وأنه لا توجد أسباب تبرر طلب استئناف الحكم في الوقت الحالي، ولكني أخبرته أننا نعتقد أن خطأ في الحكم قد حدث. قلت له إن من الممكن إجراء تحقيق وقد يكون ذلك عملاً مكلفاً، وقد يُظهر حقائقَ محددة يمكن وضعها أمام وزارة الداخلية، وقد تكون ناجحة وقد لا تكون. قد يوجد شيء ما؛ دليل ما لمن يبحث عنه. قلت إن البحث عنه قد يكون مكلفاً، ولكني أظن أن ذلك لا يهم رجلاً في مثل وضعه. كنت قد أدركت -وقتها- أنه رجل مريض، مريض جداً. هو أخبرني بذلك بنفسه، لقد أخبرني بأنه كان يفترض أن يموت منذ فترة وأن الأطباء حذروه قبل عامين بأنه قد يواجه الموت بعد سنة، لكنهم أدركوا بعد ذلك أنه قد يعيش فترة أطول بسبب قوته الجسدية غير العادية. وسألته عن شعوره نحو ولده.

- وماذا كان شعوره تجاه ولده؟

- آه، تريدين معرفة ذلك؟ هذا ما أردته أنا أيضاً، أظن أنه كان صادقاً معي إلى أبعد حد بالرغم...

قالت الآنسة ماربل: بالرغم من قسوته، أليس كذلك.

- بلى يا آنسة ماربل، أنت تستخدمين الكلمة الصحيحة؛ كان رجلاً قاسياً، لكنه كان عادلاً وصادقاً. قال: لقد عرفت حقيقة ابني منذ سنوات عديدة. لم أحاول تغييره لأنني لا أرى أن بإمكان أي شخص تغييره، إنه من جِبلّة سيئة، إنه منحرف وسيء وسوف يقع في المشكلات دائماً. إنه غير مستقيم ولا أحد يستطيع تقويمه، أنا واثق من هذا تماماً. ولقد غسلت يدي منه رغم أنني لم أتخلّ عنه قانونياً أو ظاهرياً، فقد كان يحصل على المال عندما يطلبه ويحصل على المساعدة القانونية وغير القانونية عندما يقع في مشكلة. لقد عملت دائماً كل ما أستطيعه نحوه. لو كان لي ابن مشلول أو مريض أو مصاب بالصرع فإنني سأعمل كل ما أستطيع من أجله، ولو كان لك ابن مريض بمرض أخلاقي مثلاً ولا يرجى منه شفاء فإنك ستفعل أيضاً ما تستطيعه من أجله، لا أكثر ولا أقل. ما الذي أستطيعه الآن من أجله؟

وقلت له إن ذلك يعتمد على ما يريد عمله، فقال: لا توجد مشكلة في هذا؛ أنا رجل مقعَد ولكني أعرف ما أريد عمله تماماً، أريد إثبات براءته، أريد إطلاق سراحه من السجن. أريده حراً ليواصل حياته بأفضل ما يستطيع. لو أن رجلاً آخر هو الذي قتل تلك الفتاة فإنني أريد إظهار هذه الحقيقة، أريد العدالة لمايكل، لكنني رجل مقعَد عاجز. إنني مريض جداً وعمري الآن لا يقاس بالسنوات أو الشهور ولكن بالأسابيع.

وقلت له إنني أعرف مكتب محامين فقاطعني قائلاً: محاموك سيكونون عديمي الفائدة. يمكنك أن تكلفهم بالأمر، ولكنهم لن

يفيدوك. يجب أن أرتّب ما يمكنني ترتيبه في مثل هذا الوقت الضيق.

ثم عرض عليّ مكافأة كبيرة لأتولى البحث عن الحقيقة وأقوم بأي عمل ممكن دون الالتفات إلى النفقات. وقال: "لن أستطيع عمل شيء، فالموت قد يأتيني في أية لحظة. إنني أكلفك كمساعد لي في هذا العمل وسأحاول العثور على شخص لمساعدتك". ثم كتب لي اسماً على ورقة، الآنسة جين ماربل، وقال: "لن أعطيك عنوانها، أريدك أن تقابلها في منطقة أختارها أنا". ثم أخبرني بعدها عن هذه الرحلة، هذه الرحلة الجذابة الرائعة البريئة إلى البيوت التاريخية والقلاع والحدائق، وقال إنه سيحجز لي فيها مقدَّماً بتاريخ محدد، وقال: ستكون الآنسة جين ماربل في تلك الرحلة أيضاً، وسوف تقابلها هناك. ستقابلها بطريقة عرَضية، ولذلك سيبدو واضحاً للجميع أن لقاءكما كان عرضياً.

وكان عليّ أن أختار بنفسي التوقيت المناسب لأعرّفك بنفسي إن رأيت أن هذه هي أفضل طريقة. لقد سألتِني إن كان لديّ -أنا أو صديقي الحاكم- أي سبب يدعو للشك في شخص أو معرفة شخص آخر قد يكون مسؤولاً عن هذه الجريمة. إن صديقي الحاكم لم يقل شيئاً من هذا بالتأكيد، وقد درس هذه المسألة مع ضابط الشرطة الذي كان يتولى التحقيق في القضية. وكان ذلك الضابط مفتشاً قديراً جداً ذا خبرة طويلة وجيدة في هذه الأمور.

- ألم يُطرَح اسم أي رجل آخر؟ صديق آخر من أصدقاء الفتاة؟ صديق سابق للفتاة تم استبداله بصديق جديد؟

- لم يُطرح أي أمر من هذا القبيل. وطلبت منه أن يخبرني عنك

قليلاً لكنه لم يوافق على ذلك، فقط أخبرني أنك كبيرة بالسن وقال لي إنكِ امرأة ذات دراية بالناس. لكنه أخبرني شيئاً آخر...

سكت، فقالت الآنسة ماربل: ما هو هذا الشيء؟ إن لديّ شيئاً من الفضول الفطري لكني لا أستطيع رؤية أية ميزة أخرى عندي. إن سمعي ثقيل ونظري ليس قوياً كما كان، والواقع أنني لا أجد في نفسي أي ميزات باستثناء أنني قد أبدو حمقاء وساذجة وثرثارة... وربما كنت عجوزاً ثرثارة بالفعل. هل هذا ما قاله؟

- لا، لقد قال إن لديك حاسة مرهفة جداً في إدراك الشر.

- آه.

فوجئت الآنسة ماربل، وكان البروفسور وانستيد يراقبها. قال: هل هذا صحيح؟

سكتت الآنسة ماربل فترة طويلة تماماً، ثم قالت: ربما كان الأمر كذلك. نعم، ربما. لقد أحسست بوجود الشر في أوقات مختلفة عديدة من حياتي، كنت أدرك أن هناك شراً في منطقتي ومحيطي، أن البيئة المحيطة بشخص شرير ما قربي ذات علاقة بما يحدث من أمور.

نظرت إليه وابتسمت، ثم قالت: إن ذلك أشبه بمَن يولد وله حاسة شم قوية. يمكنك أن تشم رائحة غاز متسرب عندما لا يستطيع الآخرون ذلك، تستطيع أن تميز عطراً عن آخر بسهولة... كانت لي عمة تقول إنها تستطيع أن تشم الكذبة عندما يرويها الناس، وقالت إن رائحة مميزة تصلها آنذاك، إذ تتشنج أنوف الكاذبين ثم تأتي الرائحة! لا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا، لكنها لفتت النظر إليها في أكثر

من مرة. قالت لعمي ذات مرة: "لا تشغّل -يا جاك- ذلك الشاب الذي كنت تتحدث معه هذا الصباح، لقد كان يكذب عليك طوال حديثه"، وقد اتضح أن ما قالته كان صحيحاً.

قال البروفسور وانستيد: إحساس بالشر... إن كنت تحسين بالشر فأخبريني، سأكون مسروراً لو عرفت. لا أظن أن لديّ إحساساً خاصاً بالشر، ربما كان لديّ إحساس بالمرض لدى الناس أما الشرّ هنا فلا أستطيع إدراكه.

نقر على رأسه وهو يشير إلى مكمن الشر، وقالت الآنسة ماربل: من الأفضل أن أخبرك الآن باختصار كيف دخلت في هذا الأمر، فقد توفي السيد رافائيل كما تعلم، وطلب مني محاميه أن أذهب لمقابلته حيث أبلغني بعرضه. تلقيت رسالة منه لم تشرح أي شيء، وبعد ذلك مرّت مدة لم يصلني خلالها شيء، ثم تلقيت رسالة من الشركة التي تدير هذه الرحلات تقول إن السيد رافائيل قد حجز لي قبل وفاته في هذه الرحلة لأنه يعرف حبي لمثل هذه الرحلات وإنه كان يريد أن يفاجئني بها هدية. لقد ذُهلت كثيراً لكني اعتبرتها مؤشراً للخطوة الأولى التي كان عليّ القيام بها؛ كان عليّ أن أذهب في هذه الرحلة وكان يُفترَض أن أعرف في أثنائها مؤشراً آخر أو تلميحاً أو مفتاحاً أو توجيهاً لحل اللغز. وأظن أن ذلك ما حصل بالأمس، لا، بل في اليوم الذي قبله؛ استقبلتني عند وصولي إلى هنا ثلاث سيدات يعشن في بيت عزبة قديمة هنا وقدمن لي دعوة للإقامة معهن، وقلن إن السيد رافائيل كتب لهن رسالة قبل وفاته بمدة يقول فيها إن امرأة مسنّة صديقة له ستحضر في هذه الرحلة. وطلب منهن استضافتي يومين أو ثلاثة أيام لأنني -كما قال- لا أستطيع تحمل مشاق تسلق هذه

المرتفعات الصخرية العالية هنا حيث يوجد في القمة برج تذكاري وهو الهدف الرئيسي لرحلة الأمس.

- وهل أخذت هذا أيضاً مؤشراً على ما كان عليك فعله؟

قالت الآنسة ماربل: بالطبع، فلا يوجد سبب آخر للدعوة. لم يكن ممّن يوزعون الهبات والمنافع بلا مقابل، وليس الموضوع شفقة على عجوز لا تستطيع تسلق المرتفعات. لا، لقد أرادني أن أذهب إلى هناك.

- هل ذهبت إلى هناك؟ إذن ماذا حدث؟

- لا شيء... أخوات ثلاث.

- ثلاث أخوات غريبات الأطوار؟

- كان يُفترض أن يَكُنّ كذلك، ولكني لم أرَهُنّ على ذلك النحو. لم يكن ذلك بادياً عليهن على أية حال. لا أعرف حتى الآن، أظن أنهن قد يكنّ كذلك... ربما. بدا أنهنّ نساء عاديات، إنهن لا يشعرن بالانتماء لذلك البيت الذي كان ملكاً لعمهن ثم جئن إليه للعيش فيه قبل سنوات، وهن بحالة مادية سيئة بعض الشيء. إنهن لطيفات ودودات لا يُثرن اهتماماً خاصاً، إلاّ أنهن مختلفات قليلاً بعضهن عن بعض. لا يبدو أنهن كن يعرفن السيد رافائيل جيداً، ولم يبدُ أن أياً من أحاديثي معهن قد جاء بنتيجة.

- إذن لم تعرفي شيئاً في أثناء إقامتك؟

- عرفت حقائق القضية التي أخبرتني عنها قبل قليل. ليس منهن، بل من خادمة عجوز بدأت تحدثني عن ذكرياتها من زمن

عمّهن. كانت تعرف السيد رافائيل بالاسم فقط، لكنها كانت فصيحة في سرد وقائع الجريمة: بدأ كل شيء بزيارة ذلك الابن السيء للسيد رافائيل إلى ذلك البيت، وذكرت كيف أن الفتاة وقعت في حبه وأنه قتلها خنقاً، وكيف أن الحادث كان رهيباً ومحزناً ومأساوياً. كانت مليئة بالمبالغات لكنها قصة بغيضة، ويبدو أنها ترى أن وجهة نظر الشرطة كانت تقول إن هذه لم تكن جريمة القتل الوحيدة التي ارتكبها...

- وهل ظهر لك ما يربط بين الأخوات الثلاث وبين الجريمة؟

- لا، باستثناء أنهن كن القيّمات على الفتاة وكن يحببنها كثيراً، ليس أكثر من هذا.

- ربما يعرفن شيئاً ما... شيئاً عن رجل آخر؟

- نعم، هذا ما نريده، أليس كذلك؟ الرجل الآخر... رجل وحشي لا يتردد في تهشيم رأس فتاة بعد أن يقتلها، رجل يمكن أن يصبح مسعوراً بسبب الغيرة... يوجد رجال من هذا النوع.

- ألم تحدث أشياء أخرى ملفتة للنظر في بيت العزبة القديمة؟

- لا شيء يستحق الذكر. واحدة من الأخوات (أظن أنها أصغرهن) ظلت تتحدث عن الحديقة، بدت وكأنها بستانية ماهرة جداً، ولكنها لم تكن كذلك لأنها لم تعرف أسماء كثير من الأشجار والأزهار، وقد وضعت لها فخاً أو أكثر حيث ذكرت بعض الأشجار النادرة وسألتها إن كانت تعرفها، وقد أجابت بالإيجاب وقالت إنها

نباتات رائعة. وقلت لها إنها لا تتحمل ظروف الجو القاسية فوافقتني، لكنها لم تكن تعرف أي شيء عن النباتات. إن هذا يذكرني...

- يذكرك بماذا؟

- قد تظن أنني امرأة سخيفة في تعلُّقي بالحدائق والنباتات، لكني أريد القول إنني أعرف أشياء عنها، أقصد أنني أعرف أشياء حول الطيور وأعرف بعض الأشياء عن الحدائق.

- أظن أن الحدائق هي ما يشغلك وليس الطيور.

- نعم، هل لاحظت امرأتين في أواسط عمريهما في هذه الرحلة؛ الآنسة بارو والآنسة كوك؟

- نعم، لقد لاحظتهما؛ عانستان في وسط العمر مسافرتان معاً.

- هذا صحيح، لقد اكتشفت شيئاً غريباً يخص الآنسة كوك. هذا هو اسمها، أليس كذلك؟ أقصد أنه اسمها في الرحلة.

- وهل لها اسم آخر؟

- أظن ذلك. إنها المرأة ذاتها التي زارتني... لا أعني أنها زارتني فعلاً لكنها كانت خارج حديقة منزلي في سينت ميري ميد، القرية التي أعيش فيها. وقد عبّرت عن سرورها وإعجابها بالحديقة وتحدثت معي حول تنسيق الحدائق، وقالت لي إنها كانت تعيش في القرية وتعمل في حديقة امرأة انتقلت إلى بيت جديد هناك. أظن... نعم، أظن أن كل ذلك كان كذباً؛ فهي الأخرى لم تكن تعرف عن الحدائق شيئاً، كانت تتظاهر بذلك لكنه لم يكن صحيحاً.

- وما هو سبب قدومها إلى هناك بظنك؟

- لم أعرف في ذلك الوقت. قالت إن اسمها هو بارتليت، وكان اسم المرأة التي كانت تعيش معها يبدأ بحرف الهاء (مع أنني لا أستطيع تذكّره في الوقت الحالي). لم تكن تسريحة شعرها هي المختلفة فقط وإنما اختلف لون شعرها أيضاً، وأسلوب لبسها مختلف. لم أعرفها عندما رأيتها في هذا الرحلة أول مرة، إنما تساءلت فقط عن وجهها الذي كان مألوفاً لي بعض الشيء. ثم أدركت فجأة أنني لم أميزها بسبب صبغة شعرها، وتساءلتُ: أين رأيتها من قبل؟ وقد اعترفَت لي بأنها كانت هناك، لكنها تظاهرت بأنها هي الأخرى لم تعرفني... كله كذب.

- وما هو رأيك بذلك كله؟

- أعرف شيئاً واحداً بالتأكيد... لقد جاءت الآنسة كوك (نريد أن نسميها باسمها الحالي) إلى سينت ميري ميد لمشاهدتي، حتى تتأكد من قدرتها على تمييزي عندما نلتقي ثانية.

- وما هي ضرورة ذلك؟

- لا أعرف. إن لذلك احتمالين، ولا أظنني أرتاح لأي منهما.

قال البروفسور وانستيد: وأنا أيضاً لا أحب أياً منهما.

سكتنا لبعض الوقت، ثم قال البروفسور وانستيد: لست مرتاحاً لما حدث لإليزابيث تيمبل. هل تحدثت معها في أثناء هذه الرحلة؟

- نعم، تحدثت. وعندما تتحسن حالتها سأتحدث معها ثانية، يمكنها أن تخبرني... تخبرنا... أشياء عن الفتاة التي قُتلت. لقد تحدثت

معي عن هذه الفتاة التي كانت في مدرستها والتي كانت ستتزوج ابن السيد رافائيل... لكنها لم تتزوجه، فقد ماتت بدلاً من ذلك! وسألتها كيف ماتت أو لماذا، فأجابتني بكلمة واحدة فقط: «الحب»! وفهمت المعنى على أنه انتحار، لكنه كان جريمة قتل. ربما كان القتل بدافع الغيرة مناسباً لهذه الجريمة. إنه رجل آخر، رجل آخر علينا أن نعثر عليه، وقد تستطيع الآنسة تيمبل أن تخبرنا من هو.

- ألا توجد أي احتمالات أخرى تنذر بالشر؟

- أظن أن ما نحتاجه حقاً هو مجرد معلومات عرضية. لا أرى سبباً يدعو للاعتقاد بوجود أي دافع شرير بين أي من ركاب الحافلة أو أي دافع شرير بين الساكنات في بيت العزبة القديمة، ولكن ربما كانت واحدة من الأخوات الثلاث تعرف أو تتذكر شيئاً مما قالته تلك الفتاة أو مما قاله مايكل ذات مرة. اعتادت كلوتيلد على أخذ الفتاة في رحلات خارج البلاد، لذلك قد تعرف شيئاً حدث في إحدى الرحلات الخارجية، شيء قالته الفتاة أو ذكرته أو فعلته في واحده من هذه الرحلات... رجل معين التقته تلك الفتاة، شيء ليست له علاقة ببيت العزبة القديمة هنا... إنه أمر صعب لأنك لا تستطيع الوصول إلى مفتاح لحل اللغز إلاّ بواسطة الحديث أو المعلومات العرَضية فقط. أما الشقيقة الثانية، السيدة غلين، فقد تزوجت في سن مبكر تماماً وقضت زمناً طويلاً في الهند وإفريقيا. ربما سمعت شيئاً من خلال زوجها أو أقارب زوجها أو من خلال أشياء مختلفة ليس لها صلة ببيت العزبة القديمة (رغم أنها كانت تزوره من وقت لآخر). ويفترض أنها كانت تعرف القتيلة، ولكني أظن أن معرفتها بالفتاة لم تبلغ مستوى معرفة أختيها، لكن هذا لا يعني أنها قد لا تعرف بعض الحقائق المهمة عن الفتاة. الأخت الثالثة مشوّشة التفكير وأكثر التصاقاً

بروح المنطقة وطبيعتها من أختيها، ولا يبدو أنها كانت تعرف الفتاة جيداً. ومع ذلك فقد تملك هي الأخرى معلومات عن وجود أصدقاء محتمَلين للفتاة... أو أن تكون قد رأت الفتاة مع رجل مجهول. ها هي -بالمناسبة- تمرّ من أمام الفندق الآن.

إن الآنسة ماربل -رغم انشغالها بالحديث مع الرجل- لم تستطع التخلي عن عادات لزمتها طوال حياتها، فقد كان جلوسها في مكان مطل على شارع عام يُعتبَر دوماً نقطة مراقبة يخضع فيه المارة لرقابة آلية لا تخطئ، سواء أكانوا مسرعين أم متمهّلين.

- إنها آنثيا سكوت، تلك التي تحمل الكيس الكبير. أظن أنها ذاهبة إلى مكتب البريد. إنه عند الزاوية، أليس كذلك؟

قال البروفسور وانستيد: تبدو لي معتوهة قليلاً، بكل هذا الشعر الهائم... شعر رمادي أيضاً. إنها أشبه بأوفيليا شكسبير ولكن في الخمسين من عمرها.

- أنا أيضاً فكرت بأوفيليا عندما رأيتها أول مرة! آه، ليتني كنت أعرف ما يتوجّب عليّ عمله الآن. هل أبقى هنا في الفندق يوماً أو يومين أم أواصل الرحلة في الحافلة؟ إن الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من قش، إذا أدخلت أصابعك فيها لفترة طويلة فلا بد أن تخرج بشيء... حتى وإن وخزتك الأشواك في غضون ذلك.

* * *

الفصل الثالث عشر

مربعات سوداء وحمراء

عادت السيدة ساندبورن بينما كانت المجموعة تتجمع على مائدة الغداء. ولم تكن أخبارها طيبة، فالآنسة تيمبل ما زالت فاقدة الوعي وهي لن تستطيع الحراك لعدة أيام بالتأكيد.

وبعد أن قدمت نشرتها حولت السيدة ساندبورن الحديث إلى الأمور العملية، فقدّمت جداول رحلات القطارات للذين يرغبون بالعودة إلى لندن واقترحت خططاً مناسبة لاستئناف الرحلة صباح الغد أو في اليوم الذي يليه. كانت معها قائمة برحلات قصيرة مناسبة إلى مناطق قريبة بعد ظهر اليوم، مجموعات صغيرة في سيارات مستأجرة.

سحب البروفسور وانستيد الآنسة ماربل جانباً وهما خارجان من قاعة الطعام وقال: ربما تريدين الراحة بعد ظهر اليوم، إذا كنت لا تريدين الراحة فسوف أمرّ عليك هنا بعد ساعة. بالقرب من هنا توجد كنيسة رائعة ربما رغبت في رؤيتها.

قالت الآنسة ماربل: سيكون ذلك جميلاً جداً.

* * *

جلست الآنسة ماربل هادئة في السيارة التي جاءت لتأخذها، كان البروفسور وانستيد قد جاء لأخذها في الموعد الذي ذكره، وقال لها: رأيت أنك ربما كنت مهتمة برؤية هذه الكنيسة بالذات، والقرية الجميلة جداً أيضاً. لا يوجد ما يمنعنا من الاستمتاع بالمناظر المحلية حيث نستطيع.

قالت الآنسة ماربل: هذا لطف كبير منك.

ثم نظرت إليه بواحدة من نظراتها المرتجفة تلك وقالت: لطيف جداً، إلاّ أن الأمر يبدو... لا أريد أن أقول إنه غير لائق، ولكنك تعرف ما أعنيه.

- يا سيدتي العزيزة، إن الآنسة تيمبل ليست صديقة قديمة من صديقاتك، رغم كل ما يثيره الحادث من أسف وحزن.

قالت الآنسة ماربل ثانية: هذا لطف كبير منك.

وكان البروفسور وانستيد قد فتح باب السيارة للآنسة ماربل قبل أن تدخلها. لاحظت أنها سيارة مستأجرة، فكرة لطيفة أن يأخذ عجوزاً لرؤية المناظر والمواقع القريبة. كان بإمكانه أخذ سيدة أصغر منها سناً وأكثر تسلية، وربما أجمل منها. ونظرت إليه نظرات متأملة وهما ينطلقان في شوارع القرية. لم يكن ينظر إليها بل كان ينظر خارج نافذته.

وعندما خرجت السيارة من القرية وسارت على طريق ريفي رديء لتلتفّ حول جانب الهضبة التفت إليها وقال: أخشى أننا لن نذهب إلى الكنيسة.

- نعم، لقد ظننت أننا لن نذهب إلى هناك.

- كان من شأنك أن تخمّني ذلك.

- هل لي أن أسألك إلى أين سنذهب؟

- سنذهب إلى مستشفى في كاريستاون.

- آه، نعم، المستشفى الذي أخذوا الآنسة تيمبل إليه؟

كان سؤالاً، برغم عدم الحاجة إليه. قال: نعم، لقد رأتها السيدة ساندبورن وجاءتني برسالة من إدارة المستشفى، وقد أجريت معهم مكالمة هاتفية.

- هل تتحسن حالتها؟

- لا، إنها لا تتحسن بشكل جيد.

- فهمت، على الأقل... أتمنى لو أنني لا أفهم.

- إن شفاءها مسألة شائكة، ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء لها. قد لا تفيق من غيبوبتها لكنها قد تفيق في نوبات قليلة.

- وها أنت تصطحبني إلى هناك؟ لماذا؟ لست صديقة لها كما تعرف، لقد التقيتها أول مرة في هذه الرحلة.

- نعم، أعرف هذا. سآخذك إلى هناك لأنها طلبتك في إحدى نوبات الإفاقة.

- ولكن عجباً، لماذا عساها تطلبني أنا بالذات؟ لماذا فكرت أنني... أنني قد أفيدها أو أفعل لها أي شيء؟ إنها امرأة نافذة البصيرة، امرأة عظيمة في مجالها، وعندما كانت مديرة مدرسة فالوفيلد احتلت موقعاً بارزاً في مجال التعليم.

- أظن أن مدرستها كانت أفضل مدرسة للبنات؟

- نعم، كانت ذات شخصية عظيمة. وهي نفسها امرأة عالمة، كانت متخصصة بالرياضيات، لكنها كانت بارعة في مجالات عديدة أيضاً... كانت مربِّية بحق. كانت مهتمة بالتربية والتعليم وبالأمور التي تصلح للفتيات وكيفية تشجيعهن، أشياء كثيرة أخرى. لو ماتت سيكون أمراً محزناً وقاسياً، سنفقد امرأة مهمة، رغم أنها قد تقاعدت من إدارة المدرسة إلاّ أنها ما زالت تمارس الكثير من الصلاحيات. هذا الحادث...

سكتت الآنسة ماربل، ثم أضافت: ربما كنتَ غير راغب في مناقشة الحادث؟

- بل أعتقد أن من الأفضل أن نناقشه. لقد سقط حجر كبير من جانب الهضبة، والشائع أن ذلك كان يحدث من قبل ولكن على فترات متباعدة جداً. ومع ذلك فقد جاء شخص وحدثني عن الأمر...

قالت الآنسة ماربل: جاء وتحدث معك بخصوص الحادث؟ من هو؟

- الشابان، جوانا كراوفورد وإيملين برايس.

- وماذا قالا؟

- أخبرتني جوانا بأن لديها انطباعاً عن وجود شخص على جانب الهضبة في ذلك الوقت، في مكان مرتفع. كانت تتسلق الهضبة مع إيملين من الممر الرئيسي السفلي الذي يدور حول الهضبة في

طريق متعرج وعر، وعندما انعطفا عند إحدى الزوايا رأت بالتأكيد رجلاً في أعلى الهضبة أو امرأة كانت تحاول دحرجة حجر كبير على الأرض. كان الحجر ثقيلاً لا يستجيب للدفع، ولكنه بدأ أخيراً يتدحرج بطيئاً في البداية ثم ازدادت سرعته على سفح الهضبة. وكانت الآنسة تيمبل تسير على الممر الرئيسي أسفل الهضبة، وقد وصلت إلى نقطة تحت الحجر مباشرة عندما أصابها. لو كان ذلك عملاً متعمداً لكان من الممكن أن لا ينجح، ولربما أخطأها... لكنه نجح. ولو كان ما حصل محاول اعتداء متعمدة على المرأة التي تسير أسفل الطريق فإنها محاولة ناجحة جداً.

سألته الآنسة ماربل: هل كان ما شاهداه رجلاً أم امرأة؟

- لسوء الحظ فإن جوانا كراوفورد لم تستطع الجزم، ومهما كان فإنه كان يرتدي بنطال جينز أو بنطالاً عادياً وبلوزة صارخة اللون ذات مربعات حمراء وسوداء. ثم استدار ذلك الشخص وابتعد عن النظر على الفور تقريباً، وكانت تميل إلى أنه رجل لكنها لم تكن متأكدة.

- وهل تعتقد هي أو أنت أنها محاولة متعمدة للاعتداء على حياة الآنسة تيمبل؟

- كلما فكرت الفتاة في الأمر أكثر كلما ازدادت اقتناعاً بأن ذلك كان محاولة متعمدة للقتل، والشاب يوافقها الرأي.

- ألا تعرف أنت من يمكن أن يكون؟

- لا أعرف أبداً، وهما لا يعرفان أيضاً. قد يكون واحداً من زملائنا الركاب، شخصاً خرج يتمشى بعد ظهر ذلك اليوم مثلاً.

وقد يكون شخصاً لا نعرفه أبداً وكان يعرف أن الحافلة ستتوقف هنا واختار هذا المكان ليقوم باعتداء على واحد من الركاب. قد يكون شاباً يحب العنف لمجرد العنف أو قد يكون عدواً.

قالت الآنسة ماربل: يبدو الأمر ميلودرامياً جداً إذا قلنا إنه «عدو سري».

- نعم، فمن ذا يريد قتل مديرة مدرسة محترمة متقاعدة؟ هذا سؤال نريد جواباً عليه. ربما تستطيع الآنسة تيمبل نفسها إخبارنا، وهو احتمال ضعيف. ربما عرفت ذلك الشخص الذي يقف أعلى منها أو ربما كانت تعرف شخصاً يحمل لها الضغينة لسبب معين.

- ما زال الأمر يبدو غير محتمل.

قال البروفسور وانستيد: أتفق معك في الرأي؛ تبدو شخصية لا تصلح لأن تكون ضحية اعتداء أبداً، ولكن مع ذلك وعندما يفكر المرء فإنه يرى أن مديرة أية مدرسة تعرف أناساً كثيرين جداً. أناس كثيرون جداً مروا من تحت يديها (إن صحّ هذا التعبير).

- تقصد أن كثيراً من الفتيات تخرّجن على يديها؟

- نعم، نعم، هذا ما قصدته. فتيات وعائلاتهن، لا بد أن مديرة المدرسة تعرف أشياء كثيرة جداً، علاقات غرامية مثلاً مما يمكن أن تكون بعض الفتيات قد تورطن فيها دون معرفة أولياء أمورهن... هذا يحدث كما تعرفين، يحدث في الغالب، وخصوصاً في هذين العقدين الأخيرين، وهو يؤدي أحياناً إلى وقوع مأساة وأحياناً أخرى إلى ما هو أبعد من المأساة.

- هل تفكر في قضية معينة؟

- لا، لا، ليس ذلك حقيقة. إنني أفكر مجرد تفكير، أو لنقل إنني أترك الاحتمالات تعبر في ذاكرتي. لا يمكنني أن أصدق أن إليزابيث تيمبل لها عدو شخصي، عدو عديم الرحمة إلى حد يرغب معه في انتهاز فرصة لقتلها. إن ما أراه بالفعل...

نظر إلى الآنسة ماربل ثم أضاف: هل تودين تخمين ما أراه؟

- أتعني تخميناً باحتمال معين؟ حسناً، أظن أنني أعرف أو أخمّن ما ترمي إليه. إنك تريد أن تقول إن الآنسة تيمبل كانت تعرف شيئاً أو تعرف حقيقة معينة أو معلومة قد تكون خطراً على شخص ما لو كشفت الأمر.

- نعم، هذا ما أشعر به بالضبط.

قالت الآنسة ماربل: في هذه الحالة يبدو واضحاً أن في مجموعتنا السياحية شخصاً كان يعرف الآنسة تيمبل أو يعرف من هي، ولكن بعد مرور بضع سنوات لم تتذكره أو حتى لم تميزه الآنسة تيمبل. يبدو أن هذا يعيدنا إلى زملائنا الركاب، أليس كذلك؟

سكتت قليلاً ثم قالت: تلك البلوزة التي ذكرتها... هل قلت إنها ذات مربعات حمراء وسوداء؟

- آه، نعم، البلوزة...

نظر إليها نظرات فضولية ثم قال: ما الذي أثار انتباهك فيها؟

قالت الآنسة ماربل: كانت ملفتة للنظر، هذا ما جعلتني كلماتك

أستنتجه. كان أمراً يجدر التنويه به، وهذا ما جعل الفتاة جوانا تذكره على سبيل التحديد.

- نعم، وبماذا يوحي لك هذا؟

قالت الآنسة ماربل متأملة: إن خفقان الأعلام شيء تتم ملاحظته وتذكّره وتمييزه.

نظر البروفسور وانستيد إليها وقال مشجّعاً: نعم؟

- عندما تصف شخصاً رأيتَه من بعد فإن أول ما تصفه فيه ملابسه، وليس وجهه أو مشيته أو يديه أو قدميه. سوف تصف لون ملابسه بالتحديد ونوعها، فهي شيء يمكن تمييزه بسهولة وملاحظته دون عناء. والغرض منه أنه عندما يخلع ذلك الشخص تلك الملابس ويتخلص منها يرسلها بالبريد في طرد إلى عنوان معين على بعد مئة ميل من هنا مثلاً، أو يلقي بها في حاوية النفايات في مدينة أو يحرقها أو يمزقها، فإن أحداً لن يشك فيه أو ينظر إليه أو يفكر فيه... لا بد أن لبس تلك البلوزة بمربعاتها الحمراء والسوداء كان مقصوداً. القصد منها التعرف عليها مرة أخرى رغم أن ذلك الشخص لن يلبسها مرة ثانية أبداً.

قال البروفسور وانستيد: إنها فكرة صحيحة تماماً. كما قلت لك فإن فالوفيلد لا تبعد عن هذا المكان كثيراً، أظن أنها تبعد ستة عشرة ميلاً. إذن فهذه هي منطقة إليزابيث تيمبل، وهي منطقة تعرفها جيداً وتعرف الناس الذين يعيشون فيها وربما تعرفهم معرفة جيدة أيضاً.

- نعم، وهذا يوسع دائرة الاحتمالات. أوافقك الرأي في أن الأرجح هو أن يكون المعتدي رجلاً وليس امرأة؛ إذا كانت تلك

الصخرة قد ألقيت عمداً فإنها قد أرسلت إلى الهدف بدقة شديدة، والدقة في الرماية هي من خواص الرجال أكثر من النساء. ومن ناحية أخرى ربما كان بين الركاب الذين يشاركوننا في الرحلة أو ربما في المنطقة المجاورة شخص رأى الآنسة تيمبل في الشارع، أو تلميذة سابقة من تلميذاتها في السنوات السابقة، واحدة ربما هي نفسها لم تكن تعرفها أو تميزها بعد هذه الفترة الطويلة. لكن الفتاة أو المرأة كانت تستطيع تمييزها لأن مديرة مدرسة تتجاوز الستين من عمرها لن تختلف كثيراً عما كانت عليه وهي في الخمسين من عمرها. إن بالإمكان التعرف عليها بسهولة، امرأة عرفت مديرة مدرستها السابقة وكانت تعرف أيضاً بأن مديرتها تعرف عنها شيئاً مدمراً، واحدة قد تجلب لها الخطر بطريقة أو بأخرى... أنا شخصياً لا أعرف هذه المنطقة أبداً، هل تعرف أنت أي شيء معين عن هذه المنطقة؟

قال البروفسور وانستيد: لا، لا أستطيع الزعم بمعرفتي الشخصية بهذه المنطقة. ومع ذلك فإنني أعرف شيئاً من بين كثير من الأشياء التي حدثت في هذه المنطقة بسبب ما قُلتِه أنت لي، ولولا تعرفي عليك والأشياء التي أخبرتني بها لكنت أكثر جهلاً مما أنا عليه الآن. فما الذي تفعلينه أنت شخصياً هنا؟ أنت لا تعرفين، لكنك أُرسلتِ إلى هنا. كان عملاً دّبره رافائيل متعمَّداً وحملك على المجيء إلى هذا المكان في هذه الحافلة حتى ألتقي معك فيها. لقد توقفنا ومررنا بأماكن أخرى كثيرة، ولكنه قام بترتيبات خاصة حتى يجعلك تقيمين ليلتين هنا. لقد تم جمعك مع صديقات سابقات له لم يكن من شأنهن أن يرفضن أي طلب له، فهل كان لذلك سبب معين؟

قالت الآنسة ماربل: حتى أعلم حقائق محددة كان ينبغي عليّ تعلمها.

- سلسلة من جرائم قتل وقعت قبل سنوات عديدة؟ ليس في هذا أي شيء غير عادي. يمكنك أن تقولي هذا عن كثير من الأماكن الأخرى في إنكلترا، فهذه الأشياء تحدث على الأغلب في شكل سلسلة كما يبدو. توجد في البداية فتاة يُعتدى عليها وتُقتل، ثم فتاة أخرى لا تبعد كثيراً عن مكان الأولى، ثم شيء من نفس النوع يبعد عشرين ميلاً تقريباً... طريقة القتل ذاتها. لقد تم الإعلان عن فقدان فتاتين في جوسيلن سينت ميري نفسها، الأولى هي الفتاة التي كنّا نناقش أمرها والتي وُجدت جثتها بعد ستة أشهر على بعد أميال من هنا، وكانت قد شوهدت آخر مرة بصحبة مايكل رافائيل...

- والفتاة الثانية؟

- فتاة تدعى نورا برود، ولم تكن «فتاة هادئة لا أصدقاء لها». ربما كان لها العديد من العشاق الشباب في آن واحد، ولم تكتشف جثتها أبداً. سوف تكتشف ذات يوم؛ توجد حالات ظهرت فيها الجثة بعد أكثر من عشرين سنة! ها قد وصلنا، هذه هي كاريستاون وها هو المستشفى.

دخلت الآنسة ماربل المستشفى بصحبة البروفسور وانستيد، وكان واضحاً أن إدارة المستشفى كانت تتوقع وصول البروفسور. أشير إليهما بدخول غرفة صغيرة حيث نهضت امرأة من وراء مكتبها لتحيتهما، قالت: آه، نعم، بروفسور وانستيد. وهذه، هذه...

ترددت قليلاً، فقال البروفسور وانستيد: الآنسة جين ماربل، لقد تحدثتُ مع الممرضة باركر بالهاتف.

- آه، نعم. قالت الممرضة باركر إن الآنسة ماربل ستأتي برفقتك.

- كيف هي الآنسة تيمبل؟

- أظن أنها كما هي، أخشى من عدم وجود تحسن واضح يمكن ذكره.

ثم نهضت وقالت: سآخذكما إلى الممرضة باركر.

كانت الممرضة باركر نحيلة طويلة القامة، وكان لها صوت خفيض حازم وعينان رماديتان يمكنهما أن تنظرا إليك وتنتقلا إلى شيء آخر على الفور لتجعلك تظن أنها تفحصتك خلال فترة قصيرة جداً من الزمن وأنها قد حكمت عليك.

قال البروفسور وانستيد: لا أدري ما هي الترتيبات التي تفكرين فيها.

- حسناً، ينبغي أن أخبر الآنسة ماربل بما رتّبناه. في البداية يجب أن أوضح لك بأن المريضة، الآنسة تيمبل، ما زالت في حالة غيبوبة تصحو منها في فترات نادرة جداً. ويظهر أنها تصحو أحياناً فتميز مَن هم حولها وتستطيع أن تقول بضع كلمات، ولكن لا نستطيع عمل أي شيء يمكن أن يحفّزها. ينبغي الصبر على ذلك، أظن أن البروفسور وانستيد قد أخبرك بأنها نطقت خلال إحدى نوبات الإفاقة من الغيبوبة وبوضوح كامل الكلمات التالية: "الآنسة جين ماربل". ثم: "أريد أن أتحدث معها، الآنسة جين ماربل". وبعد ذلك عادت إلى غيبوبتها. وقد رأى الطبيب أن من الأفضل الاتصال بركاب الحافلة الآخرين، فجاء البروفسور وانستيد لرؤيتنا وشرح عدة أمور وقال إنه سيحضرك إلى هنا. أخشى أن كل ما نستطيع طلبه منك هو أن تجلسي في الجناح الخاص الذي ترقد فيه الآنسة تيمبل حتى تسجّلي

أية ملاحظة تقولها إذا استعادت وعيها مرة أخرى. لكني أخشى أن المؤشرات لا تبشر بخير الآن، وحتى أكون صريحة معك، وبما أنك لست من أقاربها ولن تتضايقي من هذه المعلومة، فإنني أظن أن من الأفضل أن أقول لك إن الطبيب يرى أن حالتها تتدهور بسرعة وأنها قد تموت دون أن تستعيد وعيها، ونحن لا نستطيع عمل أي شيء لتخفيف آثار الارتجاج. من المهم أن يسمع شخص ما تقوله، والطبيب ينصح بأن لا ترى كثيراً من الناس حولها إذا استعادت وعيها. إذا لم تتضايق الآنسة ماربل من فكرة جلوسها هناك وحيدة فهناك ممرضة في الغرفة رغم أنها لن تراها، أي أنها لن تلاحظها وهي ترقد على سريرها ولن تتحرك إلاّ إذا هي طلبت ذلك. سوف تجلس عند إحدى الزوايا ويحجبها ساتر، وعندنا ضابط شرطة هنا أيضاً وهو على استعداد لتسجيل أي شيء، وينصح الطبيب أيضاً بأن يكون هو الآخر مستتراً عن أنظار الآنسة تيمبل. شخص واحد فقط، وهو شخص تتوقع رؤيته، لن يخيفها أو يجعلها تنسى المعلومات التي تريد أن تقولها لك. أرجو أن لا يكون ذلك عملاً صعباً نطلبه منك؟

قالت الآنسة ماربل: لا، أنا مستعدة تماماً لذلك، لديّ دفتر صغير ومعي قلم حبر صغير لن يكون واضحاً للعيان. أستطيع حفظ الأشياء عن ظهر قلب لفترة قصيرة جداً ولذلك لن أضطر للظهور أمامها ممسكة بالقلم أسجّل ما تقوله، يمكنك أن تثقي بذاكرتي، كما أنني لست صمّاء... لست صمّاء بالمعنى الحقيقي للكلمة. لا أظن أن حاسة السمع عندي كما كانت عليه من قبل، ولكن إذا كنت أجلس بجانبها فيجب أن أسمع كل شيء تقوله بسهولة تامة حتى لو كان همساً. إنني معتادة على كلام المرضى، لقد قابلت الكثير منهم في حياتي.

مرة أخرى نظرت الممرضة باركر إلى الآنسة ماربل نظرة تفحص سريعة، وفي هذه المرة هزّت رأسها هزة خفيفة علامة على الرضا. قالت: هذا من لطفك، أنا واثقة أن بوسعنا الاعتماد عليك في أية مساعدة تستطيعين تقديمها لنا. وإذا أحب البروفسور وانستيد الجلوس في قاعة الانتظار بالطابق السفلي فإننا سنناديه في أية لحظة نراها ضرورية. والآن يا آنسة ماربل، أرجو أن ترافقيني.

سارت الآنسة ماربل وراء الممرضة على طول الممر ودخلت إلى غرفة خاصة صغيرة جميلة، وهناك على السرير كانت إليزابيث تيمبل مستلقية في غرفة ذات ضوء خافت حيث كانت الستائر نصف مسدلة. كانت ممددة هناك كالتمثال ومع ذلك لم تكن تعطي انطباعاً بأنها نائمة، كانت أنفاسها تخرج على شكل لهاث خفيف، ومالت الممرضة باركر لتفحص مريضتها وأشارت إلى الآنسة ماربل بالجلوس على كرسي بجانب السرير. ثم ذهبت إلى الباب مرة أخرى، وجاء شاب يحمل معه دفتراً من وراء الستارة هناك. قالت الممرضة باركر: إنها أوامر الطبيب يا سيد ريكيت.

ظهرت ممرضة أخرى أيضاً، وكانت تجلس في الزاوية المقابلة من الغرفة. قالت الممرضة باركر: اطلبيني إن لزم الأمر يا آنسة إدموندز، وأحضري للآنسة ماربل أي شيء قد تحتاجه.

نزعت الآنسة ماربل معطفها، فقد كان الغرفة دافئة. واقتربت الممرضة فأخذته منها ثم عادت إلى موقعها السابق، وجلست الآنسة ماربل على الكرسي. نظرت إلى إليزابيث تيمبل تفكر كما فكرت من قبل عندما نظرت إليها وهي في الحافلة، وتتعجب من رأسها الجميل. شعرها الرمادي كان ينساب على وجهها، وكان متناسباً مع وجهها.

امرأة حسناء، امرأة ذات شخصية. نعم، يا للأسف لفقد إليزابيث تيمبل! هكذا فكرت الآنسة ماربل.

عدلت الآنسة ماربل فرش الكرسي وراء ظهرها وحركت الكرسي مقداراً ضئيلاً وجلست تنتظر بهدوء. لم تكن تعرف إن كانت ستنتظر عبثاً أم أن فائدة تنتظرها، ومرّ الوقت، عشر دقائق، عشرون دقيقة، نصف ساعة، خمس وثلاثون دقيقة، ثم فجأة ومن غير توقع سمعت صوتاً كان خفيضاً رغم وضوحه وخشونته، لم تكن في تلك الرنة التي كانت تميزه: آنسة ماربل...

فتحت إليزابيث تيمبل عينيها وراحت تنظر إلى الآنسة ماربل، وبدت مدركة تماماً. كانت تتفحص وجه المرأة التي تجلس بجانب سريرها، تتفحصها دون أية إشارة لعاطفة أو دهشة. كانت مجرد نظرات تفحّص، تفحّص واع تماماً.

ثم تكلم الصوت مرة أخرى: الآنسة ماربل، أنت جين ماربل؟

- هذا صحيح. نعم، أنا جين ماربل.

- كان هنري يتحدث عنك كثيراً، وقال عنك أشياء كثيرة.

صمت الصوت، فقالت الآنسة ماربل وهي تتساءل: هنري؟

- هنري كليذرينغ، صديق قديم لي... صديق قديم جداً.

قالت الآنسة ماربل: إنه صديق قديم لي أيضاً، هنري كليذرينغ.

عادت بذاكرتها إلى السنوات الكثيرة التي عرفته خلالها. السير هنري كليذرينغ، الأشياء التي قالها لها، المساعدة التي كان يطلبها

منها أحياناً، والمساعدة التي كانت تطلبها هي منه... صديق قديم جداً.

- لقد تذكرت اسمك في قائمة الركاب، رأيت أنك هي دون شك. أنت تستطيعين المساعدة، هذا ما كان سيقوله... نعم، هذا ما كان هنري سيقوله لو كان هنا. قد تستطيعين المساعدة، الاكتشاف... إنه مهم، مهم جداً بالرغم من... أنه قد مضى وقت طويل على ذلك الآن. وقتٌ... طويل... جداً.

ضعف صوتها قليلاً وأغلقت عينيها، فنهضت الممرضة وجاءت بكأس صغير وقرّبته من شفتَي إليزابيث تيمبل. رشفت الآنسة تيمبل رشفة وأومأت برأسها وكأنها تطلب منها الانصراف، فوضعت الممرضة الكأس وعادت إلى كرسيها.

قالت الآنسة ماربل: إن كنت أستطيع المساعدة فسوف أفعل.

لم تسأل أية أسئلة أخرى، قالت الآنسة تيمبل: جيد. ثم بعد دقيقة أو اثنتين قالت ثانية: جيد.

رقدت دقيقتين أو ثلاث دقائق مغمضةَ العينين. ربما كانت نائمة أو غائبة عن الوعي، ثم فتحت عينيها فجأة وقالت: أي... أي منهما؟ هذا ما ينبغي معرفته. هل تعرفين الذي أتحدث عنه؟

- أظن ذلك، فتاة ماتت... نورا برود؟

قطبت إليزابيث تيمبل جبينها بسرعة وقالت: لا، لا، لا. الفتاة الثانية، فيريتي هَنت.

سكتت قليلاً ثم قالت: جين ماربل، أنت عجوز... أكبر سناً

مما كنتِ عليه عندما كان يتحدث عنك. لقد كبرت في السن لكنك ما زلت تستطيعين اكتشاف الأشياء، أليس كذلك؟

ارتفع صوتها قليلاً بإصرارٍ أكثر: تستطيعين، أليس كذلك؟ قولي إنك تستطيعين. ليس لديّ الوقت الكثير، أعرف هذا، أعرف هذا جيداً. واحدة منهما، ولكن أيهما؟ اكتشفي، كان من شأن هنري أن يقول إنك تستطيعين. قد يكون ذلك خطيراً عليك، لكنك ستكتشفين، أليس كذلك؟

قالت الآنسة ماربل: سأفعل بعون الله.

كان ذلك عهداً قطعته.

تأوّهت المريضة وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما ثانية. كانت كأنها تحاول أن تبتسم وهي تقول: الصخرة الكبيرة من أعلى، صخرة الموت.

- مَن الذي ألقى تلك الصخرة؟

- لا أعرف، لا يهم... الذي يهم فقط هو فيريتي، اكتشفي كل شيء عن فيريتي. الحقيقة، إنها اسم آخر للحقيقة، فيريتي...

لاحظت الآنسة ماربل استرخاء الجسد على السرير، وكان هناك همس خفيف: وداعاً، ابذلي جهدك...

استرخى جسدها وأغلقت عينيها، وجاءت الممرضة ثانية إلى جانب السرير. في هذه المرة تحسست النبض وأومأت برأسها إلى الآنسة ماربل، فنهضت الآنسة ماربل طائعة وتبعتها خارج الغرفة. قالت الممرضة: كان ذلك جهداً كبيراً عليها؛ إنها لن تستعيد وعيها

مرة أخرى إلاّ بعد وقت طويل، وربما لن تستعيده أبداً. أرجو أن تكوني قد علمت شيئاً؟

- لا أظن ذلك، ولكن من يدري؟

❊ ❊ ❊

سألها البروفسور وانستيد وهما خارجان باتجاه السيارة: هل حصلت على شيء؟

- اسم فقط. فيريتي، هل كان ذلك اسم الفتاة؟

- نعم؛ فيريتي هَنت.

ماتت إليزابيث تيمبل بعد ساعة ونصف الساعة، ماتت دون أن تستعيد وعيها.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع عشر
السيد برودريب يتساءل

قال السيد برودريب لشريكه السيد شاستر: هل قرأت صحيفة «التايمز» هذا الصباح؟

ردّ عليه السيد شاستر بأنه لا يقرأ «التايمز» بل «التليغراف».

قال السيد برودريب: حسناً، قد يكون الخبر فيها أيضاً، في صفحة الوفيات. الآنسة إليزابيث تيمبل.

بدا السيد شاستر متحيراً بعض الشيء، فقال السيد برودريب: مديرة مدرسة فالوفيلد، لا شك أنك سمعت بفالوفيلد؟

قال شاستر: بالطبع، مدرسة البنات. لقد أسست منذ خمسين عاماً أو نحو ذلك، مدرسة من الدرجة الأولى ورسومها مرتفعة جداً. إذن كانت مديرتها؟ كنت أظن أن المديرة قد استقالت منذ زمن، ستة أشهر على الأقل. أنا واثق من أنني قرأت ذلك في الصحيفة لأن بعض الضجة قد ثارت حول المديرة الجديدة، فهي امرأة متزوجة صغيرة السن، بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمرها، وذات أفكار حديثة وتعطي الفتيات دروساً في مواد التجميل وتسمح لهن بارتداء البنطال، وما إلى ذلك.

- لا أظن أنها ستحصل على الشهرة التي حصلت عليها إليزابيث تيمبل، فقد كانت تلك امرأة ذات شخصية قوية، وكانت في ذلك المنصب منذ وقت طويل.

قال السيد شاستر بشيء من عدم الاكتراث: نعم.

وتساءل عن السر في اهتمام برودريب بأمر مديرة مدرسة ماتت. لم تكن المدارس لتجذب اهتمام أي من الرجلين حقاً، فأولادهما قد أنهوا الآن مرحلة الدراسة الثانوية، والابن الأول للسيد برودريب يعمل في قطاع الخدمة الحكومية والآخر في شركة للنفط، أما أولاد السيد شاستر فيدرسون في جامعات مختلفة.

قال السيد برودريب: كانت في رحلة سياحية.

- تلك الرحلات... ما كنت لأسمح لأي من أقاربي بالذهاب مع إحدى تلك الرحلات؛ فقد توفي شخص في حادث مأساوي في سويسرا في الأسبوع الماضي، وقبل شهرين تدهورت حافلة من هذه الحافلات وقُتل فيها عشرون شخصاً. لا أعرف من يقود مثل هذه الحافلات هذه الأيام.

- كانت رحلة داخلية لرؤية القلاع والبيوت والحدائق. لا أذكر اسم الشركة، ولكنك تدرك ما أعنيه.

- آه، نعم، عرفت، إنها... نعم، التي أرسلناها فيها الآنسة... تلك العجوز التي حجز لها رافائيل.

- الآنسة جين ماربل كانت مشاركة فيها.

- لم تُقتل هي الأخرى، أليس كذلك؟

- ليس حسب علمي، ومع ذلك فقد تساءلت في نفسي قليلاً.

- هل كان حادث سيارة؟

- لا، كان في أحد المواقع ذات المناظر الجميلة. كانوا يسيرون على أحد الطرقات صاعدين إلى قمة هضبة، وكانت مسيرة تتطلب خبرة في التسلق وثبات أقدام. كانوا يصعدون هضبة شديدة الانحدار مليئة بالصخور، وسقطت إحدى الصخور على جانب الهضبة بقوة فأصابت الآنسة تيمبل وأخذت إلى المستشفى مصابة بارتجاج في المخ ثم توفيت هناك.

قال السيد شاستر: حظ سيء.

وانتظر سماع المزيد، فقال السيد برودريب: لقد تساءلت فقط لأنني تذكرت أن... أن فالوفيلد هي المدرسة التي كانت فيها تلك الفتاة.

- أية فتاة؟ لا أعرف ما الذي تتكلم عنه يا برودريب.

- الفتاة التي قتلها الشاب مايكل رافائيل. كنت أستذكر فقط بعض الأشياء التي قد تبدو ذات صلة ما بتلك المهمة الغريبة التي كان العجوز رافائيل حريصاً على إيكالها إلى جين ماربل. ليته أخبرنا بالمزيد!

- ما هي الصلة؟

بدا شاستر أكثر اهتماماً، وبدأ يشحذ ملكاته القانونية ليكون قادراً على إعطاء رأي حصيف بما يوشك السيد برودريب على الإفضاء به إليه.

- تلك الفتاة، لا أتذكر اسم عائلتها الآن. اسمها الأول فيريتي، نعم، أظن أن اسمها فيريتي هنتر. كانت واحدة من ضحايا سلسلة الجرائم تلك، وقد وُجدت جثتها في حفرة تبعد نحو ثلاثين ميلاً من المكان الذي فُقدت فيه. كانت قد قُتلت قبل ستة أشهر، ومن الواضح أنها خُنقت ثم هُشّم رأسها ووجهها... لتأخير عملية التعرف عليها كما اعتقد الشرطة، ولكن تم التعرف عليها رغم ذلك. الملابس والحقيبة اليدوية والحلي... وشامة أو أثر جرح قديم يميزها. آه، نعم، لقد تعرفوا على جثتها بسهولة.

- أظنها هي التي كانت موضوع المحاكمة برمتها، أليس كذلك؟

- نعم، لقد اشتبهت المحكمة في قيام مايكل بقتل ثلاث فتيات خلال عام سابق، لكن الدليل لم يكن كافياً في الجرائم الأخرى، ولذلك ركز الشرطة جهودهم على هذه الجريمة حيث توجد أدلة كثيرة وصحيفة جنائية سيئة، وحالات سابقة من الاعتداء... لقد تساءلت إن كانت توجد صلة بين هذه الأمور كلها. أظن أن عمل جين ماربل هذا مع رافائيل قد يكون له صلة بموضوع مايكل.

- لقد جرّموه، أليس كذلك؟ وحكموا عليه بالسجن المؤبد؟

- لا أستطيع أن أتذكر الآن... لقد مضى على ذلك وقت طويل، وربما نجحوا في الحصول على حكم مخفف بدعوى عدم الأهلية العقلية.

- وهل كانت فيريتي هنتر طالبة في تلك المدرسة، مدرسة الآنسة تيمبل؟ هل كانت تلميذة مدرسة عندما قتلت؟ لا أتذكر هذا.

- آه، لا. كانت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها، تعيش مع أقارب أو أصدقاء لوالديها. كان بيتاً جميلاً وأهله لطفاء وكانت هي فتاة لطيفة بكل المعايير، فتاة يعتبرها أقاربها هادئة جداً ولا تخرج مع أناس غرباء وليس لها أصدقاء من الشبان، مع أن الأقارب لا يعلمون بعلاقات الفتيات عادة، إذ يبذلن كل جهد لإخفاء ذلك. ويقال إن ابن رافائيل كان شديد الجاذبية في أعين الفتيات.

سأله السيد شاستر: ألم يظهر أي احتمال في أن لا يكون هو القاتل؟

- أبداً. لقد كذب كثيراً وهو في قفص الاتهام، وكان من الأفضل لمحاميه أن لا يتركه يدلي بشهادته. وقد شهد الكثير من أصدقائه بأنه كان معهم وقت وقوع الجريمة لكنها شهادات لم تصمد كثيراً، فقد بدا أن جميع أصدقائه كذابون محترفون.

- وما هو رأيك أنت في هذه القضية يا برودريب؟

- لم أكوّن رأياً خاصاً. كنت فقط أتساءل إن كان لوفاة هذه المرأة أي علاقة بالأمر.

- وكيف؟

- حسناً، لعلك تعلم... تلك الصخور التي تهوي من المنحدرات الصخرية لتقع على رؤوس الناس... إن ذلك ليس دائماً أمراً طبيعياً. إن الصخور -حسب خبرتي- عادة ما تبقى في مكانها لا تتزحزح.

* * *

الفصل الخامس عشر

فيريتي

قالت الآنسة ماربل: فيريتي.

كانت إليزابيث تيمبل قد توفيت مساء اليوم السابق، وكانت وفاة هادئة. وكانت الآنسة ماربل تجلس مرة أخرى في غرفة الاستقبال في بيت العزبة القديمة ذات الستائر الباهتة وقد وضعت جانباً معطف الأطفال الصوفي الذي كانت مشغولة بحبكه فيما مضى واستبدلت به وشاحاً أرجواني اللون راحت تشتغل في حياكته.

كانت جلسة التحقيق ستعقد في اليوم التالي، وقد تم الاتصال بالكاهن ووافق على عمل قداس مختصر في الكنيسة حالما يتم عمل الترتيبات، كما تولى متعهدو دفن الموتى زمام الموقف بالتنسيق مع الشرطة. كانت جلسة التحقيق ستعقد في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وقد وافق المشاركون في الرحلة على حضور التحقيق واختار الكثيرون منهم البقاء حتى يحضروا القداس الجنائزي في الكنيسة.

وكانت السيدة غلين قد جاءت إلى فندق غولدن بور وحثّت

الآنسة ماربل على العودة إلى بيت العزبة القديمة حتى موعد استئناف الرحلة، وقالت لها: ستهربين من الصحفيين.

وكانت الآنسة ماربل قد شكرت الأخوات الثلاث بحرارة ووافقت. كان مقرراً أن تُستأنف رحلة الحافلة بعد مراسم الدفن فتنطلق أولاً إلى ساوث بيدستون التي تبعد خمسة وثلاثين ميلاً، حيث يوجد فندق جيد تم اختياره ليكون نقطة توقف. وبعد ذلك ستواصل الرحلة برنامجها كالمعتاد.

ولكن وكما خمّنت الآنسة ماربل كان بعض الأشخاص يعتزمون الانفصال عن الرحلة والعودة من حيث أتوا، أو الذهاب إلى أماكن أخرى. وكان لكلا الخيارين محاسن ومساوئ: أن يترك المرء رحلة من شأنها أن تصبح مثار ذكريات مؤلمة، أو أن يستمر في رحلة مشاهدات دُفعت تكاليفها مقدماً، رغم ما قطع سبيلها من حادث من تلك الحوادث المؤلمة التي قد تحدث في أية رحلة أخرى... وفكرت الآنسة ماربل أن الأمر يعتمد على نتيجة التحقيق في جزء كبير منه.

بعد أن تبادلت الآنسة ماربل الكثير من عبارات المجاملة التقليدية مع مضيفاتها الثلاث مما كانت تقتضيه المناسبة، عادت إلى صوفها وصنارتها وجلست تفكر في خط التحقيق التالي الذي ستسلكه. وهكذا تلفظت بالكلمة الوحيدة «فيريتي» وأصابعها مشغولة في حبك الصنارة، ألقتها كما يلقي المرء حصاة في بركة ماء، فقط من أجل ملاحظة وقع هذه الكلمة على الأخريات. هل ستعني أي شيء لمضيفاتها؟ ربما نعم وربما لا، وإلاّ فإنها ستحاول ملاحظة تأثير هذه الكلمة على المشاركين في الرحلة عندما ستنضم إليهم لتناول وجبة العشاء معهم في الفندق. فكرت أن تلك كانت آخر كلمة قالتها

إليزابيث تيمبل، وفكرت أن تتلفظ بها لذلك السبب. كانت أصابع الآنسة ماربل مشغولة، ولم تكن بها حاجة لأن تنظر إلى ما تصنعه لأنها كانت تستطيع قراءة كتاب أو الانخراط في حديث بينما تمضي أصابعها في حركاتها المقررة بشكل صحيح.

كالحجر عندما يُلقى في بركة محدثاً فقاعات ورذاذاً أو شيئاً ما، أو لا شيء أبداً. لا بد أن يظهر رد فعل ما، نعم، إنها لم تخطئ الظن. فرغم أن وجهها لم يُظهر شيئاً إلاّ أن عينيها الحادتين وراء النظارات قد راقبتا ثلاث سيدات في وقت واحد، وهو ما دربت نفسها عليه منذ سنوات طويلة عندما كانت تريد مراقبة جيرانها في اجتماع أمهات أو في أعمال عامة في سينت ميري ميد سعياً وراء خبر مثير أو إشاعة.

أسقطت السيدة غلين الكتاب الذي كانت تحمله ونظرت إلى الآنسة ماربل بدهشة خفيفة، بدت مدهوشة لأن الكلمة خرجت من فم الآنسة ماربل تحديداً، لا لمجرد سماع الكلمة.

أما كلوتيلد فكان رد فعلها مختلفاً؛ فقد رفعت رأسها فجأة ومالت قليلاً إلى الأمام، ثم لم تنظر إلى الآنسة ماربل ولكن باتجاه النافذة، وتشابكت يداها معاً وظلت ساكنة. ورغم أن الآنسة ماربل قد خفضت رأسها قليلاً وكأنها لم تكن تنظر إليهن إلاّ أنها لاحظت أن عينَي كلوتيلد اغرورقتا بالدموع؛ جلست صامتة هادئة وتركت الدموع تنحدر من عينيها على خديها، ولم تحاول إخراج منديل ولم تنبس ببنت شفة. وتأثرت الآنسة ماربل بحالة الحزن التي انتابتها.

وكان رد فعل آنثيا مختلفاً أيضاً. كان سريعاً منفعلاً يكاد يكون فرحاً، قالت: فيريتي؟ هل قلت فيريتي؟ هل كنت تعرفينها؟ لم أعرف ذلك. هل تقصدين فيريتي هَنت؟

قالت لافينيا غلين: أتقصدين اسم فيريتي؟

قالت الآنسة ماربل: لم أعرف واحدة بهذا الاسم أبداً، ولكنني قصدت اسم فيريتي بالفعل. نعم، أظن أنه اسم غريب.

ثم كررت الكلمة متأملة: «فيريتي»... وتركت كرة الصوف تسقط ونظرت حولها مرتبكة معتذرة وكأنها أدركت أنها ارتكبت زلة، لكنها لم تكن متأكدة من السبب. قالت: أنا... أنا آسفة جداً. هل قلت شيئاً ما كان ينبغي أن أقوله؟ لقد قلتها فقط لأن...

قالت السيدة غلين: لا، بالطبع لا. إنه فقط، إنه فقط اسم نعرفه، اسم كانت لنا علاقة به.

قالت الآنسة ماربل وهي ما تزال تعتذر: لم يخطر لي هذا الاسم إلاّ لأن الآنسة تيمبل المسكينة ذكرته أمامي. لقد ذهبتُ لرؤيتها بعد ظهر الأمس، أخذني البروفسور وانستيد إلى المستشفى وكان يعتقد أنني ربما كنت أستطيع أن... أن أثيرها بطريقة ما إن صح التعبير. كانت في غيبوبة وظنوا... في الواقع لم أكن صديقة لها من قبل لكنّا تحدثنا معاً في الرحلة وكنا كثيراً ما نجلس معاً ونتحدث، وقد ظن البروفسور وانستيد أنني ربما استطعت المساعدة. مع أنني لم أكن كذلك أبداً، فقد جلست هناك فقط وانتظرت، ثم قالت كلمة واحدة أو اثنتين غير أنها لم تكن لتعني شيئاً كما تبدو. ولكن عندما كنت على وشك الذهاب فتحت عينيها ونظرت إليّ... لا أعرف إن كانت قد أخطأت في معرفتي أم لا، لكنها قالت تلك الكلمة. فيريتي! وقد ظلت هذه الكلمة عالقة في ذهني بالطبع وخصوصاً أنها توفيت مساء الأمس فقط. لا بد أن تلك الكلمة كانت تعني شخصاً أو شيئاً في ذهنها.

قلّبَت بصرها بين كلوتيلد و لافينيا وآنثيا. قالت لافينيا غلين: كان ذلك اسم فتاة نعرفها، هذا هو السبب الذي جعلنا نجفل عند سماعه.

قالت آنثيا: ولا سيما بسبب الطريقة البشعة التي توفيت بها.

قالت كلوتيلد بصوتها الجهوري: آنثيا! لا حاجة للخوض بهذه التفاصيل.

قالت آنثيا: إن الجميع يعرفون ما جرى لها.

نظرت إلى الآنسة ماربل وقالت: ظننت أنك كنت تعرفين عنها لأنك تعرفين السيد رافائيل، أليس كذلك؟ أقصد أنه كتب لنا عنك ولذلك لا بد أنك كنت تعرفينه، وربما... وربما ذكر لك الأمر كله.

قالت الآنسة ماربل: أنا شديدة الأسف، أخشى أنني لا أفهم تماماً ما تتحدثين عنه.

قالت آنثيا: لقد وجدوا جثتها في حفرة.

رأت الآنسة ماربل أنه لا شيء يوقف آنثيا عندما تشرع في الكلام، لكنها شعرت أن حديث آنثيا الصاخب كان يزيد من توتر كلوتيلد، فقد أخرجت منديلاً بطريقة هادئة لا تشي بموقف محدد فمسحت دموعها عن عينيها وانتصبت في جلستها وهي تنظر نظرات خفية وحزينة. قالت: لقد أحببنا فيريتي كثيراً. لقد عاشت هنا فترة من الزمن، وكنت أحبها كثيراً...

قالت لافينيا: وهي أيضاً أحبتك كثيراً.

قالت كلوتيلد: كان والداها صديقين لي، وقد قُتلا في حادث طائرة.

أوضحت لافينيا: كانت في مدرسة فالوفيلد، أظن أن هذا ما جعل الآنسة تيمبل تتذكرها.

قالت الآنسة ماربل: آه، فهمت. حيث كانت الآنسة تيمبل مديرة المدرسة، أليس كذلك؟ لقد سمعت عن فالوفيلد كثيراً بالطبع، إنها مدرسة رائعة جداً. أليس كذلك؟

قالت كلوتيلد: بلى، وكانت فيريتي تلميذة هناك. وبعد وفاة أبويها جاءت لتعيش معنا فترة من الزمن حتى تقرر ما ستفعله في مستقبلها، وكانت في الثامنة عشرة أو في التاسعة عشرة، فتاة حلوة جداً وودودة ومحبوبة. ربما فكرت في التدرب على عمل التمريض، لكنها كانت ذكية جداً وأصرت الآنسة تيمبل عليها لكي تذهب إلى الجامعة. وهكذا كانت تدرس وتتدرب عندما... عندما حدث ذلك الأمر الرهيب.

أبعدت وجهها وقالت: إنني... هل تمانعين بوقف الحديث في هذا الموضوع الآن؟

قالت الآنسة ماربل: آه، بالطبع. أنا آسفة جداً لأنني أثرت موضوع الحادث هذا، لم أكن أعرف. إنني... إنني لم أسمع... اعتقدت... أقصد...

* * *

في ذلك المساء سمعت المزيد من المعلومات. جاءت السيدة

غلين إلى غرفتها عندما كانت تغير ملابسها لتخرج وتلحق بالآخرين في الفندق، وقالت لها: لقد رأيت أن عليّ القدوم لأشرح لك بعض الأمور بخصوص... بخصوص الفتاة فيريتي هنت. أنت لا تعرفين -بالطبع- أن أختنا كلوتيلد كانت تحبها كثيراً وأن موتها بتلك الطريقة الفظيعة قد سبّب لها صدمة كبيرة. إننا لا نذكر اسمها أمامها إن استطعنا، لكني... أعتقد أن من الأسهل أن أخبرك بالحقائق كاملة لكي تتفهمي الموقف الذي هي فيه. يبدو أن فيريتي كان لها -دون علمنا- علاقة مع شاب كريه، بل أكثر من كريه... وقد ظهر فيما بعد أنه شخص خطير ذو سجل جنائي وصاحب سوابق. وقد جاء إلى هنا مرة لزيارتنا عندما كان قريباً من المكان، فقد كنّا نعرف والده جيداً.

سكتت ثم قالت: أظن أن من الأفضل أن أخبرك بالحقيقة كاملة إن كنت لا تعرفينها، ولا يبدو أنك تعرفينها. الواقع أنه كان ابن السيد رافائيل، مايكل...

هتفت الآنسة ماربل: يا إلهي! ليس... ليس... لا أتذكر اسمه لكني أتذكر أنني سمعت بأن له ولداً وأنه كان ولداً غير مُرضٍ.

قالت السيدة غلين: كان أكثر من ذلك قليلاً؛ كان يسبب المتاعب دائماً، وقد مثل أمام المحكمة بتهم مختلفة، منها أنه اعتدى على فتاة مراهقة ذات مرة. إنني أعتبر أن القضاة متساهلون جداً مع مثل هذه الأشياء، ولم يريدوا إفساد الدراسة الجامعية للشاب ولذلك تركوه يخرج بحكم لا أذكر ماذا يسمونه... مع وقف التنفيذ. لو أُدخل هذا الولد وأمثاله إلى السجن على الفور فإنه سيكون رادعاً لهم. وقد كان لصاً أيضاً، فقد زوّرَ شيكات وسرق أشياء... كان شاباً سيئاً جداً. وكنّا صديقات لأمه، ومن حسن حظها أنها ماتت صغيرة قبل أن ترى

ابنها في هذه النشأة وهذا السلوك. أظن أن السيد رافائيل فعل كل ما بوسعه، فحاول أن يجد وظائف مناسبة للولد ودفع عنه الكفالات، لكني أعتقد أن ذلك كان ضربة كبيرة له رغم أنه حاول التظاهر بأنه غير مبالٍ وحاول تناسي الأمر.

لقد حدثت عندنا (وربما أخبرك أهل القرية هنا) سلسلة من جرائم القتل والعنف في هذه المقاطعة. ليس هنا فقط، لقد وقعت في مناطق مختلفة من الريف على بعد عشرين ميلاً من هنا وأحياناً على بعد خمسين ميلاً، وحادثة واحدة أو اثنتان وقعتا حسب ظن الشرطة على بعد مئة ميل تقريباً. ولكن بدا أنها تمركزت في هذه المنطقة من البلاد. على أية حالٍ فقد خرجت فيريتي ذات يوم لزيارة صديقة لها... ولم تعد. ذهبنا إلى الشرطة وأخبرناهم بالأمر، وبحث الشرطة عنها ومسحوا الريف كله بحثاً عنها لكنهم لم يعثروا لها على أثر. ثم أعلنّا عنها في الصحف وأعلن الشرطة عنها أيضاً وقالوا إنها ربما هربت مع صديق لها.

ثم بدأت الإشاعات تدور وتقول إنها قد شوهدت مع مايكل رافائيل، وفي تلك الفترة بدأ الشرطة بمراقبة مايكل والاشتباه في ارتكابه جرائم معينة وقعت برغم أنهم فشلوا في العثور على دليل مباشر يدينه. وقد قيل إن فيريتي شوهدت (وتم وصف ملابسها) مع شاب يشبه مايكل وفي سيارة تطابق أوصافُها أوصافَ سيارته، ولكن لم يوجد أي دليل آخر إلى أن اكتُشفت جثتها بعد ستة أشهر على بعد ثلاثين ميلاً من هنا في منطقة غابات ريفية وفي حفرة مغطاة بالحجارة والتراب. وقد ذهبت كلوتيلد للتعرف على جثتها... كانت فيريتي بلا شك، وكانت قد خُنقت وهُشِّم رأسها. ومنذ ذلك الوقت وكلوتيلد تعاني من آثار الصدمة. كانت في جسدها علامات مميزة، وشمة وأثر

جرح قديم، وملابسها بالطبع ومحتويات حقيبتها اليدوية... وكانت الآنسة تيمبل تحب الفتاة كثيراً ولا بد أنها فكرت فيها قبل وفاتها.

قالت الآنسة ماربل: أنا آسفة، آسفة جداً. أرجو أن تخبري شقيقتك بأنني لم أكن أعرف.

* * *

الفصل السادس عشر

التحقيق

سارت الآنسة ماربل ببطء في شارع القرية في طريقها إلى المركز التجاري، حيث ستُعقد جلسة التحقيق في بناية قديمة من العهد الجورجي كانت تعرف منذ مئة سنة باسم بناية كيرفيو آرمز. نظرت إلى ساعتها، ما زال أمامها عشرون دقيقة قبل أن يحين موعد الجلسة. نظرت إلى المحلات، وتوقفت عند محل يبيع الصوف وسترات الأطفال وأطلّت برأسها إلى الداخل لبضع ثوان. كانت في المحل فتاة تخدم الزبائن، ومعاطف صوف صغيرة كان يلبسها اثنان من الأطفال على سبيل التجربة، وهناك خلف الجهة البعيدة من طاولة البيع امرأة عجوز.

دخلت الآنسة ماربل إلى المتجر وذهبت إلى حيث يوجد مقعد مقابل المرأة العجوز وأخرجت عيّنة من صوف وردي اللون، فأوضحت لها بأن هذا الصوف قد نفد منها ولم يبقَ على السترة التي كانت تحيكها إلاّ القليل. وسرعان ما أحضروا لها صوفاً من ذات النوع واللون، كما أحضروا لها عينات أخرى من الصوف أثارت إعجاب الآنسة ماربل. وفي الحال دخلت مع المرأة العجوز في حديث، بدأ

الحديث حول الحادث المؤسف الذي وقع، وكانت السيدة ميريبت صاحبة المتجر مهتمة جداً بالحادث وتحدثت عن الصعوبات في حمل البلديات المحلية على معالجة أخطار طرق المشاة وتأمين حقوق الناس في الطرقات.

- بعد المطر تنجرف التربة فتحرر الصخور من أماكنها وتسقط من أعلى. أذكر أنه حدثت انهيارات صخرية ثلاث مرات في سنة واحدة... وقعت ثلاث حوادث. في الأول كاد ولد أن يُقتل، ثم بعد ذلك وأظن بعد ستة أشهر كُسرت ذراع رجل، وفي المرة الثالثة كانت الضحية السيدة ووكر العجوز المسكينة. كانت عمياء وصمّاء، ولم تكن تسمع شيئاً وإلاّ لابتعدت عن الطريق. لقد رأى شخصٌ الصخور وهي تقع وناداها ليحذّرها، ولكنه كان أبعد من أن يصل إليها أو أن يركض ليبعدها، وهكذا قُتلت.

قالت الآنسة ماربل: أمر محزن، ليس من السهل نسيانه.

- نعم، وأظن أن قاضي التحقيق سيذكر ذلك اليوم.

- أظن ذلك. هذا أمر يبدو حدوثه طبيعياً تماماً رغم فظاعته، ورغم أن هناك حوادث يتعمد بعض الناس فيها دفع الصخور من أعلى، يدفعون الصخور فتتدحرج إلى أسفل.

- آه، هؤلاء الأولاد يفعلون أي شيء. ولكن لا أظن أنني رأيتهم في أعلى تلك الهضبة يمزحون ويلهون.

انتقلت الآنسة ماربل إلى الحديث عن سترات الصوف، قالت: إنها ليست لي بل لواحد من أبناء أخي، إنه يريد سترة ذات ياقة عالية وذات ألوان زاهية جداً.

- نعم، إنهم يحبون الألوان الزاهية في هذه الأيام، أليس كذلك؟ لكنهم يحبونها في السترات فقط وليس في بناطيل الجينز. إنهم يحبون بناطيل الجينز سوداء اللون أو كحلية، لكنهم يحبون الألوان الزاهية فوقها.

وصفت الآنسة ماربل سترة ذات مربعات زاهية الألوان، وقد ظهر أن في المتجر عدداً كبيراً من هذه السترات لكن لم يكن بينها سترات ذات مربعات حمراء وسوداء، كما أنها لم تذكر وجود مثل هذه الألوان في أية بضاعة سابقة. وبعد أن نظرت إلى بعض العينات استعدت الآنسة ماربل للمغادرة، وتحدثت قبل ذلك عن جرائم القتل السابقة التي سمعت بوقوعها في هذه المنطقة.

قالت السيدة ميريبت: لقد أمسكوا المجرم في النهاية. ولد وسيم، ما كان أحد ليشُكّ به. لقد نشأ نشأة جيدة وذهب إلى الجامعة، وكان أبوه غنياً جداً كما يقولون. أظن أنه كانت لديه لوثة ما، لكن لا يعني أنهم أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية، لم يفعلوا ذلك، لكني أظن أن حالته كانت عقلية... يقولون إن هناك خمس فتيات أو ستاً، وقد اعتقل الشرطة عدداً من الشبان في هذه المنطقة فلم يعثروا على شيء؛ اعتقلوا جيوفري غرانت، وكانوا في البداية متأكدين تماماً أنه هو. كان غريب الأطوار منذ أن كان صبياً صغيراً، وكان يتحرش بالفتيات الصغيرات وهن ذاهبات إلى المدرسة فيقدم لهن الحلوى ويطلب منهن الذهاب معه ليريهن نباتات زهرة الربيع أو غير ذلك... نعم، لقد ارتابوا فيه كثيراً لكنه لم يكن هو القاتل. ثم اعتقلوا شاباً آخر اسمه بيرت وليامز، لكنه في حالتين من تلك الحالات كان مسافراً بعيداً ولذلك لم يكن هو. ثم أخيراً جاء هذا... ما اسمه... لا أتذكره

الآن. كان فتى وسيماً جداً لكنه كان صاحب سجل جنائي سيء. نعم، سرقات وتزوير شيكات وكل هذه الأشياء... وقد اعتدى على فتاتين قبلها.

- هل كانت هذه الفتاة حاملاً؟

- نعم، وظننا في البداية عندما اكتشفوا جثتها أنها قد تكون جثة نورا برود، وهي ابنة أخي السيدة برود صاحبة المطحنة. كانت تخرج مع الأولاد كثيراً، وقد خرجت من بيتها وفُقدت بالطريقة ذاتها ولم يعرف أحدٌ مكانها، ولذلك فعندما ظهرت هذه الجثة بعد ستة أشهر ظنوا في البداية أنها جثتها.

- لكنها لم تكن جثتها؟

- نعم، بل جثة فتاة أخرى.

- وهل ظهرت جثتها؟

- لا ، وإن كنت أظن أنها ستظهر في يوم من الأيام. إنهم يظنون أنها ألقيت في النهر، لا أحد يعرف الحقيقة. ربما كانت مدفونة تحت التراب في أحد الحقول أو في مكان يشبهه. لقد أخذوني ذات مرة لرؤية ذلك الكنز في لوتون لو... أو اسم يشبهه. كان ذلك مكاناً في المقاطعات الشرقية حيث كان كنز جميل مدفوناً في أحد الحقول؛ سفن من ذهب كسفن القراصنة وطبق من ذهب، طبق كبير... لا أحد يدري، قد تكشفين جثة في أحد الأيام أو تكشفين طبقاً من ذهب! وقد يكون عمر ذلك الطبق مئات السنين أو قد يكون جثة طفل عمره ثلاث سنوات أو أربع، كماري لوكاس التي ظلت جثتها مفقودة أربع سنوات ثم عثروا عليها في مكان قرب ريجيت. إنها حياة محزنة،

نعم، إنها حياة محزنة جداً، لا تعرفين ما ينتظرك فيها.

- كانت تعيش هنا فتاة أخرى، أليس كذلك؟ الفتاة التي قُتلت.

- تقصدين صاحبة الجثة التي اعتقدوا في البداية أنها جثة نورا برود؟ نعم، لقد نسيت اسمها الآن، كان اسماً من تلك الأسماء التي لا تُستخدم كثيراً هذه الأيام. عاشت في بيت العزبة القديمة، ظلت هناك فترة من الزمن بعد مقتل والديها.

- مات والداها في حادث، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، في حادث طائرة كانت في طريقها إلى إسبانيا أو إيطاليا.

- وهل قلت إنها جاءت للعيش هنا؟ هل هم أقارب لها؟

- لا أعرف إن كانوا أقارب لها أم لا، لكن السيدة غلين كانت صديقة حميمة لأمها أو شيئاً من هذا. وقد تزوجت السيدة غلين بالطبع وسافرت إلى الخارج، لكن الآنسة كلوتيلد... أختها الكبرى، كانت تحب الفتاة كثيراً. أخذتها معها إلى الخارج، إلى إيطاليا وفرنسا وأماكن كثيرة، وعلمتها الطباعة على الآلة الكاتبة والاختزال مع دروس في الفن... كانت الآنسة كلوتيلد ذات ذوق فني وكانت تحب الفتاة كثيراً، وقد انكسر فؤادها عندما اختفت... بعكس الآنسة آنثيا.

- الآنسة آنثيا هي الأخت الصغرى، أليس كذلك؟

- بلى، وبعض الناس يقولون إن قواها العقلية ليست على ما يرام. تفكيرها مشوش ومضطرب، وأحياناً تشاهدينها تمشي وهي

تتحدث مع نفسها وتحرك رأسها بطريقة غريبة جداً، وأحياناً يخاف منها الأطفال. يقولون إنها غريبة الأطوار، لا أدري. إن المرء يسمع كل شيء في القرية. عمها الكبير الذي عاش هنا من قبل كان غريب الأطوار هو الآخر، كان يتدرب على استخدام المسدس والرماية في الحديقة ولم يوجد أي سبب يدعوه لذلك، وكان يقول إنه معجب بمهارته في الرماية.

- لكن الآنسة كلوتيلد ليست غريبة الأطوار؟

- آه، بالعكس، إنها ذكية. أظن أنها تعرف اللاتينية والإغريقية، وكانت تتمنى أن تذهب إلى الجامعة ولكن توجّبَ عليها رعاية أمها المريضة منذ زمن طويل. لكنها كانت تحبّ الآنسة... لا أتذكر اسمها. كانت تحبها كثيراً وقد عاملتها كابنة لها. ثم جاء هذا الشاب مايكل، أظن أن هذا هو اسمه، ثم خرجت الفتاة ذات يوم دون أن تقول كلمة لأحد. لا أعرف إن كانت الآنسة كلوتيلد تعرف أنها كانت حاملاً.

قالت الآنسة ماربل: لكنك كنت تعرفين؟

- آه، لديّ خبرة جيدة وأعرف في العادة عندما تكون الفتاة حاملاً. إنها مسألة واضحة للعيان، ليس شكل الجسم فقط وإنما تعرفين ذلك من النظر إلى عينيها والطريقة التي تمشي بها وتجلس، ومن نوبات الدوار التي تصيبها والغثيان من وقت لآخر... آه، نعم، لقد فكرت في نفسي أنها واحدة منهن. وقد طلبوا من الآنسة كلوتيلد أن تذهب وتتعرف على الجثة، وأصابها ذلك بانهيار عصبي تقريباً. بقيت أسابيع بعدها وهي في حالة نفسية مختلفة، لقد كانت تحب تلك الفتاة كثيراً.

- والأخرى... الآنسة آنثيا؟

- الغريب في أمر آنثيا أنها بدت وكأنها مسرورة. إنه ليس موقفاً لطيفاً، أليس كذلك؟ كانت ابنة البستاني بلامر هكذا... كانت دائماً تذهب وترى قتل الخنازير وتستمتع بذلك... أشياء غريبة تحدث في بعض العائلات!

ودّعتها الآنسة ماربل، ورأت أن لديها عشر دقائق أخرى قبل موعد الجلسة فذهبت إلى مكتب البريد. كان مكتب البريد ومخزن جوسلين سينت ميري في شارع متفرع عن ساحة السوق. دخلت الآنسة ماربل مكتب البريد واشترت بعض الطوابع وشاهدت بعض بطاقات المعايدة، ثم حولت انتباهها إلى الكتب المختلفة. كانت تقف وراء طاولة الاستقبال امرأة ذات وجه نكد تبدو في أواسط عمرها، وساعدت الآنسة ماربل في إخراج أحد الكتب من الحزام المطاطي الذي يلف الكتب وهي تقول: أحياناً يصعب إخراج هذه الكتب، الناس لا يعيدونها إلى مكانها الصحيح.

لم يكن في المكتب أحد غيرها في تلك اللحظة، ونظرت الآنسة ماربل إلى غلاف الكتاب باستياء؛ فتاة متكشّفة على وجهها بقع دماء ويميل عليها رجل قاتل شرير وبيده سكين ملطخة بالدماء. قالت: لا أحب هذه الأشياء المخيفة التي تحدث اليوم.

قالت السيدة: لقد تمادوا كثيراً في بعض أغلفة كتبهم. هذا لا يروق للكثيرين، ولكن كثيراً من الناس يحبون العنف في هذه الأيام.

أخذت الآنسة ماربل كتاباً آخر وقرأت عنوانه: «ما حدث للطفلة جين». قالت: يا إلهي! إننا نعيش في عالم حزين.

- آه، نعم، أعرف. لقد قرأت في صحيفة الأمس عن امرأة تركت طفلتها خارج أحد المحلات فجاء شخص واختطفها، هكذا بلا سبب محدد. لكن الشرطة عثروا عليها. يبدو أنهم يقولون الكلام نفسه دائماً سواء أكان المسروق غرضاً من المحل أم طفلاً، يقولون إنهم لا يعرفون ما الذي استبدّ بهم.

قالت الآنسة ماربل: ربما كانوا لا يعرفون فعلاً.

بدت السيدة أكثر نكداً من قبل وقالت: لا أصدق هذا.

نظرت الآنسة ماربل حولها. ما زال مكتب البريد خالياً، وتقدمت نحو النافذة قائلة: لا أدري إن كان بوسعك -إن لم تكوني مشغولة- أن تجيبي على سؤال لي. لقد قمت بعمل غبي جداً، لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء في السنوات الأخيرة. إنه طرد أرسلته إلى إحدى الجمعيات الخيرية، لقد أرسلت لهم ملابس... سترات ومنسوجات صوفية للأطفال، وقد وضعتها في طرد وكتبت عليه العنوان وأرسلته... وصباح اليوم فقط تذكّرت فجأة أنني ارتكبت خطأ وكتبت عنواناً خاطئاً. لا أعتقد أنكم تحتفظون بقائمة بالعناوين التي تُرسَل الطرود إليها، لكنني اعتقدت أنني ربما وجدت شخصاً يتذكر العنوان. إن العنوان الذي كنت أنوي أن أرسله إليه هو مؤسسة دوكيارد وتايمس سايد الخيرية.

صارت السيد لطيفة تماماً وقد تأثرت من عجز الآنسة ماربل الواضح وشيخوختها، قالت: هل أحضرتِ الطرد بنفسك؟

- لا، إنني أقيم في بيت العزبة القديمة، وأظن أن السيدة غلين قالت إنها سترسله بنفسها أو بواسطة أختها. كان عملاً لطيفاً منها...

- دعيني أبحث قليلاً. يمكن أن يكون ذلك يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟ لم تكن السيدة غلين هي التي أحضرته بل أختها الصغرى الآنسة آنثيا.

- نعم، أظن أن ذلك هو اليوم الذي...

- أتذكّره جيداً، في علبة ملابس كبيرة الحجم... وكان وزنه معتدلاً كما أظن. ولكن العنوان لم يكن مؤسسة دوكيارد... لا أتذكر شيئاً كهذا أبداً. كان مرسَلاً إلى ريفيرند ماثيوس، جمعية إيستهام الخيرية.

قالت الآنسة ماربل وهي تصفق بيديها علامة على ارتياحها: آه، نعم. كم أنت ذكية! عرفت الآن كيف أخطأت، لقد أرسلت أغراضاً من قبل إلى جمعية إيستهام في عيد الميلاد استجابة لمناشدتها في دعمها بالمنسوجات الصوفية لتقديمها للمحتاجين، ولذلك لا بد أنني نقلت العنوان خطأً. هل يمكنك أن تعيدي على مسامعي هذا العنوان؟

كتبت العنوان في دفتر صغير.

- أخشى أن يكون الطرد قد أُرسل، برغم أن...

- آه، نعم، لكني أستطيع أن أكتب لهم وأشرح الخطأ وأطلب منهم أن يرسلوا الطرد إلى مؤسسة دوكيارد بدلاً من مؤسستهم. أشكرك كثيراً.

* * *

خرجت الآنسة ماربل من المكتب بخطوات متثاقلة. وأخرجت

السيدة طوابع لتعطيها للزبون التالي وهي تقول لزميلة لها في الداخل: مسكينات هؤلاء العجائز، إنهن مشوشات التفكير! أظن أنها تقع في مثل هذه الأخطاء دائماً.

خرجت الآنسة ماربل من مكتب البريد وركضت إلى حيث يقف إيملين برايس وجوانا كراوفورد. لاحظت أن جوانا كانت شاحبة جداً وتبدو مضطربة وقالت: يجب أن أدلي بشهادتي. لا أعرف ماذا سيسألوني... أنا خائفة، إنني... إنني لا أحب ذلك. لقد أخبرت رقيب الشرطة، أخبرته بما اعتقدت أننا رأيناه.

قال إيملين برايس: لا تقلقي يا جوانا؛ إنها جلسة تحقيق فقط. إن قاضي التحقيق رجل لطيف وأظن أنه طبيب، سيسألك بضع أسئلة فقط وستصفين ما رأيتِه.

قالت جوانا: أنت رأيت ذلك أيضاً.

- نعم، رأيته، على الأقل شاهدت شخصاً في أعلى الهضبة قرب الصخور. هوّني عليك يا جوانا.

قال جوانا: لقد جاؤوا وفتشوا غرفنا في الفندق. طلبوا منّا الإذن، ولكنهم كانوا يحملون معهم إذناً بالتفتيش. لقد فتشوا غرفنا وأمتعتنا.

قالت الآنسة ماربل: أظن أنهم كانوا يبحثون عن تلك السترة التي وصفتِها لهم. على أية حال لا يوجد ما تقلقين بشأنه، فلو كانت لديك أنت نفسك سترة سوداء وقرمزية لما تحدثت عنها. كانت سوداء وقرمزية، أليس كذلك؟

قال إيملين برايس: لا أعرف، حقيقة لا أعرف ألوان الأشياء جيداً. أظن أنها كانت ذات لون زاه، هذا كل ما أعرفه.

قالت جوانا: لم يعثروا على أي واحدة، لا أحد منّا يحمل معه ثياباً كثيرة، لا أحد يفعل ذلك في مثل هذه الرحلات. لم يجدوا سترة بهذا اللون بين أغراض أي واحد منّا، كما أنني لم أشاهد أي واحد من أفراد المجموعة التي معنا وهو يلبس مثلها حتى هذه اللحظة. هل رأيت أنت؟

قال إيملين برايس: لا، لم أر، لكني أعتقد... لا أعرف إن كنت سأنتبه لو رأيت مثل تلك السترة أصلاً، فأنا لا أميز الأحمر من الأخضر دائماً.

- أنت مصاب بشيء من عمى الألوان، لقد لاحظت ذلك عليك بالأمس.

- ماذا تعنين بقولك إنك لاحظت ذلك؟

- لفحتي الحمراء. سألتك إن كنت قد رأيتها فقلت إنك رأيت لفحة خضراء في مكان ما، ثم أحضرت لي اللفحة الحمراء. لقد نسيتها في قاعة الطعام. لكنك لم تعرف حقاً أنها كانت حمراء.

- حسناً، لا تخبري أحداً أنني مصاب بعمى الألوان. لا أحب ذلك، فهو قد ينفّر الناسَ مني بطريقة ما.

قالت جوانا: الرجال يصابون بعمى الألوان أكثر من النساء، إنه أحد الأمراض التي ترتبط بجنس الإنسان. إن الإناث ينقلنه ويظهر في الذكور.

قال إيملين برايس: أنت تجعلينه يبدو وكأنه مرض الحصبة. حسناً، ها قد وصلنا.

قالت جوانا وهم يصعدون الدرج: يبدو عليك الاهتمام؟

- أنا لم أحضر جلسة تحقيق من قبل، الأشياء تبدو مثيرة عندما يفعلها المرء للمرة الأولى.

* * *

كان الدكتور ستوكس في وسط العمر يضع نظارات وقد وخطه الشيب. تم تقديم شهادة الشرطة في البداية ثم شهادة الطبيب الشرعي مع التفصيلات الفنية المتعلقة بإصابات الجمجمة والارتجاج التي سببت الوفاة. وقدمت السيدة ساندبورن تفصيلات عن رحلة الحافلة والرحلة التي تم التخطيط لها بعد ظهر ذلك اليوم، وتفصيلات عن كيفية وقوع الحادث. قالت إن الآنسة تيمبل رغم أنها ليست صغيرة في السن إلاّ أنها كانت سريعة المشي، وكانت المجموعة تسير على طريق للمشاة معروف كان يدور حول هضبة ويرتفع ببطء حتى يصل إلى كنيسة مورلاند التي بُنيت أصلاً في العصر الإليزابيثي رغم إصلاحها والإضافة عليها بعد ذلك. ويوجد على قمة قريبة منها ما يسمى برج بونافينتشر التذكاري، وهو على أرض منحدرة يتسلقها الناس بصعوبة ويتفاوتون في السرعة، فالشباب يصعدونها ركضاً -في العادة- أو يسبقون الآخرين ويصلون إلى وجهتهم بشكل أسرع، أما كبار السن فيصعدون ببطء شديد. وكانت هي تظل في المؤخرة حتى تشير إن لزم الأمر على من يتعب بالعودة إن شاء. وقالت إن الآنسة تيمبل كانت تتحدث مع السيد باتلر وزوجته، ورغم أن الآنسة تيمبل كانت

تتجاوز الستين من العمر إلاّ أن صبرها نفد قليلاً بسبب مشيتهما البطيئة فسبقتهما واستدارت عند زاوية وتقدمت إلى الأمام بسرعة، وهو ما كانت تفعله من قبل كثيراً. كانت تميل لأن تفقد صبرها من انتظار الناس الذين يمشون وراءها حتى يلحقوا بها، وكانت تفضل السير بمشيتها السريعة الخاصة. وقد سمعوا صرخة في الأمام فأسرعت هي (أي الشاهدة) والآخرون ووصلوا إلى المنعطف فوجدوا الآنسة تيمبل ممددة على الأرض، وكان هناك صخرة كبيرة هوت من جانب الهضبة التي كانت أعلى الطريق حيث كانت توجد عدة صخور غيرها من نفس النوع، وتوقعوا أن تكون قد تدحرجت عن جانب الهضبة وأصابت الآنسة تيمبل بينما كانت تسير على الطريق أسفل الهضبة. كان حادثاً مأساوياً محزناً.

سألها قاضي التحقيق: ألم يخطر لك عندها أي شيء يشير إلى أن الحادث قد لا يكون عرضياً؟

- لا أستطيع تخيل أي احتمال آخر غير الحادث العرضي.

- ألم تشاهدي أحداً فوقكم على جانب التلة؟

- أبداً. هذا هو الطريق الرئيسي الذي يدور حول الهضبة، ولكن هناك أناس يتجولون طبعاً على قمتها. ولكني لم أرَ أحداً في تلك الساعة بالتحديد.

ثم استُدعيت جوانا كراوفورد، وبعد أن أعطت معلومات كاملة عن اسمها وعمرها سألها الدكتور ستوكس: أكنت تسيرين مع بقية المجموعة؟

- لا ، لقد خرجنا عن الطريق فالتففنا حول الهضبة في مكان فوق المنحدر بقليل.

- هل كنت تمشين مع رفيق؟

- نعم، مع السيد إيملين برايس.

- أكان أحد آخر يسير معكما؟

- لا ، كنا نتكلم وننظر إلى الأزهار، فقد بدت لنا من نوع غير معروف لدينا. إن إيملين مهتم بالنباتات.

- هل ابتعدتما عن أنظار بقية المجموعة؟

- ليس طول الوقت، كانوا يسيرون على الطريق الرئيسي أسفل منّا.

- هل رأيت الآنسة تيمبل؟

- أظن ذلك، كانت تسير أمام الآخرين وأظن أنني رأيتها وهي تلتف عند إحدى الزوايا على الطريق أمامهم، حيث لم نرها بعد ذلك لأن محيط الهضبة كان يحجبها عنّا.

- هل شاهدت أحداً يسير فوقكم على جانب الهضبة؟

- نعم، أعلى منّا بين عدد كبير من الصخور. كانت هناك مجموعة كبيرة من الصخور على جانب الهضبة.

- نعم، أعرف المكان الذي تتحدثين عنه بالضبط، صخور غرانيتية كبيرة.

- أظن أنها قد تبدو مثل الأغنام من بعد لكننا لم نكن بعيدين جداً عنها.

- وقد رأيت أحداً هناك؟

- نعم، رأيت شخصاً كان في وسط الصخور تقريباً، يتكئ عليها.

- أتظنين أنه كان يدفعها؟

- نعم، لقد اعتقدت ذلك وتساءلت عن السبب. كان يبدو وكأنه يدفع صخرة قريبة من الحافة، وكانت صخوراً كبيرة جداً وثقيلة جداً وتوقعت أن من المستحيل دفعها وتحريكها، لكن الصخرة التي كان يدفعها (أو كانت تدفعها) بدت في وضع متأرجح يسهل معه تحريكها.

- كنت في البداية تتكلمين عن رجل أما الآن فتقولين كان أو كانت. برأيك هل هو رجل أو امرأة؟

- أظن... أظنني رأيته رجلاً، والواقع أنني لم أكن أفكر في ذلك عندئذ. كان أو كانت تلبس بنطالاً وسترة، سترة رجل ذات ياقة مرتفعة.

- وماذا كان لون السترة؟

- كان أحمر زاهياً وأسود على شكل مربعات، وكان يتدلى شعر طويل نسبياً من تحت شيء يشبه البيريه... بدا وكأنه شعر امرأة، لكنه قد يكون شعر رجل أيضاً.

قال الدكتور ستوكس بشيء من الجفاء: قد يكون بالتأكيد، إن

تمييز الرجل عن المرأة من الشعر لم يعد أمراً سهلاً في هذه الأيام. حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟

- بدأ الحجر يتدحرج. بدأ يسقط ببطء ثم ازدادت سرعته شيئاً فشيئاً، وقلت لإيملين: "إنه سيسقط أسفل الهضبة". ثم سمعنا صوت ارتطام عندما وصل إلى الأرض، وأظن أنني سمعت صرخة من أسفل ولكني ربما تخيلت ذلك.

- وبعد ذلك؟

- ركضنا إلى أعلى قليلاً واستدرنا عند إحدى زوايا الهضبة لرؤية ما حدث للصخرة.

- وماذا رأيتما؟

- رأينا الصخرة على الممر وتحتها جسد شخص... ورأينا أناساً قادمين مسرعين من عند الزاوية.

- هل كانت الآنسة تيمبل هي التي صرخت؟

- أظن أنها هي، وقد يكون واحداً من الذين كانوا يركضون. آه! لقد كان... لقد كان منظراً مرعباً.

- نعم، إنه كذلك بالتأكيد. وماذا حدث للشخص الذي شاهدتماه في أعلى الهضبة؟ الرجل أو المرأة صاحب السترة الحمراء والسوداء؟ هل بقي هناك بين الصخور؟

- لا أدري، فلم أرفع بصري لأنظر. كنت... كنت مشغولة بالنظر إلى الحادث وبالركض إلى أسفل الهضبة لرؤية ما يمكنني عمله. أظن أنني رفعت بصري فعلاً لكني لم أرَ أحداً هناك... الصخور

فقط. كان هناك الكثير من النتوءات الصخرية بحيث لا يمكن أن تتابع بنظرك أي شخص هناك.

- أيمكن أن يكون ذلك الشخص واحداً من الذين معك في الرحلة؟

- آه، لا. أنا واثقة من أنه ليس واحداً منا. كنت سأعرف ذلك، أقصد من ملابسه. أنا واثقة من أن أحداً لم يكن يلبس سترة قرمزية وسوداء.

- شكراً لك آنسة كراوفورد.

ثم نودي إيملين برايس بعدها، وكانت روايته نسخة طبق الأصل عن رواية جوانا. وقد تم الإدلاء بشهادات أخرى قليلة لكنها لم تكن ذات أهمية، وتوصل قاضي التحقيق إلى عدم وجود دليل كاف يوضّح كيفية وفاة إليزابيث تيمبل وأجّلَ التحقيق لمدة أسبوعين.

* * *

الفصل السابع عشر
الآنسة ماربل تقوم بزيارة

لم يتكلم أحد من المجموعة وهي في طريق عودتها من جلسة التحقيق إلى فندق غولدن بور. كان البروفسور وانستيد يسير بجانب الآنسة ماربل، وبما أنها لم تكن تمشي بخطوات سريعة فقد تخلفا عن أفراد المجموعة الآخرين.

سألته الآنسة ماربل أخيراً: ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- هل تقصدين من الناحية القانونية أم ماذا سيحدث لنا؟

- كلاهما، لأن الواحد يؤثّر على الآخر بالتأكيد.

- يفترض أن تكون قضية تتطلب من الشرطة القيام بالتحقيق فيها اعتماداً على ما أدلى به هذان الشابان.

- نعم.

- سيكون من الضروري إجراء المزيد من التحقيق. كان تأجيل جلسة التحقيق أمراً لا بد منه، فلا أحد يمكن أن يتوقع من قاضي

التحقيق إصدار حكم يقضي باعتبار الوفاة مجرد حادث عرَضي.

- نعم، لا أظن ذلك. ما رأيك بشهادتهما؟

نظر البروفسور وانستيد إليها نظرات حادة وقال بنبرة موحية: هل لديك أية أفكار حول هذا الموضوع يا آنسة ماربل؟ إننا نعرف مسبقاً ما كانا سيقولانه بالطبع.

- نعم.

- إن ما تقصدينه هو أنك تسألين عن رأيي بالشابين نفسيهما، عن شعورهما حول الحادث؟

- كان مثيراً، مثيراً جداً... السترة ذات المربعات الحمراء والسوداء. أظنها مهمة جداً، أليس كذلك؟ ملفتة للنظر.

- نعم، هكذا تماماً.

نظر إليها مرة أخرى بالنظرات الحادة نفسها وقال: ماذا توحي لك بالضبط؟

قالت الآنسة ماربل: أظن... أظن أن وصف تلك السترة قد يعطينا دليلاً قيّماً.

وصل الجميع إلى الفندق. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف فقط واقترحت السيدة ساندبورن تناول بعض المرطبات قبل الذهاب إلى الغداء، وفيما بدأ تقديم المرطبات شرعت السيدة ساندبورن في إعلان بعض الأمور: لقد نصحني كل من قاضي التحقيق والمفتش دوغلاس. بما أن شهادة الطبيب الشرعي قد أُخذت بشكل كامل فسوف تقام في الكنيسة غداً الساعة الحادية عشرة مراسم الدفن،

وسأقوم بترتيب الأمر مع السيد كورتني الكاهن المحلي. وأظن أنه من الأفضل لنا أن نستأنف الرحلة في اليوم التالي. سيتغير البرنامج قليلاً حيث فقدنا ثلاثة أيام، لكني أعتقد بإمكانية إعادة تنظيم برنامج الرحلة تنظيماً أكثر بساطة. لقد سمعت من بعض الزملاء معنا بأنهم يفضلون العودة إلى لندن بالقطار، وأنا أتفهّم تماماً المشاعر التي دفعتهم لذلك ولا أريد أن أحاول التأثير عليكم بأية طريقة. لقد كان هذا الحادث مؤسفاً جداً، وما زلت أشعر تماماً أن ما جرى للآنسة تيمبل كان حادثاً عرَضياً، ومثل هذا الحادث وقع من قبل على نفس ذلك الممر رغم أنه لا يوجد في هذه الحالة أي ظرف جيولوجي أو مناخي أحدثه. أظن أنه يتوجب عليهم القيام بمزيد من التحقيق. وبالطبع قد يكون أحد المتسلقين هو مَن دفع هذه الصخور بحسن نية دون أن يدرك خطر وجود شخص يسير أسفل منه، وإذا كان هذا ما حدث وتقدم هذا الشخص وأدلى باعترافاته فإن الحقيقة كلها ستتضح تماماً بسرعة، لكني لا أستطيع التسليم بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر، ويبدو أن من غير المحتمَل أن يكون للآنسة تيمبل أعداء أو أي شخص يرغب بإيقاع الأذى بها. إن ما أراه هو أن لا نناقش موضوع هذا الحادث بعد الآن؛ ستقوم السلطات المحلية بإجراء التحقيقات وهي المختصة بهذا العمل. أعتقد أننا جميعاً نود حضور الجنازة في الكنسية غداً، وبعد ذلك عندما نستأنف الرحلة فإنني آمل أن تنسينا أحداثُها مرارةَ الصدمة التي عشناها. ما زال هناك بعض البيوت الشهيرة والمثيرة لكي نراها إضافة إلى بعض المناظر الطبيعية الخلابة أيضاً.

أُعلن عن الغداء بعد ذلك بوقت قصير، ولم يعد أحدٌ يناقش الموضوع... علناً على الأقل. وبعد الغداء تناول الجميع القهوة في

الردهة وتحلّقوا في مجموعات صغيرة يناقشون ترتيباتهم وخططهم اللاحقة.

سأل البروفسور وانستيد الآنسة ماربل: هل ستواصلين الرحلة؟

ردت عليه الآنسة ماربل متأملة: لا، لا. أظن أن ما حدث يجعلني أميل لأن أبقى هنا بعض الوقت.

- في هذا الفندق أم في بيت العزبة القديمة؟

- الواقع أن هذا يعتمد على ما إذا كنت سأتلقى دعوة أخرى للعودة إلى بيت العزبة القديمة أو لا. لا أريد أن أقترح عليهن ذلك بنفسي لأن دعوتي الأصلية كانت لقضاء ليلتين فقط، وهي المدة التي كانت ستمكثها الرحلة هنا أصلاً. أظن أنه من الأفضل لي أن أبقى في الفندق.

- ألا تشعرين بالحنين إلى سينت ميري ميد؟

- ليس بعد. أظن أن بإمكاني عمل بعض الأشياء هنا، لقد عملت شيئاً واحداً منها. إذا كنتَ ستواصل رحلتك مع المجموعة فسوف أخبرك بما أركز اهتمامي عليه وأقترح إجراء تحقيق جانبي صغير قد يكون مساعداً. السبب الآخر الذي جعلني أبقى هنا سأخبرك به فيما بعد. هناك تحقيقات معينة، تحقيقات محلية أريد القيام بها. وقد لا تؤدي إلى أية نتيجة ولذلك أفضل عدم ذكرها الآن. وأنت؟

- أرغب بالعودة إلى لندن. لديّ هناك عمل ينتظرني، إلاّ إذا كان بإمكاني مساعدتك؟

قالت الآنسة ماربل: لا، لا أظن ذلك في الوقت الحالي. أظن أن لديك عدة تحقيقات تريد القيام بها بنفسك.

- لقد جئت إلى هذه الرحلة لمقابلتك يا آنسة ماربل.

- وقد قابلتني الآن، وأنت تعرف ما أعرفه، ولكن لديك تحرياتك الخاصة الأخرى التي تريد الإعداد لها. إنني أفهم هذا، ولكن قبل أن تغادر المكان هناك بعض الأمور قد تكون مساعدة وقد تعطي نتيجة.

- فهمت، لديك أفكار.

- إنني أتذكر ما قلته.

- ربما شممت رائحة الشر؟

- من الصعب معرفة معنى وجود شيء غير طبيعي في الجو.

- لكن تشعرين بالفعل أن في الجو شيئاً غير طبيعي؟

- آه، نعم. هذا واضح جداً.

- وخصوصاً بعد وفاة الآنسة تيمبل التي لم تكن حادثاً بالطبع بغض النظر عن آمال السيدة ساندبورن؟

قالت الآنسة ماربل: بالطبع لم تكن حادثاً. إن ما لم أخبرك به -كما أظن- هو أن الآنسة تيمبل قالت لي ذات مرة إنها جاءت في رحلة حج.

قال البروفسور: هذا مثير، نعم، إنه مثير. ألم تخبرك ما هي رحلة الحج هذه، إلى أين أو إلى من؟

- لم تفعل، ولو عاشت بعض الوقت ولم تكن بهذا الضعف لأخبرتني. ولكن لسوء الحظ، جاءتها المنيّة بسرعة.

- إذن ليست لديك أية أفكار أخرى حول هذا الموضوع؟

- لا، مجرد إحساس بالثقة من أن رحلة الحج التي قامت بها قد انتهت بواسطة خطة ماكرة خبيثة. يوجد شخص أراد أن يمنعها من الذهاب إلى حيث كانت ذاهبة أو يمنعها من الذهاب إلى شخص كانت تريد الذهاب إليه. لا يملك المرء إلاّ أن يتمنى أن يتيح له القدر معرفة هذا الأمر.

- وهل هذا هو السبب الذي ستبقين من أجله هنا؟

- ليس هو السبب الوحيد، فأنا أريد أيضاً معرفة المزيد عن فتاة تدعى نورا برود.

بدا متحيراً بعض الشيء وهو يقول: نورا برود؟

- الفتاة الأخرى التي اختفت في نفس الوقت تقريباً الذي اختفت فيه فيريتي هنت. أنت تذكر أنك ذكرتها لي، الفتاة التي كان لها أصدقاء كثيرون من الشباب وكانت مستعدة جداً لمصادقة الكثيرين غيرهم. فتاة حمقاء ولكن من الواضح أنها كانت جذابة بالنسبة للشبان. أظن أنني لو عرفت بعض الأشياء عنها فإن ذلك قد يساعدني في تحقيقاتي.

قال البروفيسور وانستيد: اعملي ما شئت أيتها المفتشة ماربل.

* * *

جرت مراسم الجنازة في صباح اليوم التالي، وحضرها جميع أفراد الرحلة. نظرت الآنسة ماربل حولها في الكنسية، فقد حضرها أيضاً العديد من سكان القرية. كانت هناك السيدة غلين وأختها كلوتيلد، أما الصغرى آنثيا فلم تحضر، وكان هناك بعض أهل القرية أيضاً. ربما لم يكونوا يعرفون الآنسة تيمبل لكنهم جاؤوا بدافع الفضول، وكان من بين الحاضرين رجل دين عجوز يزيد عمره على السبعين، وكان رجلاً عريض المنكبين أبيض الشعر. كان شبه مقعد ويجد صعوبة في الوقوف، وأحست الآنسة ماربل أنه صاحب وجه جميل وتساءلت عنه مَن يكون. رأت أنه ربما كان واحداً من أصدقاء إليزابيث تيمبل القدامى جاء من مسافة بعيدة لحضور جنازتها.

وبينما كانوا خارجين من الكنسية تبادلت الآنسة ماربل بضع كلمات مع زملاء رحلتها. لقد عرفت الآن جيداً ماذا سيفعل كل واحد، فهذا باتلر وزوجته سيعودان إلى لندن.

قالت الزوجة: لقد أخبرت هنري بأنني لا أستطيع مواصلة الرحلة. أعتقد أنني في أية لحظة أمشي فيها عند زاوية معينة قد يلقي شخصٌ علينا حجراً أو يقتلنا بالرصاص... شخص يُكِنّ حقداً على مكتب السفريات المسؤول عن رحلتنا.

قال السيد باتلر: ما بك يا مامي؟ لا تذهبي بخيالك إلى هذا الحد.

- أنت لا تعرف ما يحدث في هذه الأيام. خاطفو الطائرات وخاطفو الناس ومثل هذه الأشياء... في الحقيقة أكاد لا أشعر بالأمان في أي مكان.

أما العجوز الآنسة لوملي والآنسة بنتهام فسوف تواصلان الرحلة، فقد تلاشت مخاوفهما: لقد دفعنا مبلغاً كبيراً للمشاركة في هذه الرحلة ويبدو مؤسفاً أن يفوتنا شيء بسبب هذا الحادث المحزن فقط. لقد اتصلنا بجيراننا الطيبين الليلة الماضية وسوف يهتمون بأمر القطط، لذلك لا حاجة للقلق.

سيبقى الأمر في نظر الآنسة لوملي والآنسة بنتهام مجرد حادث، فقد قررتا أن اعتباره حادثاً يجلب لهن الراحة أكثر. وكانت السيدة رايسلي بورتر قد قررت الاستمرار في الرحلة أيضاً. والكولونيل وولكر وزوجته قررا أنه لا يوجد شيء يمكن أن يثنيهما عن متابعة الرحلة ورؤية الحديقة الجميلة التي سيذهبون إليها في اليوم التالي. كما أن المعماري جيمسون كان منساقاً وراء رغبته في رؤية المباني المختلفة ذات الأهمية الخاصة بالنسبة له، أما السيد كاسبر فقد قال إنه سيغادر بالقطار. ولم تقرر الآنسة كوك والآنسة بارو ما ستفعلانه بعد.

قالت الآنسة كوك: المشي هنا جميل جداً، وأظن أننا سنبقى في فندق غولدن بور لبعض الوقت. هذا ما ستفعلينه أنت يا آنسة ماربل، أليس كذلك؟

- إنني أفكر بذلك فعلاً. لا أشعر بالقدرة على الاستمرار في هذه الرحلة، إن يوماً من الراحة أو يومين قد يساعدني بعد الذي حدث.

وعندما افترق الحشد الصغير سارت الآنسة ماربل في طريق خاص بها. أخرجت من حقيبتها ورقة من أوراق دفتر ملاحظاتها كانت قد دونت فيها عنوانين، الأول عنوان امرأة تدعى السيدة بلاكيت

كانت تعيش في بيت صغير جميل له حديقة ويقع عند طرف الطريق الذي ينحدر من هناك باتجاه الوادي. وفتحت البابَ امرأةٌ صغيرة الجسم أنيقة الثياب.

- السيدة بلاكيت؟

- نعم، هذا هو اسمي.

- هل يمكنني الدخول للحديث معك لبعض الوقت؟ لقد جئت من الجنازة وأشعر ببعض الدوار، هل لي بالجلوس عندك لبعض الوقت؟

- يا إلهي، آه، أنا آسفة لهذا. ادخلي بسرعة يا سيدتي، ادخلي هنا. هذا صحيح، اجلسي هنا. سأحضر لك كأساً من الماء... أم تريدين كوباً من الشاي؟

قالت الآنسة ماربل: أشكرك، كأس من الماء سينعشني أكثر.

عادت السيدة بلاكيت ومعها كأس من الماء، واستعداد رائع للخوض في أحاديث الأمراض والدوار والأشياء الأخرى. قالت: لدي ابن أخ مثلك. إنه لا يزيد عن الخمسين عاماً بكثير لكنه يدوخ من وقت لآخر فجأة، وما لم يجلس على الفور فإنه يقع على الأرض مغمياً عليه. حالته فظيعة، فظيعة، ويبدو أن الأطباء غير قادرين على عمل أي شيء له. ها هو كأس الماء، تفضلي.

قالت الآنسة ماربل وهي ترشف الماء: آه، أشعر الآن بتحسن كبير.

- هل كنت في جنازة السيدة المسكينة التي يقول البعض إنها

قُتلت فيما يقول آخرون إنه مجرد حادث؟ أنا أعتقد أنه حادث، لكن هذه التحقيقات وهؤلاء القضاة يريدون جعل الأمور تبدو جنائية دائماً.

- آه، نعم. كنت أشعر بالأسف الشديد على سماع هذه الأشياء في الماضي. لقد سمعت الكثير عن فتاة تدعى نورا... أظن أن اسمها نورا برود.

- آه، نورا، نعم. كانت ابنة ابن عمي، نعم. لقد حدث ذلك منذ وقت طويل، خرجت ولم تعد بعدها أبداً. هؤلاء الفتيات لا شي يمنعنهن... لقد قلت مراراً لنانسي برود (وهي أمها وزوجة ابن عمي) قلت لها: "إنك تخرجين للعمل طول النهار، فماذا تفعل نورا في غيابك؟ تعرفين أنها تميل إلى مصاحبة الأولاد. ستحدث مشكلات، سوف ترين كيف ستقع المشكلات"... وقد حدث ما قلت بالتأكيد.

- تقصدين...؟

- المشكلة المعتادة. نعم، حملت. ولكن لا أظن أن زوجة ابن عمي كانت تعرف بالأمر. لكني في الخامسة والستين من عمري وأعرف -طبعاً- حقيقة الأمور وكيف تبدو الفتاة عندما تكون حاملاً، وأظن أنني أعرف من هو صديقها الذي حملت منه لكني لست واثقة، قد أكون مخطئة، لأنه بقي يعيش في المنطقة وقد حزن كثيراً عندما فُقدت نورا.

- تقولين إنها رحلت؟

- قبلت أن يحملها شخص بسيارته... شخص غريب، وكانت تلك آخر مرة شوهدت فيها. لقد نسيت نوع السيارة الآن، كان اسمها

غريباً... سيارة أوديت أو شيئاً كهذا. على أية حال فقد شوهدت قبلها في تلك السيارة مرة أو مرتين، ثم رحلت فيها. وقيل إنها السيارة نفسها التي كانت تركبها تلك الفتاة المسكينة التي قُتلت، لكني لا أظن أن ذلك ما حدث لنورا أيضاً. لو أن نورا قُتلت لكانت جثتها قد ظهرت خلال هذه المدة. ألا ترين ذلك؟

- يبدو ذلك مرجَّحاً بالتأكيد. هل كانت فتاة ذكية ومجتهدة في دروسها؟

- آه، لا، لم تكن كذلك. كانت كسولة ولم تكن ذكية في دروسها. لا، كانت تهتم فقط بمصاحبة الأولاد منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. أظن أنها رحلت في النهاية مع واحد منهم إلى الأبد، لكنها لم تخبر أحداً ولم ترسل حتى بطاقة معايدة. أظن أنها رحلت مع شخص وعدها بأشياء ومشتريات، وأنت تعرفين كيف تركض الفتيات وراء سراب الرجال. حدث ذلك منذ سبع سنوات تقريباً، لكني أظن أنها ستعود يوماً ما بعد أن تتعلم من دروسها وتكتشف أن كل هذه الوعود المعسولة لا تتحقق قط.

سألتها الآنسة ماربل: هل كانت تعرف أي شخص تذهب إليه هنا ما عدا... ما عدا أمها، أقصد زوجة ابن عمك... أي واحد؟

- الكثيرون كانوا يكرمونها. مثلاً السيدات اللائي يعشن في بيت العزبة القديمة، لم تكن السيدة غلين تعيش هناك وقتها ولكن الآنسة كلوتيلد كانت تحسن لفتيات المدرسة دائماً. نعم، لقد أهدت نورا الكثير من الهدايا الجميلة، أهدتها لفحة جميلة جداً وثوباً جميلاً أيضاً. كان ثوباً جميلاً جداً، ثوباً صيفياً من حرير الفولار. كانت كريمة جداً الآنسة كلوتيلد هذه وكانت تحاول حمل نورا على الاهتمام

بدروسها أكثر، وقد نصحتها بعدم الاستمرار في الطريق الذي كانت تسلكه لأن سلوكها وخروجها مع الشبان عمل مخجل ورهيب. ما كان ينبغي أن أقول هذا عنها وهي ابنة لابن عمي، لكن كان أي شاب يستطيع أخذها... أمر محزن جداً. كنت أقول إنها ستخرج إلى الشوارع في النهاية، ولا أعتقد أن لها مستقبلاً غير هذا. لا أحب أن أقول هذه الأشياء لكنها الحقيقة.

سكتت قليلاً ثم قالت: على أية حال ربما كان ذلك أفضل من أن تُقتل كما قُتلت الآنسة هنت التي كانت تعيش في بيت العزبة القديمة. كانت جريمة وحشية، اعتقدوا أنها رحلت مع شاب وانشغل الشرطة بالبحث عنها. كانوا يسألون عنها ويطلبون من الشبان الذين كانوا مع الفتاة مساعدتهم في التحقيق والبحث عنها، واعتقلوا جيوفري غرانت وبيلي ثومسون وهاري لاندفورد، وكلهم عاطلون عن العمل... مع وجود كثير من الوظائف المتاحة لهم لو كانوا يريدون العمل فعلاً. لم تكن الأمور هكذا عندما كنت صغيرة، كانت الفتيات يتصرفن بطريقة لائقة مستقيمة وكان الأولاد يعرفون أن عليهم أن يعملوا ويجتهدوا إن كانوا يريدون تحقيق أي هدف في الحياة.

تحدثت الآنسة ماربل قليلاً وقالت إنها قد استعادت الآن قوتها، وشكرت السيدة بلاكيت وخرجت. كانت زيارتها التالية لفتاة كانت تزرع الخس في حديقة بيتها.

- نورا برود؟ إنها خارج القرية منذ سنوات. لقد رحلت مع شاب، كانت تصاحب كثيراً من الأولاد وكنت أتساءل دائماً أين سينتهي بها المطاف. هل كنت تريدينها لسبب معين؟

قالت الآنسة ماربل غير صادقة: لديّ رسالة من صديقة في

الخارج. إنها من عائلة لطيفة جداً، وكانت تفكر في تشغيل الآنسة نورا برود. أظن أنها كانت في ورطة، تزوجت شخصاً سيء السلوك ثم تركها ورحل مع امرأة أخرى فأرادت أن تعمل في مجال رعاية الأطفال. لم تكن صديقتي تعرف عنها شيئاً، لكني أظن أنها من هذه القرية، لذلك تساءلت عمّن يمكن أن يخبرني عنها بشيء. أظن أنك كنت معها في المدرسة؟

- آه، نعم؛ وكنّا في الفصل ذاته أيضاً. لكن لم أكن راضية عن تصرفات نورا كلها، فقد كانت مجنونة بالشباب. كان لي صديق لطيف أخرج معه باستمرار في ذلك الوقت ولا أخرج مع غيره، وأخبرتها ذات مرة بأنها تضرّ نفسها عندما تخرج مع أي شاب يعرض عليها توصيلة بسيارته أو يأخذها إلى إحدى الحانات حيث كانت تكذب عليهم بخصوص عمرها. كانت تبدو أكبر من سنّها الحقيقي.

- هل كانت سمراء أم شقراء؟

كانت سوداء الشعر. كان شعرها جميلاً وكانت تتركه طليقاً دوماً.

- وهل بحث الشرطة عنها بعد اختفائها؟

- نعم، فهي لم تترك أي رسالة وراءها أو تخبر أحداً. خرجت ذات ليلة هكذا ولم تعد، وقد شوهدت وهي تركب سيارة، لكن لم يرَ أحدٌ السيارةَ بعد ذلك ولم يرَها أحد هي أيضاً. وفي ذلك الوقت وقعت عدة جرائم قتل، ليس في هذه المنطقة على وجه الخصوص ولكن في جميع أنحاء الريف. كان الشرطة يستجوبون الكثير من الشبان والأولاد، واعتقدنا بأن إحدى الجثث هي جثة نورا لكنها لم

تكن هي. كانت بأتمّ حال ولا أرى إلاّ أنها موجودة في لندن تكوّن ثروة كبيرة هناك أو في إحدى المدن الكبيرة ترقص في الملاهي الليلية... هذا ما كانت ستؤول إليه.

قالت الآنسة ماربل: إن كانت كما تقولين فلا أظن أنها تناسب صديقتي.

قالت الفتاة: إذا أرادت أن تكون مناسبة فيجب أن تغيّر سلوكها تماماً.

* * *

الفصل الثامن عشر
رئيس القساوسة برابازون

عندما عادت الآنسة ماربل إلى الفندق مجهدة لاهثة بعض الشيء جاءت موظفة الاستقبال إليها لتحيتها: الآنسة ماربل، يوجد هنا شخص يريد أن يتكلم معك، إنه رئيس القساوسة برابازون.

بدت الآنسة ماربل دَهِشة وهي تقول: رئيس القساوسة برابازون؟

- نعم، كان يحاول العثور عليك. لقد سمع عن وجودك في هذه الرحلة وأراد أن يتحدث معك قبل أن تغادري إلى لندن. وأخبرته بأن بعض المشاركين في الرحلة سيعودون إلى لندن في قطار بعد ظهر اليوم لكنه مهتم جداً جداً بالحديث معك قبل ذهابك. لقد طلبت منه الانتظار في قاعة التلفزيون فالمكان هناك أكثر هدوءاً، أما القاعة الأخرى فهي مزعجة في هذه اللحظة.

ذهبت الآنسة ماربل إلى تلك القاعة وقد بدت عليها بعض علامات الدهشة. ظهر أن رئيس القساوسة برابازون هو رجل الدين العجوز الذي رأته في الكنيسة في أثناء مراسم الجنازة، وقد نهض من

مجلسه وجاء إليها قائلاً: الآنسة ماربل، جين ماربل؟

- نعم أنا.

- أنا رئيس القساوسة برابازون. لقد جئت إلى هنا هذا الصباح لحضور جنازة صديقة قديمة لي هي الآنسة إليزابيث تيمبل.

- آه، نعم. اجلس من فضلك.

- أشكرك، سأجلس، فلم أعد قوياً كما كنت.

ثم جلس على كرسي بحذر شديد وقال: وأنت...

جلست الآنسة ماربل بجانبه. قالت: نعم، هل أردت رؤيتي؟

- يجب أن أوضح لك كيف حدث ذلك. أعرف تماماً أنني غريب بالنسبة لك، والواقع أنني قمت بزيارة قصيرة إلى المستشفى في كاريستاون وتحدثت مع مديرة المستشفى قبل أن أذهب إلى الكنسية هنا، وهي التي أخبرتني بأن اليزابيث طلبت قبل وفاتها رؤية زميلة لها في الرحلة، الآنسة جين ماربل، وأن الآنسة جين ماربل قد زارتها وجلست معها لوقت قصير جداً... قبل أن تموت إليزابيث.

نظر إليها بلهفة، فقالت: نعم، هذا ما حصل. لقد أدهشتني أن تطلب مني الحضور.

- وهل أنت صديقة قديمة لها؟

- لا، لقد التقيت بها في هذه الرحلة فقط، وهذا ما أدهشني. لقد تبادلنا بعض الأفكار معاً وكنّا نجلس أحياناً معاً في الحافلة وتعارفنا. لكني دهشت لأنها طلبت رؤيتي وهي تحتضر.

- نعم، نعم، أتخيل هذا. كانت -كما قلت لك- صديقة لي منذ وقت طويل، والواقع أنها كانت قادمة لرؤيتي وزيارتي. إنني أعيش في فيلمنستر حيث ستتوقف حافلتكم بعد غد، وقد اتفقنا على أن تقوم بزيارتي هناك حيث أرادت أن تتحدث معي بخصوص عدة أمور كانت ترى أن بإمكاني مساعدتها فيها.

- فهمت، وهل لي أن أسألك سؤالاً؟ أرجو أن لا يكون سؤالاً شخصياً.

- بالطبع يا آنسة ماربل، سليني ما بدا لك.

- إن أحد الأشياء التي قالتها الآنسة تيمبل لي هو أن وجودها في الرحلة لم يكن فقط بسبب رغبتها في رؤية البيوت التاريخية والحدائق. لقد وصفت السبب بكلمة من الغريب استعمالها، حيث قالتها إنها «رحلة حج».

- أحقاً قالت ذلك؟ نعم، هذا مثير، وربما كانت له دلالة معينة.

- لذلك فإن سؤالي هو: هل تظن أن رحلة الحج التي تكلمت عنها هي زيارتها لك؟

- لا بد أن تكون كذلك. نعم، أظن هذا.

قالت الآنسة ماربل: كنّا نتحدث عن فتاة صغيرة، فتاة تدعى فيريتي.

- آه، نعم، فيريتي هنت.

- لم أكن أعرف اسم عائلتها. أظن أن الآنسة تيمبل أشارت إليها باسم فيريتي فقط.

- فيريتي هنت ماتت، ماتت قبل سنوات عديدة. هل كنت تعرفين هذا؟

- نعم، عرفت. كنت أتحدث مع الآنسة تيمبل عنها وأخبرتني الآنسة تيمبل بشيء لم أكن أعرفه، قالت إنها كانت مخطوبة لابن السيد رافائيل وتريد الزواج به. وكان السيد رافائيل صديقاً لي، وهو الذي دفع تكاليف هذه الرحلة كرماً منه، وأظن أنه كان يريد أو كان ينوي دفعي إلى مقابلة الآنسة تيمبل في هذه الرحلة. أظنه رأى أنها قد تستطيع إعطائي معلومات محددة.

- معلومات محددة عن فيريتي؟

- نعم.

- كانت قادمة لزيارتي من أجل هذا السبب، كانت تريد معرفة حقائق معينة.

- ربما أرادت أن تعرف سبب فسخ فيريتي خطوبتها بابن رافائيل؟

- لكن فيريتي لم تفسخ خطبتها، أنا متأكد من هذا تماماً.

- هل كانت الآنسة تيمبل تعرف هذا؟

- لا، أظن أنها كانت محتارة وحزينة لما حدث وكانت قادمة إليّ لتسألني لماذا لم يقع الزواج بينهما.

- ولماذا لم يتزوّجا؟ أرجو أن لا تعتقد بأن هذا مجرد فضول من طرفي. إن ما يدفعني لسؤالك ليس مجرد الفضول، فأنا الأخرى منخرطة... لن أقول في رحلة حج، ولكن في مهمة. أنا أيضاً أريد معرفة السبب في عدم زواج مايكل رافائيل وفيريتي هنت.

نظر رجل الدين إليها نظرات متفحصة لبعض الوقت ثم قال: أرى أنك ذات صلة بالأمر.

- إنني مشاركة في هذا الأمر بموجب وصية والد مايكل رافائيل، لقد طلب مني أن أقوم له بهذا العمل.

- لا أرى سبباً يمنعني من إخبارك بكل ما أعرف. إنك تسألينني ما كانت ستسألني إليزابيث تيمبل عنه، تسألينني عن شيء لا أعرفه. كان هذا الشابان ينويان الزواج يا آنسة ماربل، لقد قاما بعمل الترتيبات الخاصة بالزواج وكنت سأزوجهما. كان زواجاً أرادا له أن يبقى سرياً، وكنت أعرف هذين الشابين، كنت أعرف الفتاة الصغيرة فيريتي منذ زمن بعيد. كنت أقوم بالمواعظ في لينت في عيد الفصح وفي مناسبات أخرى في مدرسة إليزابيث تيمبل، وكانت مدرسة جميلة جداً وراقية وكانت هي امرأة رائعة، كانت معلمة عظيمة تدرك إدراكاً عظيماً قدرات كل فتاة عندها وما يناسبها من الاختصاصات. كانت توجه الطالبات إلى المهن والأنشطة التي تناسبهن وتُلحّ في ذلك، ولم تكن تجبر الفتيات على أنشطة كانت تشعر أنها لا تناسبهن. كانت امرأة عظيمة وصديقة عزيزة. وكانت فيريتي من أجمل الفتيات اللاتي رأيتهن، كانت جميلة في عقلها وقلبها إضافة إلى جمال شكلها، وقد ساقها القدر إلى أن تفقد أبويها قبل بلوغها. لقد ماتا معاً في حادث تحطم طائرة كانت في رحلة إلى إيطاليا لقضاء عطلة، وعندما

غادرت فيريتي المدرسة ذهبت لتعيش مع امرأة تدعى الآنسة كلوتيلد سكوت، وكانت صديقة مقربة لوالدة فيريتي.

سكت هنيهة ثم قال: وهناك في ذلك البيت ثلاث أخوات رغم أن الوسطى كانت متزوجة وتعيش خارج البلاد، ولذلك كانت اثنتان منهن تعيشان هنا. وقد تعلقت الأخت الكبرى كلوتيلد بالفتاة تعلقاً شديداً. لقد بذلت كل ما تستطيع لجعل فيريتي تعيش حياة سعيدة فأخذتها معها إلى الخارج أكثر من مرة وأعطتها دروساً في الفن في إيطاليا، لقد أحبتها وكانت تهتم بها في كل شيء. وقد أحبتها فيريتي من ناحيتها، ربما بمقدار ما أحبت أمها. كانت تعتمد على كلوتيلد، وكانت كلوتيلد امرأة متعلمة ومثقفة فلم تلحّ على فيريتي للدراسة في الجامعة لأن فيريتي لم تكن ترغب بذلك حقيقة. لقد فضلت أن تدرس الفن والموسيقى وعاشت هنا في بيت العزبة القديمة حياة أظنها كانت سعيدة جداً. وكان طبيعياً أن لا أراها بعد مجيئها إلى هنا حيث إن فيلمنستر (وهي مكان عملي) تبعد نحو ستين ميلاً. كنت أكتب لها في الأعياد وكانت تتذكرني دائماً ببطاقة معايدة في عيد الميلاد. لكني لم أرها منذ ذلك الوقت، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي جاءتني فيه فجأة وقد غدت فتاة جميلة ناضجة مع شاب وسيم كنت أعرفه هو الآخر من قبل معرفة بسيطة، مايكل ابن رافائيل. جاء الاثنان إليّ لأنهما كانا متحابين وأرادا الزواج.

- وهل وافقت على تزويجهما؟

- نعم وافقت. ربما ترين -يا آنسة ماربل- أنه ما كان عليّ أن أفعل ذلك. لقد جاءا إليّ سراً وكان ذلك واضحاً، وأظن أن كلوتيلد سكوت قد حاولت تثبيط علاقة الحب بينهما. كان لها الحق في

ذلك، فمايكل رافائيل لم يكن الزوج الذي يقبله المرء لابنته أو قريبته، وقد كانت في الواقع أصغر من أن تتخذ قراراً بمفردها، وكان مايكل مصدر متاعب منذ أيام صباه؛ لقد مَثُل أمام محاكم الأحداث الجانحين، وكان له أصدقاء سوء، وانجرّ وراء قطاع الطرق، وحطم هواتف عمومية، وكانت له علاقات غرامية مع فتيات كثيرات... نعم، كان فتى سيئاً مع الفتيات وسيئاً في مجالات أخرى أيضاً، ولكنه كان وسيما إلى أبعد حد وكنّ يقعن في حبه ويفقدن عقولهن تماماً. كان قد أمضى حكمين بالسجن لمدد قصيرة، وبصراحة كان له سجل جنائي. كنت أعرف والده رغم أنني لم أعرفه جيداً، وأظن أنه بذل كل ما بوسعه لمساعدة ابنه. هبّ لإنقاذه وأوجد له أعمالاً من شأنه أن ينجح فيها ودفع عنه ديونه وعوّض التلفيات التي أحدثها ابنه... فعل كل هذا، ولا أعرف...

- لكنك ترى أنه كان بوسعه فعل المزيد، أليس كذلك؟

- ليس تماماً. لقد وصلت إلى سن أعرف فيه أن المرء يجب أن يقبل غيره من البشر كما هم عليه ويقبل صفاتهم الخلقية والسلوكية التي ولدوا عليها. لا أظن أن السيد رافائيل كان يشعر بأي عاطفة تجاه ابنه، أقصد عاطفة حقيقية. إن أكثر ما يمكن قوله هو أنه كان يحبه حباً معقولاً، لم يعطه الحب والحنان، ولا أعرف إن كان مايكل سيصبح أفضل لو نال الحب من والده. ربما لم يكن ذلك ليغيّر شيئاً، كان أمراً محزناً. لم يكن الولد غبياً، بل كان ذكياً وموهوباً وكان بوسعه أن ينجح في حياته لو رغب بذلك وبذل الجهد المطلوب. ولكن لنعترف بصراحة أنه كان جانحاً بفطرته. كان يملك صفات تثير الإعجاب، وكان صاحب دعابة وفكاهة وكان شهماً ولطيفاً في أمور كثيرة. كان من شأنه مثلاً أن يقف إلى جانب صديق ويساعده في الخروج من

الأزمات، لكنه كان يعامل صاحباته من الفتيات معاملة سيئة ويوقعهن في المشكلات ثم يتخلى عنهن ويذهب إلى واحدة أخرى.

توقف قليلاً وكأنه يتذكر ثم قال: وهكذا واجهت هذين الشابين و... نعم، قبلت تزويجهما. أخبرت فيريتي، أخبرتها صراحة عن نوعية الفتى الذي كانت تريد الزواج به. ووجدت أنه لم يحاول خداعها في أي شيء، فقد أخبرها بأنه كان دائم الوقوع في مشكلات مع الشرطة، وقد أخبرها بأنه سيبدأ حياة جديدة عندما يتزوجها وأن كل شيء سيتغير. حذرتها من أن ذلك لن يحدث وأنه لن يتغير، فالناس لا يتغيرون. ربما كان يعتزم تغيير حياته. وأظن أن فيريتي كانت مثلي تعلم ذلك، واعترفت بأنها تعرف ذلك، قالت: "أعرف طبيعة مايك، أعرف أنه ربما بقي كما هو، لكني أحبه. قد أستطيع مساعدته وقد لا أستطيع، ولكني سأخوض تلك المجازفة". وسوف أخبرك بشيء يا آنسة ماربل: إنني أعرف الكثير، فقد عاشرت الكثير من الشباب وزوجت الكثير منهم ورأيت كيف كانوا فاشلين في حياتهم ثم تغيروا فجأة إلى الأحسن... إنني أعرف ذلك وأدركه، وأعرف متى يكون اثنان متحابين حقاً. إن الحب يعني الارتباط معاً في السراء والضراء وفي الغنى والفقر وفي المرض والعافية... هذا ما يعنيه الحب والرغبة في الزواج. لقد أحب هذان الاثنان كلٌ الآخر، وتعاهدا على الحب وعدم الافتراق إلاّ بالموت.

سكت ملياً ثم قال: وهنا تنتهي روايتي. لا أستطيع مواصلتها لأنني لا أعرف ماذا حدث. كل ما أعرفه هو أنني وافقت على طلبهما وقمت بعمل الترتيبات اللازمة وحددنا يوماً وساعة ومكاناً، وأظن أنني أتحمل اللوم في موافقتي على سرية الزواج.

قالت الآنسة ماربل: لم يريدا أن يعرف أحدٌ بالأمر؟

- نعم. فيريتي لم ترد أن يعرف أحدٌ بالزواج وأظن أن مايك كان هو الآخر لا يريد أن يعلم به أحد. كانا خائفَين من أن يمنعهما أحد من إتمام الزواج، وبالنسبة لفيريتي فأظن أنه إلى جانب الحب كان هناك أيضاً إحساس بالهروب، وهو أمر طبيعي بسبب ظروف حياتها، فقد فقدت أبويها الحقيقيين ودخلت في حياتها الجديدة بعد وفاتهما وهي تلميذة في المدرسة في سنّ وصلت فيه إلى مرحلة التعلق بشخص ما. معلمة جذابة، أي معلمة، أو بفتاة مثالية أو فتاة أكبر منها سناً... وهي حالة لا تستمر طويلاً وإنما فترة من الحياة، ثم بعد ذلك تدخل في المرحلة التالية عندما تدرك أن ما تريده في حياتك هو ما يكمل ذاتك، علاقة بين رجل وامرأة. عندها تبدئين في البحث عن شريك حياة، وإذا كنت حكيمة فإنك تتمهلين، فإن لديك أصدقاء لكنك تدرسين كل واحد منهم بحثاً عن الزوج المثالي. كانت كلوتيلد سكوت طيبة جداً مع فيريتي وأظن أن فيريتي كانت متعلقة بها تعلقاً أشبه بما يسمى «عبادة البطل»، فقد كانت قوية الشخصية وأنيقة ومسلّية، وأظن أن فيريتي أحبتها كما لو كانت أمها وأعتقد أن كلوتيلد أحبتها كما لو أنها ابنتها. وهكذا كبرت فيريتي ونضجت في جو من الحب، وعاشت حياة ممتعة ذات موضوعات ممتعة تحفز قدراتها العقلية. كانت حياة سعيدة، لكني أظن أنها أدركت شيئاً فشيئاً ودون شعور منها وجود رغبة لديها بالهروب، الهروب من حب تلك المرأة لها، الهروب إلى شيء أو مكان لا تعرفه. وعرفت ذلك بعد لقائها بمايكل، لكنها كانت تعلم أن من المستحيل جعل كلوتيلد تتفهم مشاعرها. كانت تعلم أن كلوتيلد ستعارض بقوة تلك الجدية التي تأخذ بها حبها لمايكل، وأخشى أن كلوتيلد كانت على صواب في اعتقادها... أعرف هذا

الآن. لم يكن زوجاً يليق بفيريتي، فالطريق الذي سارت فيه لم يكن ليؤدي بها إلى الحياة ولا إلى استمرار السعادة، بل كان يؤدي إلى صدمة وألم وموت! إنني أشعر بالذنب الكبير يا آنسة ماربل؛ كانت دوافعي طيبة لكني لم أعرف ما كان عليّ أن أعرفه. لقد عرفت فيريتي لكني لم أعرف مايكل. لقد تفهمت رغبة فيريتي في سرية الزواج لأنني عرفت قوة شخصية كلوتيلد سكوت، فربما مارست نفوذاً قوياً على فيريتي لإقناعها بالتخلي عن فكرة الزواج.

- هل ترى إذن أن ذلك ما فعلته حقاً؟ هل ترى أن كلوتيلد أخبرتها عن مايكل بما يكفي لإقناعها بالتخلي عن فكرة الزواج به؟

- لا، لا أظن ذلك، وإلاّ لأخبرتني فيريتي به... كانت ستخبرني.

- وما الذي حدث في ذلك اليوم بالفعل؟

- لم أخبرك بذلك بعد. تم تثبيت موعد الزواج باليوم والساعة والمكان، وانتظرتهما. انتظرت عروسين لم يأتيا ولم يرسلا أية رسالة أو برقية أو عذر، لا شيء. لم أعرف السبب، لم أعرف السبب أبداً! ما زلت لا أصدق الأمر، لا أعني أنني لم أصدق عدم حضورهما فهو أمر سهل، لكني لم أصدق أنهما لم يبعثا لي بكلمة واحدة، ولو مجرد قصاصة صغيرة. وهذا ما جعلني أتساءل وأرجو أن تكون إليزابيث تيمبل قد أخبرتك بشيء قبل وفاتها، فربما أعطتك رسالة لي... لو كانت تعرف أنها ستموت فلربما أرادت إيصال رسالة لي.

قالت الآنسة ماربل: كانت تريد معلومات منك أنت. أنا متأكدة من أن هذا هو سبب مجيئها إليك.

- نعم، نعم، ربما كان هذا صحيحاً. يبدو لي أن فيريتي ما كانت لتقول شيئاً للناس الذين كان من شأنهم أن يمنعوها. أقصد كلوتيلد وشقيقتها آنثيا، ولكن لأنها كانت مخلصة كثيراً لإليزابيث تيمبل... وكانت إليزابيث ذات تأثير كبير عليها... يبدو لي أنها كانت ستكتب لها وتعطيها بعض المعلومات.

قالت الآنسة ماربل: أظن أنها فعلت.

- معلومات؟

- إن المعلومات التي أعطتها لإليزابيث تيمبل كانت كالتالي؛ قالت لها إنها ستتزوج مايكل رافائيل. وكانت الآنسة تيمبل تعرف هذا لأنه أحد الأشياء التي أخبرتني بها. قالت: "كنت أعرف فتاة تدعى فيريتي كانت ستتزوج مايكل رافائيل"، والشخص الوحيد الذي يمكن أن يبلغها بذلك هي فيريتي نفسها. لا بد أن فيريتي قد كتبت لها رسالة. وعندما سألتُها: لماذا لم تتزوجه؟ قالت: لقد ماتت!

قال رئيس القساوسة برابازون: إذن نتوقف هنا. أنا وإليزابيث لا نعرف أكثر من هاتين الحقيقتين. إليزابيث كانت تعرف أن فيريتي ستتزوج مايكل، وأنا أعرف أن الاثنين كانا سيتزوجان وأنهما رتّبا موضوع الزواج وكانا سيأتيان في يوم ووقت اتفقنا عليهما. وقد انتظرتهما ولكن لم يحدث زواج، لا عريس ولا عروس ولا أية كلمة.

- ألا تعرف ما حدث؟

- لا أصدق أبداً أن فيريتي أو مايكل قد افترقا أو فسخا الخطبة.

- ولكن لا بد أن شيئاً ما قد حدث بينهما؛ شيئاً ربما فتح عينَي فيريتي على حقائق معينة عن شخصية مايكل وصفاته لم تكن تعرفها أو تدركها من قبل.

- ليس هذا إجابة مقنعة لأنها كانت ستخبرني، لم تكن ستتركني أنتظر حفل تزويجهما. وإذا استثنينا الجانب السخيف في الأمر فإنها تبقى فتاة ذات أخلاق رفيعة وتنشئة جيدة، كانت سترسل ولو كلمة واحدة. لا، أخشى أن شيئاً واحداً فقط قد حدث.

قالت الآنسة ماربل: الموت؟

كانت تتذكر تلك الكلمة التي قالتها إليزابيث تيمبل والتي كان لها وقع الجرس القوي.

تنهد الرجل وقال: نعم؛ الموت.

قالت الآنسة ماربل متأملة: الحب.

تردد وهو يقول: تقصدين بهذا...؟

- إنه ما قالته لي الآنسة تيمبل. قلت لها: ما الذي قتلها؟ فقالت: الحب. وأضافت أن الحب أكثر كلمة تخيف في هذا العالم، أكثر كلمة تخيف.

قال رجل الدين: فهمت، فهمت... أو أظن أنني فهمت.

- ما هو الحل الذي تقدمه؟

- ازدواج في الشخصية. شيء لا يكون ظاهراً للآخرين إلاّ إذا أصبحوا مؤهّلين من الناحية الفنية لملاحظته، لا بد أن مايكل رافائيل

كان مصاباً بانفصام الشخصية. ليست لديّ معرفة بأمور الطب أو خبرة بالتحليل النفسي، ولكن لا بد أن فيه شخصيتين. الأولى شخصية ولد طيب محبوب، والثانية شخصية ربما كانت مدفوعة بحالة من التخلف العقلي... بشيء لسنا متأكدين منه، مدفوعاً لكي يقتل، لا ليقتل عدواً بل ليقتل الشخص الذي يحبه... وهكذا قتل فيريتي. ربما لم يعرف لماذا يريد قتلها أو ماذا يعني ذلك. هناك أشياء مخيفة جداً في هذا العالم، صفات عقلية، مرض عقلي أو تشوه في الدماغ... هناك حالة مماثلة وقعت لاثنتين من أتباع أبرشيّتي، كانتا امرأتين مسنتين تعيشان معاً بمعاش التقاعد وكانتا صديقتين وتعملان معاً في مكان ما، وكانتا سعيدتين معاً، ومع ذلك قتلت إحداهما الأخرى ذات يوم. أرسلت لصديق قديم لها وهو كاهن وقالت له: "لقد قتلت لويزا. إنه أمر محزن لكني رأيت الشيطان يطل من عينيها فعرفت أنني مأمورة بقتلها". أشياء كهذه تجعل الإنسان ييأس من الحياة أحياناً. يتساءل المرء: لماذا؟ وكيف؟ ومع ذلك ستظهر الحقيقة في يوم من الأيام. سيكتشف الأطباء يوماً وجود تشوه صغير في الكروموزوم أو الجينات أو في غدة ما تفرط في عملها أو تتوقف عن العمل.

قالت الآنسة ماربل: إذن هذا ما ترى أنه حدث؟

- بل هو ما حدث بالفعل. أعرف أنهم لم يكتشفوا الجثة إلاّ بعد وقت طويل، لقد اختفت فيريتي، خرجت من بيتها ولم تُشاهَد بعدها.

- ولكن لا بد أنها قُتلت في ذلك اليوم بالضبط.

- ولكن في المحاكمة...

- تقصد بعد اكتشاف الجثة، عندما اعتقلت الشرطة مايكل في نهاية الأمر؟

- كان أول من استدعاه الشرطة لمساعدتهم. كان قد شوهد مع الفتاة وشوهدت الفتاة في سيارته، وكانوا متأكدين من البداية أنه الرجل المطلوب. كان المشتبَه الأول بالنسبة لهم ولم يتوقفوا عن الاشتباه فيه، وقد تم استجواب الشبان الآخرين الذين عرفوا فيريتي وكلهم أثبتوا مكان وجودهم في ساعة وقوع الجريمة ولم يتوفر أي دليل ضدهم. استمروا في الاشتباه بمايكل وأخيراً اكتشفوا الجثة، وكانت مخنوقة وكان الرأس والوجه مشوَّهين بسبب الضربات القوية. كان هجوماً مجنوناً مسعوراً، ولم يكن بكامل قواه العقلية عندما ضربها تلك الضربات بل كانت شخصيته الأخرى هي التي تتحكم به.

ارتعشت الآنسة ماربل. وأكمل رجل الدين حديثه بصوت هادئ حزين: ولكن حتى هذه اللحظة فإنني أرجو وأشعر أحياناً أن الذي قتلها رجل آخر، شخص مخبول دون شك رغم أن أحداً لا يعرف عنه شيئاً. ربما شخص غريب التقت به في منطقة مجاورة، شخص التقته صدفة وأركبها سيارته ثم...

هزّ رأسه أسفاً، فقالت الآنسة ماربل: أظن أن ذلك قد يكون صحيحاً.

قال رجل الدين: لقد ترك مايكل انطباعاً سيئاً في المحكمة. روى أكاذيب سخيفة لا معنى لها، كذب على المحكمة فيما يتعلق بمكان سيارته وجعل أصدقاءه يدلون زوراً بشهادات مستحيلة عن أماكن وجوده وقت الجريمة. كان خائفاً ولم يقل شيئاً عن خطته

للزواج، وأظن أن محاميه كان يرى أن ذلك قد يُستخدَم ضده... على أساس أنها ربما كانت تجبره على الزواج بها وهو غير راغب. لقد مضى وقت طويل على ذلك الآن لذلك لا أتذكر التفاصيل، لكن الدليل كان ثابتاً ضده. كان مذنباً... وكان يبدو مذنباً. لذلك فإنك ترين -يا آنسة ماربل- كم أنا حزين وآسف على ما حدث. كان حكمي خاطئاً لأنني شجعت فتاة جميلة طيبة جداً للذهاب إلى حتفها لأنني لم أعرف عن الطبيعة البشرية ما فيه الكفاية، كنت أجهل الخطر الذي كانت تسعى إليه وكنت أرى أنها لو انتابتها أية مخاوف منه وعرفت عنه فجأة شيئاً سيئاً فإنها ستفسخ خطبتها منه وتجيء إليّ وتخبرني بمخاوفها ومعلوماتها عنه، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. لماذا قتلها؟ هل قتلها لأنه عرف أنها ستضع مولوداً؟ ولأنه في ذلك الوقت ربما ارتبط بعلاقة مع فتاة أخرى ولم يرد أن يجبره أحد على الزواج بفيرتي؟ لا أصدق ذلك. أم هل يوجد سبب مختلف تماماً؟ لأنها أحست فجأة بالخوف منه أو عرفت عنه شيئاً خطيراً ففسخت خطبتها؟ هل أثار ذلك غضبه ودفعه إلى قتلها؟ لا أدري.

قالت الآنسة ماربل: أنت لا تعرف، لكنك ما زلت تعرف وتؤمن بشيء واحد، أليس كذلك؟

- ماذا تقصدين بهذا القول بالضبط؟

- أريد أن أقول إنه يوجد فيك (أو هذا ما أشعر به) اعتقاد قوي جداً بأن هذين الشابين قد تحابّا وكانا يعتزمان الزواج، ولكن شيئاً ما حدث ومنعهما، شيئاً انتهى بموتها. لكنك ما زلت تعتقد حقيقة أنهما كانا قادمَين إليك لكي يتزوجا في ذلك اليوم؟

- أنت على حق تماماً يا عزيزتي. نعم، لا يمكنني إلاّ أن أعتقد

أنهما كانا اثنين متحابين وكانا يرغبان في الزواج، اثنين مستعدين للارتباط معاً في السراء والضراء، وفي الغنى والفقر، وفي العافية والمرض. لقد أحبته وكانت على استعداد للزواج به مهما كانت الظروف، وحسب ما حدث فقد صارت ظروفهما إلى الأسوأ لأنها أدت بها إلى الموت.

- يجب أن تستمر في اعتقادك هذا، وأظن أن هذا هو اعتقادي أيضاً.

- ولكن ماذا إذن؟

- لم أعرف بعد. لست متأكدة، لكني أعتقد أن إليزابيث تيمبل كانت تعرف أو أنها بدأت تعرف ما حدث. قالت إن الحب كلمة مخيفة، وقد ظننت عندما قالت ذلك أن ما كانت تعنيه هو أن فيريتي انتحرت بسبب علاقة حب لأنها اكتشفت شيئاً بخصوص مايكل أو لأن شيئاً أزعجها فجأة وجعلها تثور، ولكن لا يمكن أن يكون الأمر انتحاراً.

- نعم، لا يمكن أن يكون انتحاراً. لقد تم وصف الإصابات وصفاً كاملاً في المحكمة، إن الإنسان لا ينتحر بتهشيم رأسه بهذه الطريقة.

قالت الآنسة ماربل: رهيب، رهيب! كما لا يمكن أن تفعل ذلك مع واحدة تحبها، حتى إن كنت تقتل «من أجل الحب»، أليس كذلك؟ لو أنه قتلها لما استطاع قتلها بتلك الطريقة. ربما يخنق المرء... ولكنه لا يهشم الرأس والوجه الذي أحبه. الحب، الحب... كلمة مخيفة.

* * *

الفصل التاسع عشر
كلمات وداع

توقفت الحافلة أمام فندق غولدن بور في صباح اليوم التالي. كانت الآنسة ماربل قد نزلت وبدأت في وداع زملائها، ووجدت السيدة رايسلي بورتر في حالة من السخط الشديد. قالت: ما الذي جرى لفتيات اليوم؟ لا نشاط ولا قوة!

نظرت الآنسة ماربل إليها متسائلة فقالت: أقصد جوانا، ابنة أخي.

- هل هي مريضة؟

- تقول إنها مريضة، لكني لا أرى فيها شيئاً. تقول إن حنجرتها ملتهبة وتحس بأن حرارتها سترتفع. أظن أن هذا كله هراء.

قالت الآنسة ماربل: هذا مؤسف. هل بإمكاني أن أعمل شيئاً؟ هل أقوم على رعايتها؟

- لو كنت مكانك لتركتها وحيدة. إن سألتني عن رأيي فأعتقد أن هذا مجرد ذريعة.

نظرت الآنسة ماربل إليها مرة أخرى متسائلة، فقالت: البنات سخيفات جداً، دائماً يقعن في الحب.

قالت الآنسة ماربل: إيملين برايس؟

- آه، ها أنت قد لاحظتِ ذلك أيضاً. نعم، إنهما يعشقان بعضهما بعضاً. أنا لا أهتم به كثيراً، فهو واحد من أولئك الطلبة ذوي الشعور الطويلة الذين ترينهم دوماً في المظاهرات. وكيف سأواصل الرحلة؟ لا أحد يعتني بي ويجمع لي حقائبي ويدخلها ويخرجها... لقد دفعت تذكرة هذه الرحلة كاملة.

قالت الآنسة ماربل: كنت أظنك راضية عنها تماماً.

- ليس في اليومين الأخيرين. الفتيات لا يفهمن أن المرء بحاجة إلى مساعدة عندما يصل أواسط عمره. يبدو أن فكرة سخيفة تراودهما (هي وذلك الشاب برايس) في زيارة جبل أو مَعْلم ما على بعد سبعة أميال أو ثمانية من هنا.

- ولكن إن كانت حنجرتها تؤلمها وحرارتها مرتفعة...

قالت السيدة رايسلي بورتر: سترين أن حنجرتها قد تحسنت وحرارتها قد هبطت حالما تذهب الحافلة. يا إلهي! يجب أن نركب الآن. وداعاً يا آنسة ماربل، جميل أن قابلتك، أنا آسفة لأنك لن تأتي معنا.

- أنا أيضاً آسفة، ولكنك تعرفين أنني لست صغيرة أو قوية مثلك يا سيدتي، وأشعر بعد كل ما حدث وبعد الصدمة في الأيام الأخيرة الماضية أنني بحاجة لأربع وعشرين ساعة كاملة من الراحة.

- حسناً، آمل أن أراك في المستقبل.

تصافحتا، ثم صعدت السيدة رايسلي بورتر إلى الحافلة. وسمعت الآنسة ماربل صوتاً من ورائها يقول: رحلة ممتعة وخلاصاً مريحاً.

التفتت فرأت إيملين برايس خلفها يبتسم. قالت: هل كانت هذه العبارة موجهة للسيدة رايسلي بورتر؟

- نعم، ومَن غيرها؟

- أنا آسفة بسبب مرض جوانا هذا الصباح.

ابتسم إيملين برايس للآنسة ماربل ثانية ثم قال: ستكون بخير حالما تذهب الحافلة.

- آه! هل تقصد...؟

- نعم، أقصد ذلك. لقد نالت جوانا من عمتها ما يكفي. كانت تهينها طوال الوقت.

- إذن فلن تذهب مع الحافلة أنت أيضاً؟

- نعم، سأبقى هنا مدة يومين. سأقوم بالتجول هنا قليلاً وببعض الطلعات. لا تبدي مثل هذا الاستياء يا آنسة ماربل، لا أظنك حقاً مستاءة من حيلتنا الصغيرة؟

- أعرف أن هذه الأشياء كانت تحدث أيام شبابي، الأعذار قد تكون مختلفة وأعتقد بأن فرصتنا كانت أقل منكم في الظفر بما نريد.

جاء الكولونيل ووكر وزوجته وصافحا الآنسة ماربل بحرارة، قال الكولونيل: فرصة طيبة أن تعرّفنا عليك وتحدثنا كل ذلك الحديث عن الحدائق. أظن أننا سنستمتع جيداً بعد غد، إذا لم يحدث شيء. لقد كان هذا الحادث السيء محزناً جداً. أنا شخصياً أعتقد أنه حادث، وأظن أن قاضي التحقيق قد تمادى كثيراً في شكوكه بهذا الخصوص.

قالت الآنسة ماربل: يبدو غريباً جداً أن لا يأتي أحد ليقول إنه كان موجوداً على قمة الهضبة ودفع بالصخور.

قال الكولونيل: سيعتقد أن المسؤولية تقع عليه بالطبع، ولذلك سيبقى صامتاً ولا يعترف بشيء. حسناً، وداعاً. سأرسل لك شتلة من تلك المغنوليا، ومن الماهونيا أيضاً، رغم أنني لست متأكداً إن كانت ستعيش في المنطقة التي تعيشين فيها.

ثم دخلا في الحافلة أيضاً، وابتعدت الآنسة ماربل والتفتت لترى البروفسور وانستيد يلوّح لركاب الحافلة مودّعاً. خرجت السيدة ساندبورن لوداع الآنسة ماربل وركبت الحافلة، ثم أخذت الآنسة ماربل البروفسور وانستيد من ذراعه وقالت: أريدك، هل نستطيع أن نذهب إلى مكان نتحدث فيه؟

- نعم، ما رأيك بذلك المكان الذي جلسنا فيه بالأمس؟

- أظن أنه توجد شرفة جميلة هناك عند الزاوية.

سارا إلى زاوية الفندق، وسمعا صوت بوق الحافلة التي ما لبثت أن انطلقت. قال البروفسور: كنت أتمنى أن لا تبقي هنا؛ أفضّل أن أراك آمنة في الحافلة.

نظر إليها نظرات حادة وقال: لماذا ستمكثين هنا؟ أهو بسبب الإجهاد العصبي أم بسبب شيء آخر؟

قالت الآنسة ماربل: شيء آخر. لست مجهدة رغم أن هذا قد يكون عذراً ممتازاً لشخص في مثل سني.

- أشعر أنني يجب أن أبقى هنا لأحرسك.

- لا، لا حاجة لذلك. ثمة أشياء أخرى كان يجب أن تعملها.

- أية أشياء؟ هل حصلت على معلومات أو أفكار؟

- أظن أنني عرفت شيئاً لكن يجب أن أتحقق منه. هناك أشياء معينة لا أستطيع عملها بنفسي، وأظن أنك ستساعدني في عملها لأنك على اتصال بالسلطات.

- هل تقصدين شرطة سكوتلانديارد ورئيس الشرطة وحكّام السجون؟

- نعم، واحد منهم أو جميعهم. وربما كان لك نفوذ على وزير الداخلية أيضاً.

- إن لديك أفكاراً بالتأكيد! حسناً، ما الذي تريدين مني عمله؟

- في البداية أريد أن أعطيك هذا العنوان.

أخرجت دفتر الملاحظات ومزقت منه صفحة وسلمتها له.

- ما هذا؟ آه، نعم، مؤسسة خيرية معروفة، أليس كذلك؟

- أظن أنها واحدة من أفضل المؤسسات الخيرية. إنها تعمل الكثير من الخير، يرسل لها الناس بالملابس، ملابس أطفال وملابس نساء ومعاطف وسترات وكل أنواع الملابس.

- وهل تريدين مني التبرع لها؟

- لا. إنه طلب مساعدة، إنه أمر يتعلق بما نفعله، ما نفعله أنا وأنت.

- كيف؟

- أريد أن تتحقق من طرد أُرسل من هنا قبل يومين، من مكتب البريد هنا.

- مَن الذي أرسله... أنت؟

- لا، لا. لكني تظاهرت بمسؤوليتي عنه.

- ماذا يعني هذا؟

قالت الآنسة ماربل وهي تبتسم: إنه يعني أنني ذهبت إلى مكتب البريد هنا وشرحت للموظفة هناك وأنا أتظاهر باضطراب في تفكيري (كأي سيدة عجوز) بأنني طلبت من واحدة أن تأخذ هذا الطرد وتضعه في البريد نيابة عني وأنني وضعت عليه عنواناً خاطئاً، وقلت لها إنني تضايقت كثيراً من هذا، وقد أخبرتني موظفة البريد مشكورة بأنها تذكرت الطرد لكن العنوان الذي عليه لم يكن الذي ذكرته لها. كان هذا العنوان الذي أعطيته لك الآن. قلت لها إنني كنت حمقاء وكتبت العنوان الخاطئ عليه وأشكل عليّ وظننت أنه عنوان آخر أرسل بعض الحاجيات عليه أحياناً. وقالت لي إن الوقت قد فات ولا تستطيع عمل

أي شيء الآن لأن الطرد قد أُرسل، فقلت لها إنني سأبعث برسالة إلى تلك المؤسسة التي استلمت الطرد وأشرح لها بأنني أرسلته إليهم عن طريق الخطأ وسأطلب منهم أن يرسلوه إلى المؤسسة التي كنت أعتزم إرساله إليها.

- يبدو أنه طريق ملتو.

- لا بد للمرء من أن يخترع شيئاً، ولكنني لن أفعل ذلك طول الوقت. أنت الذي ستباشر هذه المسألة، فعلينا أن نعرف ما بداخل ذلك الطرد! لا شك أن لك أساليبك الخاصة لمعرفة ذلك.

- وهل هناك أي شيء في ذلك الطرد يدل على مَن أرسله فعلاً؟

- لا أظن ذلك. ربما كان يحتوي على قطعة من الورق تقول: «من أصدقاء» أو ربما كانت تحتوي على اسم وعنوان وهميين... حتى لا يدل على صاحبه الحقيقي.

- آه، وهل ثمة احتمالات أخرى؟

- ربما كان يحتوي على قصاصة من ورق تقول: «من الآنسة آنثيا سكوت»، أقول ربما، ولكنه أمر بعيد الاحتمال تماماً.

- هل هي...؟

- هي التي سلمته لمكتب البريد.

- وهل أنت التي طلبت منها أن تأخذه إلى هناك؟

- آه، لا؛ لم أطلب من أحد أن يرسل شيئاً. أول مرة رأيت

فيها الطرد كانت عندما مرّت آنثيا من أمام حديقة الفندق حيث كنت جالسة معك نتحدث وكانت تحمله.

- لكنك ذهبت إلى مكتب البريد وقدمت نفسك على أنك صاحبة الطرد.

- نعم، وهو غير صحيح. لكن مكاتب البريد حَذِرة جداً ولا تخبرك بشيء، وقد أردت أن أعرف إلى أين ذهب الطرد.

- كنت تريدين أن تعرفي إن كان قد أرسل هذا الطرد أم لا؟ أو إذا كان قد أُرسل بواسطة واحدة من بنات سكوت وخصوصاً الآنسة آنثيا؟

- كنت أعرف أنها ستكون آنثيا، لأننا رأيناها.

- حسناً؟

أخذ الورقة من يدها وقال: نعم، يمكنني عمل هذا. هل تعتقدين أن هذا الطرد سيكون مهماً؟

- أعتقد أن محتوياته قد تكون مهمة جداً.

- أنت تحبين الاحتفاظ بالأسرار لنفسك، أليس كذلك؟

- ليست أسراراً بالضبط، إنها مجرد احتمالات أقوم بالتحقق منها. لا أحب ذكر تأكيدات محددة ما لم يكن لديّ المزيد من المعلومات الدقيقة.

- أيوجد شيء آخر؟

- أعتقد... أعتقد أنه أياً كان المسؤول عن هذه الأشياء فإنه يجب تحذيره من إمكانية العثور على جثة ثانية.

- هل تقصدين جثة ثانية مرتبطة بهذه الجريمة التي ندرسها؟ جريمة حدثت قبل عشر سنوات؟

- نعم، أنا متأكدة تماماً من هذا في الواقع.

- جثة أخرى! جثة مَن؟

- حسناً، إنها مجرد فكرة حتى الآن.

- هل تعرفين أين هذه الجثة؟

- آه، نعم؛ أنا متأكدة تماماً من أنني أعرف مكانها، لكني أريد مزيداً من الوقت قبل أن أخبرك عن ذلك.

- ما هي هذه الجثة؟ جثة رجل؟ امرأة؟ طفل؟ فتاة؟

- فتاة أخرى ما زالت مفقودة، فتاة تدعى نورا برود. لقد اختفت من هنا ولم يعرف أحدٌ عنها بعد ذلك، وأظن أن جثتها قد تكون في مكان محدد.

نظر البروفسور وانستيد إليها وقال: أتعلمين؟ كلما تكلمتِ أكثر كلما قلّت رغبتي في تركك هنا... مع كل هذه الأفكار التي تملكينها وبما يمكن أن تقدمي عليه من حماقة. إمّا...

ثم سكت، فقالت الآنسة ماربل: إمّا أن هذا كله هراء...؟

- لا، لا، لم أقصد ذلك. ولكن إمّا أنك تعلمين أشياء كثيرة... وقد يكون ذلك خطيراً... أعتقد أنني سأبقى هنا لأحرسك.

- لا، لن تفعل. يجب أن تذهب إلى لندن وتحرك بعض الأمور.

- أنت تتكلمين وكأنك تعرفين أشياء كثيرة يا آنسة ماربل.

- أظنني أعرف الكثير الآن بالفعل، ولكن يجب أن أتأكد.

- نعم، ولكن إذا كنتِ تريدين أن تتأكدي فربما كان ذلك آخر شيء تتأكدين منه في حياتك! لا نريد أن نرى جثة ثالثة، جثتك!

- آه، أنا لا أتوقع شيئاً كهذا.

- قد تكونين عرضة للخطر إذا كانت أي فكرة من أفكارك صحيحة. هل لديك شكوك في أي شخص محدد؟

- أعتقد أن لديّ معلومات معينة عن شخص واحد، ولكن عليّ أن أكتشف... يجب أن أبقى هنا. لقد سألتني مرة إن كنت أشعر بجو من الشر، حسناً، إن هذا الجو موجود هنا دون شك، جو من الشر، وإن شئت أن تسميه فهو جو من الخطر... من البؤس العظيم، من الخوف! يجب أن أفعل شيئاً حيال ذلك، يجب أن أفعل أفضل ما أستطيعه. لكن امرأة مسنّة مثلي لا تستطيع أن تفعل الكثير.

راح البروفسور وانستيد يعدّ بصوت خافت: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

سألته الآنسة ماربل: ماذا تعدّ؟

- الأشخاص الذين غادروا في الحافلة. من المفترض أنك غير مهتمة بهم حيث تركتِهم يرحلون بينما بقيت هنا.

- ولماذا أهتم بهم؟

- لأنك قلت إن السيد رافائيل أرسلك في الحافلة لسبب معين، وأرسلك في هذه الرحلة لسبب معين، وأرسلك إلى بيت العزبة القديمة لسبب معين... هذا جيد إذن، إن وفاة إليزابيث تيمبل مرتبطة بشخص في الحافلة، وبقاؤك هنا يرتبط ببيت العزبة القديمة.

قالت الآنسة ماربل: لستَ مصيباً تماماً. توجد بين الاثنين صلة، وأريد من أحد الأشخاص أن يخبرني بأشياء.

- هل تعتقدين أنك تستطيعين جعل أحد يخبرك شيئاً؟

- أظنني أستطيع ذلك. سيفوتك القطار إذا لم تذهب حالاً.

قال البروفسور وانستيد: حاذري على نفسك.

- هذا ما أعتزم فعله.

فُتح باب الردهة وخرجت منه اثنتان، الآنسة كوك والآنسة بارو.

قال البروفسور وانستيد: مرحباً، ظننت أنكما ذهبتما مع الحافلة.

قالت الآنسة كوك مبتهجة: لقد غيرنا رأينا في اللحظة الأخيرة. لقد اكتشفنا وجود أماكن قريبة نتنزه بها، وهناك مَعْلم أريد رؤيته؛ كنيسة غريبة تبعد أربعة أميال أو خمسة من هنا ويمكن الوصول إليها بالحافلة بسهولة. كما ترى فإننا لا نريد أن نرى بيوتاً وحدائق فقط، فأنا مهتمة جداً بالهندسة المعمارية للكنائس.

قالت الآنسة بارو: وكذلك أنا. وهناك أيضاً حديقة فينلي وهي رائعة الجمال لما تحتويه من أزهار ونباتات ولا تبعد كثيراً عن هنا، لذا رأينا أن الأفضل لنا أن نبقى هنا يوماً أو يومين.

- وهل ستقيمان هنا في هذا الفندق؟

- نعم؛ إننا محظوظتان لأننا وجدنا غرفة مزدوجة جميلة، غرفة أفضل من تلك التي أقمنا فيها في اليومين الأخيرين.

قالت الآنسة ماربل ثانية: سيفوتك القطار.

قال البروفسور: أتمنى لو أنك...

قالت الآنسة ماربل بإلحاح: سأكون بخير.

ثم قالت عندما ذهب: إنه رجل لطيف يهتم بي كثيراً، أنا مثل عمته الكبيرة.

قالت الآنسة كوك: كانت صدمة كبيرة، أليس كذلك؟ ربما تريدين الذهاب معنا عندما نذهب لزيارة كنيسة سينت مارتينز.

قالت الآنسة ماربل: إنه لطف كبير منك لكني لا أظن أنني قادرة اليوم على القيام بالمشي، ربما غداً إن كان هناك أي شيء مثير يمكن رؤيته.

- إذن لا بد أن نتركك.

ابتسمت لهما الآنسة ماربل ودخلت الفندق.

* * *

الفصل العشرون

للآنسة ماربل أفكارها

بعد أن تناولت الآنسة ماربل الغداء في قاعة الطعام خرجت إلى المصطبة لشرب القهوة. كانت ترشف من فنجانها الثاني عندما رأت امرأة طويلة القامة نحيفة الجسم تصعد الدرج بخطوات سريعة وتقترب منها وتتكلم لاهثة، وعرفت أن المرأة هي آنثيا سكوت.

- آه، آنسة ماربل، لقد عرفنا للتو فقط أنك لم تذهبي مع الحافلة. كنّا نظن أنك سترحلين فيها ولم نكن نعلم أنك موجودة هنا. لقد أرسلتني كلوتيلد ولافينيا لأقول لك إننا نرجو منك العودة إلى بيت العزبة القديمة لتقيمي معنا، فأنا واثقة أن وجودك عندنا أفضل من هنا. أناس كثيرون هنا يأتون ويذهبون، وخصوصاً في عطلات نهاية الأسبوع، لذلك فإننا سنكون مسرورات جداً جداً لو عدت إلينا.

قالت الآنسة ماربل: آه، هذا كرم عظيم منكن. حقاً إنه كرم عظيم، لكني متأكدة... أقصد، أنت تعرفين أنها كانت زيارة ليومين فقط. كنت أعتزم الذهاب في الأصل مع الحافلة بعد انتهاء اليومين، ولولا هذا الحادث المؤسف جداً لذهبت. لكني شعرت بعدم قدرتي على متابعة الرحلة ورأيت أن آخذ قسطاً من الراحة لليلة واحدة على الأقل.

- لكني أقصد أنه سيكون أفضل لك كثيراً لو جئت عندنا، سنحاول بذل جهدنا لجعلك تشعرين بالراحة.

- هذه مسألة لا شك فيها. لقد شعرت بارتياح عظيم عندما أقمت معكن. نعم، لقد استمتعت بذلك كثيراً. بيت جميل كهذا! كما أن كل شيء عندكم جميل، الفخار الصيني والزجاج والأثاث... جميل أن يقيم الإنسان في بيت وليس في فندق.

- إذن يجب أن تأتي معي الآن. نعم، يجب أن تأتي، سأذهب وأحزم أمتعتك.

- آه، حسناً، هذا لطف منك. أستطيع عمل هذا بنفسي.

- هل آتي لمساعدتك؟

- سيكون لطفاً كبيراً منك.

عادتا إلى غرفة الآنسة ماربل حيث حزمت آنثيا أمتعتها بشيء من الاستعجال. ولم يكن أمام الآنسة ماربل التي لها طرقها الخاصة في ترتيب حاجياتها إلاّ أن تعض على شفتيها حتى لا تظهر غيظها، فهي رأت أن حزم آنثيا للأمتعة قد أفسد ترتيبها.

أحضرت آنثيا حمّالاً من الفندق فحمل الحقيبة وخرج بها إلى الشارع ثم إلى بيت العزبة القديمة، ودفعت له الآنسة ماربل إكرامية مناسبة وهي تلهج بعبارات الشكر والمديح ثم انضمت إلى الأخوات.

فكرت الآنسة ماربل في نفسها قائلة: "الأخوات الثلاث! ها نحن هنا ثانية". كان ذلك وهي جالسة في غرفة الاستقبال وقد أغلقت عينيها لبعض الوقت وازدادت سرعة أنفاسها حتى بدا وكأنها تلهث.

وأحست أن ذلك كان طبيعياً لواحدة في عمرها، كما أن آنثيا والحمّال أجبراها على أن تسير بخطوات سريعة، لكنها -في الحقيقة- كانت تحاول وهي مغمضة العينين معرفة الإحساس الذي انتابها عندما جاءت إلى هذا البيت مرة أخرى. أكان في البيت شر؟ لا، لا، لم يكن شراً بقدر ما كان حزناً، حزناً عميقاً، عميقاً إلى حد مخيف.

فتحت عينيها ثانية ونظرت إلى السيدتين الجالستين معها في الغرفة. كانت السيدة غلين قد جاءت من المطبخ وهي تحمل صينية الشاي، وكانت تبدو كما هي عليه من قبل. مرتاحة ولا تظهر أية عواطف أو أحاسيس معينة، حتى لتكاد تخلو من هذه العواطف والمشاعر. هل عوّدت نفسها -خلال حياة التوتر والمصاعب- أن لا تظهر أي شيء لمن حولها وتبقى متكتمة ولا تدع أحداً يعرف أحاسيسها الداخلية؟

ثم نظرت إلى كلوتيلد. كان في مظهرها ما يشبه كليتمنسترا (كما سبق للآنسة ماربل أن رأتها)، إنها لم تقتل زوجها بالتأكيد كما فعلت تلك الشخصية المسرحية لأنها لم تتزوج أبداً حتى تقتله، ويبدو من غير المحتمل أن تكون قد قتلت الفتاة التي قيل إنها كانت تحبها. كانت الآنسة ماربل واثقة من صحة ذلك، لقد رأت من قبل كيف ترقرقت الدموع في عينَي كلوتيلد عندما ذُكرت وفاة فيريتي أمامها.

وماذا عن آنثيا؟ لقد أخذت آنثيا تلك العلبة الكرتونية إلى مكتب البريد، آنثيا جاءت إلى الفندق لتأخذها، آنثيا... لقد تشككت كثيراً في أمر آنثيا. أتكون حقاً مشوّشة الذهن؟ إنها مشوشة أكثر مما يسمح به عمرها؛ عينان تتجولان ثم تستقرّان عليك، عينان تبدوان وكأنهما تريان أشياء قد لا يراها الآخرون، من خلف ظهر المرء كانت خائفة،

رأت الآنسة ماربل أنها كانت خائفة من شيء ما. ترى ما هو ذلك الشيء؟ هل هي مصابة بلوثة عقلية معينة؟ أتراها خائفة من العودة إلى المصحات العقلية أو مؤسسة ربما قضت فيها جزءاً من حياتها؟ خائفة من هاتين الأختين اللتين تشعران أن من غير الحكمة تركها حرة هكذا؟ هل كانت هاتان الأختان غير متأكدتَين مما يمكن لأختهما آنثيا أن تقوله أو تفعله؟

يوجد هنا جو معين. تساءلت وهي ترشف آخر ما تبقى من فنجان الشاي عما تفعله الآنسة كوك والآنسة بارو. هل ذهبتا لزيارة الكنيسة أم أن ذلك مجرد حديث لا معنى له؟ كان أمراً غريباً؛ غريبة هي الطريقة التي جاءتا فيها ونظرتا إليها في قريتها سينت ميري ميد حتى تعرفاها ثانية في الحافلة، ومع ذلك لم تعترفا أنهما رأتاها أو قابلتاها من قبل.

كان الكثير من الأمور الصعبة يجري. أخذت السيدة غلين صينية الشاي وخرجت آنثيا إلى الحديقة، وبقيت الآنسة ماربل وحدها مع كلوتيلد. قالت الآنسة ماربل: أظن أنك تعرفين رئيس قساوسة يدعى برابازون، أليس كذلك؟

قالت كلوتيلد: بلى، كان موجوداً بالأمس في الكنيسة في أثناء قداس الجنازة. هل تعرفينه؟

- لا، لكنه جاء إلى فندق غولدن بور وتحدث معي هناك. أظن أنه ذهب إلى المستشفى وكان يسأل عن وفاة الآنسة تيمبل المسكينة، وقد تساءل إن كانت الآنسة تيمبل قد بعثت له بأية رسالة. فهمت أنها كانت تنوي زيارته، لكني أخبرته بالطبع أنني رغم ذهابي إلى هناك حتى أفعل شيئاً إلاّ إنه لم يكن أمامي إلاّ الجلوس بجانب سرير الآنسة تيمبل

المسكينة. كانت فاقدة وعيها ولم أستطع أن أفعل أي شيء لمساعدتها.

قالت كلوتيلد: ألم تقل أي شيء... أي تفسير لما حدث؟

طرحت السؤال دون إبداء الكثير من الاهتمام. وتساءلت الآنسة ماربل إن كانت تشعر في داخلها باهتمام أكثر ممّا عبرت عنه، ولكنها لم ترَ ذلك، بل رأت أن كلوتيلد كانت مشغولة بأفكار مختلفة تماماً.

سألتها الآنسة ماربل: هل تعتقدين أنه كان مجرد حادث أم تعتقدين وجود شيء من الصحة في رواية تلك الفتاة بشأن رؤيتها لشخص يدفع صخرة من أعلى؟

- أظن أنه لو قال هذان الاثنان ذلك فلا بد أنهما قد شاهداه.

- نعم، كلاهما قال ذلك رغم استخدامهما لعبارات مختلفة بعض الشيء. لكنه أمر طبيعي.

نظرت كلوتيلد إليها بفضول وقالت: يبدو أن تلك الحادثة قد أثارت اهتمامك؟

- إنها تبدو قصة غير محتمَلة، غير محتملة إلاّ إذا...

- إلاّ إذا ماذا؟

- لقد تساءلت فقط.

دخلت السيدة غلين الغرفة مرة أخرى وقالت: تساءلت عن ماذا؟

قالت كلوتيلد: إننا نتحدث عن الحادث.

- ولكن مَن...

قالت الآنسة ماربل ثانية: إنها تبدو رواية غريبة جداً تلك التي ذكرها الشاب والفتاة.

قالت كلوتيلد فجأة: يوجد شيء بخصوص هذا المكان، شيء بخصوص هذا الجو المحيط. إننا لم نتغلب على هذا الجو أبداً، أبداً، أبداً... منذ... منذ وفاة فيريتي. لقد مرت سنوات لكن هذا الجو لم يرحل، ثمة خيال هنا.

نظرت إلى الآنسة ماربل وقالت: ألا تظنين ذلك أيضاً؟ ألا تشعرين بوجود خيال هنا؟

قالت الآنسة ماربل: أنا غريبة، والأمر يختلف بالنسبة لك ولشقيقتيك لأنكن عشتنّ هنا وتعرفن الفتاة. أظن أنها كانت فتاة جذابة كما قال رئيس القساوسة برابازون.

قالت كلوتيلد: كانت فتاة جميلة، وطفلة محبوبة أيضاً.

قالت السيدة غلين: أتمنى لو كنت عرفتها أكثر، كنت أعيش مع زوجي خارج البلاد في ذلك الوقت، ثم عدت مع زوجي إلى الوطن مرة لكننا قضينا معظم تلك الإجازة في لندن ولم نكن نأتي إلى هنا كثيراً.

جاءت آنثيا من الحديقة وهي تحمل بيدها حزمة كبيرة من الزنبق. قالت: إنها أزهار الجنائز، هذا ما يجب أن يكون لدينا اليوم، أليس كذلك؟ سأضعها في مزهرية كبيرة... أزهار جنائز.

ثم ضحكت فجأة، وكانت قهقهة غريبة هستيرية. قالت كلوتيلد: آنثيا، لا... لا تفعلي هذا، إنه ليس... ليس مناسباً.

قالت آنثيا مبتهجة: سأذهب لأضعها في الماء.

ثم خرجت من الغرفة فقالت السيدة غلين: ما بال آنثيا؟ أظن أنها...

قالت كلوتيلد: حالتها تزداد سوءاً.

تظاهرت الآنسة ماربل بأنها لا تصغي أو تسمع، ورفعت علبة صغيرة مزخرفة ونظرت إليها نظرات إعجاب.

قالت لافينيا: أظن أنها ستكسر مزهرية الآن.

ثم خرجت من الغرفة فقالت الآنسة ماربل: هل أنت قلقة على أختك آنثيا؟

- نعم، لقد كانت مضطربة دوماً. إنها أصغرنا سناً وكانت فتاة رقيقة بعض الشيء في صغرها، لكن حالتها ساءت في الفترة الأخيرة. أظن أنها لا تدرك خطورة بعض ما تقوم به؛ تنتابها أحياناً تلك النوبات الهستيرية السخيفة، ضحكات هستيرية على أشياء تقتضي الجدية. لم نعد نرغب في أن... في أن نرسلها إلى أي مكان. أو أظن أنها ينبغي أن تتلقى علاجاً، لكن لا أظن أنها توافق على ترك البيت والإقامة بعيداً عنه، فهذا هو بيتها. رغم أن الأمر يكون أحياناً... صعباً جداً.

قالت الآنسة ماربل: الحياة كلها صعبة أحياناً.

قالت كلوتيلد: إن لافينيا تتكلم عن الرحيل، تتكلم عن احتمال رحيلها والعيش في الخارج ثانية حيث كانت تعيش سعيدة مع زوجها. إنها تقيم معنا في البيت منذ عدة سنوات ولكن يبدو أنها قد اشتاقت للرحيل والسفر. أعتقد أنها لا تحب البقاء في البيت نفسه مع آنثيا.

- آه يا عزيزتي، نعم. لقد سمعت عن حالات مماثلة حيث تظهر هذه المصاعب.

قالت كلوتيلد: إنها خائفة من آنثيا، خائفة منها دون شك. ولكنني أقول لها دائماً إن خوفها لا مبرر له. أحياناً تكون آنثيا سخيفة، لها أفكار غريبة وتقول أشياء غريبة، لكنني لا أعتقد بوجود أي خطر منها. أقصد... من... آه، لا أدري ماذا أقول، من قيامها بأي عمل خطير أو غريب أو شاذ.

سألتها الآنسة ماربل: ألم تحدث أية مشكلة من هذا النوع؟

- آه، لم يحدث شيء. أحياناً تصاب بنوبات عصبية وفجأة تكره الناس. إنها غيورة جداً، غيورة جداً من... من أي إطراء لأشخاص مختلفين. لا أدري، أشعر أحياناً أننا يجب أن نبيع هذا البيت ونغادره.

قالت الآنسة ماربل: إنه يحزنك، أليس كذلك؟ أظن أنني أتفهم أن العيش هنا مع ذكريات الماضي هذه أمر محزن جداً.

- أحقاً تتفهمين هذا؟ نعم، أرى ذلك. لا يملك المرء إلاّ أن يحزن. عندما أتذكر تلك الفتاة المحبوبة، كانت بالنسبة لي مثل الابنة. وعلى أية حال فقد كانت ابنة واحدة من أفضل صديقاتي، كما أنها كانت ذكية أيضاً، كانت ذكية جداً. وكانت فنانة جيدة، كانت تتقدم كثيراً في التدريب على الفن والتصميم وكانت تصمم أشياء كثيرة. كنت فخورة جداً بها، ثم جاء... ذلك التعلّق الرهيب، ذلك الولد المعتوه في عقله.

- تقصدين ابن رافائيل، مايكل رافائيل؟

- نعم، ليته لم يأت إلى هنا! كان يقيم في مكان قريب واقترح عليه والده زيارتنا فجاء وتناول الطعام معنا. إنه جذاب جداً لكنه كان فتى منحرفاً ذا سجل سيء. لقد دخل السجن مرتين وله تاريخ سيء جداً مع الفتيات، لكني لم أظن أبداً أن فيريتي... قد فُتنت فيه. أظن أن ذلك يحدث عادة للفتيات في ذلك العمر، لقد فتنت به وأصرت على أن كل شيء حدث له لم يكن بسبب خطأ منه. أنت تعرفين الأشياء التي تقولها الفتيات: الكل ضده... هذا ما يقلنه دائماً. الكل ضده، لا أحد يدافع عنه... إنني أملّ من سماع مثل هذه الأشياء، ألا يستطيع أحد جعل الفتيات أكثر تعقلاً؟

قالت الآنسة ماربل: أوافقك على أنهن لا يستخدمن عقولهن كثيراً.

- لم تكن لتصغي إلى أحد. لقد... لقد حاولت إبقاءه بعيداً عن البيت، طلبت منه أن لا يأتي إلى البيت مرة أخرى. وكان ذلك عملاً غبياً بالطبع، وقد أدركته فيما بعد. كان يعني أن تخرج الفتاة وتقابله خارج البيت... لا أعرف أين. كانت لهما أماكن مختلفة يلتقيان فيها، واعتاد أن يأتيها بسيارته في مكان متفق عليه ويعيدها إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وفي بعض المرات لم يكن يعيدها إلاّ في اليوم التالي! وحاولت أن أخبرهما بضرورة وقف هذا التصرف لكنهما لم يصغيا. لم تكن فيريتي لتصغي، وبالطبع لم أتوقع منه أن يصغي إليّ.

- هل كانت تعتزم الزواج به؟

- لا أعتقد أن الأمور وصلت إلى ذلك الحد، لا أظن أنه كان يريد الزواج بها أو فكر في مثل هذا الأمر.

قالت الآنسة ماربل: لا بد أنك عانيت الكثير.

- نعم، وأسوأ شيء كان الذهاب للتعرف على الجثة. كان ذلك بعد وقت طويل من وفاتها... أو بعد اختفائها من هنا. اعتقدنا أنها هربت معه وأننا سنحصل على بعض الأخبار منهما في وقت ما، وكنت أعرف أن الشرطة قد أخذوا الأمر على محمل الجد. لقد طلبوا من مايكل الذهاب إلى مخفر الشرطة ليساعدهم في التحقيقات الجارية، ولم تكن أقواله متوافقة مع ما قاله السكان المحليون. ثم وجدوها في مكان بعيد من هنا، على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً في منطقة نائية شجرية في إحدى الحفر، في مكان لا يتردد عليه الناس. نعم، اضطررت للذهاب ومعاينة الجثة في المشرحة، وكان منظراً مخيفاً. الوحشية والقسوة التي استخدمت معها. لماذا فعل ذلك بها؟ ألم يكن خنقها كافياً؟ لقد خنقها بوشاحها نفسه. إنني... إنني لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك أكثر مما تحدثت، لا أتحمل ذلك، لا أطيقه.

انهمرت الدموع من عينيها بغزارة، فقالت الآنسة ماربل: أنا آسفة من أجلك، آسفة جداً جداً.

- أصدّقك.

ثم نظرت كلوتيلد إليها فجأة وقالت: حتى أنت لا تعرفين ما هو الأسوأ في هذا؟

- كيف؟

- لا أعرف... لا أعرف عن آنثيا.

- ماذا تقصدين بقولك عن آنثيا؟

كانت غريبة الأطوار في ذلك الوقت. كانت... كانت غيورة

جداً. انقلبت فجأة على فيريتي وكانت تنظر إليها نظرات كراهية، وكنت أرى أحياناً... أحياناً كنت أرى... آه، لا، إنه اعتقاد مخيف، لا يمكنك أن تشاهدي ذلك في أختك... ولكنها هاجمت شخصاً ذات مرة. كانت تأتيها نوبات الهياج هذه كثيراً، وتساءلت إن كانت هي... آه، يجب أن لا أقول أشياء كهذه. ليس هناك أي شك حول هذه المسألة، أرجو أن تنسي ما قلته لك؛ ليس في الأمر شيء، لا شيء أبداً. ولكن، ولكن... إنها ليست طبيعية تماماً. يجب أن أواجه هذه الحقيقة، عندما كانت صغيرة حدثت بعض الأمور الغريبة... مع الحيوانات. كان عندنا ببغاء يتكلم كلمات سخيفة، فلَوت رقبته وقتلته. ومنذ ذلك الوقت تغيرت مشاعري نحوها، فلم أعد أشعر أن بإمكاني أن أثق بها. لم أشعر بالأمان أبداً، لم أشعر أبداً. آه، يا إلهي! سوف أصاب بالهستيريا مثلها.

- لا بأس عليك، لا بأس عليك؛ لا تفكري بمثل هذ الأمور.

- كان سيئاً أن أعرف... أن أعرف أن فيريتي ماتت، ماتت بتلك الطريقة المرعبة. على أية حال فقد نجت فتيات غيرها من شز ذلك الصبي ونال حكماً بالسجن المؤبد. ما زال يقبع في السجن ولن يخرجوه منه حتى لا يكرر فعلته مع غيرها، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات إصابته بلوثة عقلية وبالتالي عدم تحمله المسؤولية. كان يجب أن يذهب إلى المصح العقلي في برودمور، أنا واثقة من أنه لم يكن مسؤولاً عن أي شيء فعله.

نهضت وخرجت من الغرفة، وكانت السيدة غلين قد عادت ومرّت من جانب أختها عند مدخل الباب. قالت: لا تصغي إلى كلام

كلوتيلد؛ إنها لم تتعافَ أبداً من صدمة ذلك الحادث البشع الذي حدث منذ سنوات. لقد كانت تحب فيريتي كثيراً.

- إنها تبدو قلقة على أختك الثانية.

- على آنثيا؟ إن آنثيا على ما يرام. إنها... إنها مشوشة الذهن فقط، وهي عرضة لأن تثور لأي شيء وتأتيها أوهام وتخيلات غريبة أحياناً، لكني لا أرى وجود سبب يدعو كلوتيلد لأن تقلق كثيراً. يا إلهي، من ذا يمر أمام باب المصطبة؟

فجأة ظهرت اثنتان عند الباب الزجاجي المطل على الحديقة. قالت الآنسة بارو: أرجو أن تعذرينا، لقد جئنا إلى بيت العزبة لنرى إن كانت الآنسة ماربل موجودة. لقد سمعنا أنها جاءت إلى هنا معك وقد تساءلت... آه، ها أنت هنا يا آنسة ماربل؟ كنت أريد أن أخبرك بأننا لم نذهب إلى تلك الكنيسة بعد ظهر اليوم إذ يبدو أنها مغلقة لأعمال التنظيف، ولذلك لن نقوم بأي رحلة أو جولة اليوم حيث سنؤجلها كلها إلى الغد. أرجو أن لا يضايقك قدومنا على هذا النحو، لقد رننّا جرس الباب ولكن يبدو أنه لا يعمل.

قالت السيدة غلين: إنه لا يرنّ أحياناً، يبدو أنه مزاجي، أحياناً يرنّ وأحياناً لا يرنّ. أرجو أن تجلسا لنتحدث قليلاً، لم أعرف أنكما لم تذهبا في الحافلة.

- رأينا أن نقوم ببعض الجولات في هذه المنطقة، كما أن الذهاب في الحافلة محزن جداً بعد الذي حدث قبل يومين.

قالت السيدة غلين: لا بد أن تشربا فنجاناً من الشاي.

خرجت من الغرفة، ثم عادت بعد قليل ومعها آنثيا التي كانت تحمل صينية الشاي، وكانت هادئة تماماً الآن. جلسن جميعاً، ثم قالت السيدة غلين: أريد أن أعرف ما الذي سيحدث حقيقة في هذا الأمر، أقصد الآنسة تيمبل المسكينة. يبدو من المستحيل معرفة ما يفكر الشرطة فيه، يبدو أنهم ما زالوا يتولون التحقيق في الحادث وقد تم تأجيل جلسة التحقيق، ولذلك يبدو واضحاً أنهم غير مقتنعين. لا أدري إن كان في طبيعة الإصابة أي شيء غريب.

قالت الآنسة بارو: لا أظن ذلك، أقصد أنها كانت ضربة على الرأس، ارتجاجاً شديداً... أقصد أنها بفعل الصخرة بالتأكيد. النقطة الوحيدة فقط -يا آنسة ماربل- هي إن كانت الصخرة قد تدحرجت من الأعلى بنفسها أو أن شخصاً قد حركها.

قالت الآنسة كوك: آه، إنه تفكير أمر بالتأكيد. مَن يريد أن يلقي صخرة من أعلى أو أن يقوم بذلك العمل؟ أيكون ذلك من فعل أشقياء أو بعض الشبّان من الأجانب أو الطلاب؟ إنني أتساءل حقيقة إن كان...

قالت الآنسة ماربل: تقصدين أنك تتساءلين إن كان الفاعل واحداً من زملائنا في الرحلة؟

- أنا... أنا لم أقل هذا.

قالت الآنسة ماربل: ولكننا لا نملك إلاّ أن نفكر بمثل هذا الأمر بالتأكيد. أقصد أنه لا بد من وجود تفسير معين. إن كان الشرطة متأكدين من أنه لم يكن مجرد حادث فلا بد أن يكون من فعل شخص ما. والآنسة تيمبل امرأة غريبة عن هذا المكان، فالأمر لا يبدو وكأن

شخصاً قد فعلها... أقصد من أهل المنطقة. إذن فإن الأمر يرجع... يرجع إلينا جميعاً نحن الذين كنّا في الحافلة، أليس كذلك؟

ضحكت ضحكة خفيفة، كضحكات العجائز.

- آه، بالتأكيد.

- أظن أنه ما كان ينبغي أن أقول مثل هذه الأشياء، لكن الجرائم مثيرة للاهتمام كثيراً. أحياناً تحدث أشياء غريبة جداً.

قالت كلوتيلد: هل لديك أي إحساس محدد يا آنسة ماربل؟ أنا مهتمة بسماع رأيك.

- المرء يفكر أحياناً باحتمالات معينة.

قالت الآنسة كوك: السيد كاسبر... تعرفينه، لم تعجبني نظرات ذلك الرجل من البداية. لقد بدا لي... بدا وكأن له علاقة بأنشطة التجسس. ربما جاء إلى هنا بحثاً عن أسرار عسكرية أو شيء كهذا.

قالت السيدة غلين: لا أظن أن عندنا في هذه المنطقة أية أسرار عسكرية.

قالت آنثيا: ليس عندنا بالطبع. ربما كان شخصاً يتبعها، شخصاً يقتفي آثارها لأنها كانت مجرمة من نوع ما.

قالت كلوتيلد: هذا هراء، لقد كانت مديرة متقاعدة لمدرسة مشهورة جداً، فلماذا يتتبعها أيٌّ كان؟

- آه، لا أدري! ربما أصبحت غريبة الأطوار.

قالت السيدة غلين: أنا واثقة أن للآنسة ماربل أفكاراً محددة.

قالت الآنسة ماربل: لديّ أفكار معينة، يبدو لي أن... أن الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن... آه، إنه أمر يصعب قوله. أعتقد أن هناك شخصَين يقفزان إلى ذهني كاحتمالين من الناحية المنطقية، ولا أظن أنهما كذلك حقاً، فأنا متأكدة من أنهما لطيفان جداً، لكن ما أعنيه أنه لا يوجد غيرهما يمكن الاشتباه فيه من الناحية المنطقية فقط.

- من تقصدين؟ هذا مثير جداً.

- لا أظن أنه ينبغي أن قول ذلك. إنه مجرد... مجرد حدس، رمية من غير رام.

- مَن تعتقدين أنه يمكن أن يلقي بالصخرة من أعلى؟ من تعتقدين أنه الشخص الذي رأته جوانا وإيملين برايس؟

- حسناً، إن ما أظنه أنهما ربما لم... لم يريا أي شخص!

قالت آنثيا: لا أفهم كيف لم يريا أي شخص؟

- ربما لفّقا كل هذه الرواية.

- ماذا... بخصوص رؤيتهما شخصاً أعلى الهضبة؟

- هذا محتمل، أليس كذلك؟

- هل تقصدين كنوع من المزاح أم كنوع من المشاكسة؟ ماذا تقصدين؟

- حسناً، أظن... نحن نسمع أن الشبان الصغار يفعلون أشياء غريبة جداً هذه الأيام، يضعون أشياء في عيون الخيل ويحطمون

نوافذ السفارات ويهاجمون الناس ويلقون الحجارة عليهم... الشبان هم الذين يفعلون ذلك في العادة، أليس كذلك؟ وهذان هما الشابان الوحيدان في الرحلة.

- أتقصدين أن إيملين برايس وجوانا ربما كان اللذين ألقيا تلك الصخرة؟

قالت الآنسة ماربل: إنهما الشخصان الأكثر وضوحاً كما يبدو، أليس كذلك؟

قالت كلوتيلد: غريب! ما كنت لأفكر بذلك أبداً. لكني أفهم... نعم، أفهم أنه قد يكون فيما تقولينه بعض الصحة. أنا لا أعرف هذين الشابين بالطبع فأنا لم أسافر معهما.

قالت الآنسة ماربل: إنهما شابان لطيفان جداً، وجوانا بالذات تبدو لي فتاة قديرة.

سألتها آنثيا: قديرة على فعل أي شيء؟

قالت كلوتيلد: اسكتي يا آنثيا.

قالت الآنسة ماربل: نعم، قديرة تماماً. إن كنت سترتكبين جريمة قتل فيجب أن تكوني قادرة بحيث تحرصين على أن لا يراك أحد.

قالت الآنسة بارو: لكن لا بد أنهما متورطان في الأمر معاً.

قالت الآنسة ماربل: آه، نعم، لقد شاركا في الأمر معاً، كما أنهما أدليا بنفس الرواية تقريباً. إنهما الوحيدان المشتبَه فيهما بوضوح، هذا كل ما أستطيع قوله. كانا بعيدَين عن أنظار الآخرين،

فسائر الركاب كانوا يمشون على الممر الأسفل، وكان بوسعهما أن يصعدا قمة الهضبة وأن يلقيا بالصخرة. ربما لم يقصدا قتل الآنسة تيمبل على وجه الخصوص، ربما كانا يقصدان إحداث فوضى أو إصابة أي شيء أو أي شخص فقط... دحرجا الصخرة من أعلى ثم ذهبا يقصّان هذه الرواية عن رؤية شخص هناك وعن ذلك اللباس الغريب الذي بدا بعيد الاحتمال أيضاً... ما كان ينبغي أن أقول هذه الأشياء لكني كنت أفكر فيها.

قال السيدة غلين: تبدو لي فكرة مثيرة جداً، ما رأيك يا كلوتيلد؟

- هذا محتمَل، ما كنت لأفكر في هذه الفكرة.

قالت الآنسة كوك وهي تنهض من مجلسها: يجب أن نعود إلى الفندق الآن. هل ستأتين معنا يا آنسة ماربل؟

قالت الآنسة ماربل: لا، أظن أنكما لا تعرفان، لقد نسيت أن أخبركما. لقد دعتني الآنسة سكوت مشكورة لأبقى هنا ليلة أخرى أو ليلتين.

- آه، نعم. أنا واثقة أن هذا سيكون مناسباً لك وأكثر راحة. يبدو أن مجموعة مزعجة قد وصلت إلى الفندق هذا المساء.

قالت كلوتيلد: ألا تأتيان لشرب القهوة معنا بعد العشاء؟ إنها ليلة دافئة تماماً.

قالت الآنسة كوك: سيكون ذلك جميلاً. نعم، سوف نستغل كرمك هذا بالتأكيد.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

دقّات الساعة تشير إلى الثالثة

وصلت الآنسة كوك والآنسة بارو في الساعة التاسعة إلا ربعاً تماماً، وكانت إحداهما ترتدي ثوباً بنياً فاتحاً والأخرى ثوباً أخضر زيتياً.

وكانت آنثيا قد سألت الآنسة ماربل في أثناء العشاء عن هاتين السيدتين. قالت: يبدو غريباً منهما أن تتخلفا عن الرحلة.

وردّت عليها الآنسة ماربل: آه، أظن ذلك. أظن أن لديهما خطة.

سألتها السيدة غلين: ماذا تقصدين بالخطة؟

أظنهما مستعدتين دائماً للاحتمالات المختلفة ولديهما خطة للتعامل معها.

قالت آنثيا ببعض الاهتمام: هل تقصدين أن لديهما خطة للتعامل مع جريمة قتل؟

قالت السيدة غلين: أرجو أن لا تتكلمي عن وفاة الآنسة تيمبل المسكينة باعتبارها جريمة قتل.

قالت آنثيا: إنها جريمة قتل بالطبع. ما يحيّرني فقط هو: مَن عساه يريد قتلها؟ يُخيّل إليّ أنها ربما كانت واحدة من تلميذاتها في المدرسة كانت تكرهها وتضمر لها الشر.

سألتها الآنسة ماربل: وهل تعتقدين أن الكراهية يمكن أن تدوم كل هذه المدة؟

- أظن ذلك، أعتقد أن بوسع المرء أن يكره شخصاً ما لسنوات طويلة.

قالت الآنسة ماربل: لا؛ أعتقد أن الكراهية تتلاشى مع الوقت. يمكنك أن تحاولي المحافظة على الكراهية ظاهرياً لكن أعتقد أن محاولتك ستبوء بالفشل. ليس للكراهية قوة كقوة الحب.

- أنت تظنين أن الآنسة كوك أو الآنسة بارو هما اللتان ارتكبتا جريمة القتل؟

قالت السيدة غلين: ولماذا يفعلا ذلك؟ ما بالك يا آنثيا؟ أرى أنهما امرأتان لطيفتان.

قالت آنثيا: أما أنا فأرى أن فيهما شيئاً غامضاً. ألا تظنين ذلك يا كلوتيلد؟

قالت كلوتيلد: ربما تكونين على حق، إنني أرى فيهما مسحة من التظاهر والتصنع.

قالت آنثيا: أنا أرى فيهما شيئاً شريراً تماماً.

قالت السيدة غلين: إن لديك مثل هذه الخيالات دائماً. على أية حال فقد كانتا تسيران على الطريق السفلي، أليس كذلك؟ ألم تشاهديهما هناك؟

قالت ذلك تخاطب الآنسة ماربل، فقالت الآنسة ماربل: لا أستطيع القول إنني لاحظتهما تماماً. في الواقع لم تتح لي فرصة لذلك.

- تقصدين...؟

قالت كلوتيلد: إنها لم تكن هناك، لقد كانت موجودة هنا في حديقتنا.

- آه، بالطبع. لقد نسيت.

قالت الآنسة ماربل: كان يوماً رائعاً هادئاً وقد استمتعت به كثيراً. أريد أن أخرج في صباح الغد لألقي نظرة ثانية على الأزهار البيضاء التي تتفتح عند طرف الحديقة قرب تلك الكومة المرتفعة. كانت قد بدأت تتفتح منذ أيام قليلة ولا بد أنها أصبحت الآن غابةَ أزهارٍ كثيفة. سأتذكر هذا دائماً كجزء من زيارتي لهذا المكان.

قالت آنثيا: إنني أكرهها وأريدها أن تزول، أريد بناء مستنبَت زجاجي هناك. لو كان لدينا مالٌ كافٍ لفعلنا ذلك يا كلوتيلد، أليس كذلك؟

قالت كلوتيلد: سنتركه على حاله. لا أريد أن يمسّه أحد، فما فائدة بيت النبات الزجاجي لنا الآن؟ ستمضي سنوات قبل أن تحمل الدالية عنباً مرة ثانية.

قالت السيدة غلين: لا نستطيع الاستمرار في هذا الجدل. لنذهب إلى غرفة الاستقبال، ستصل ضيفتانا لشرب القهوة عمّا قريب.

* * *

في ذلك الوقت وصلت الضيفتان. أحضرت كلوتيلد صينية القهوة ووزّعت الفناجين على الحاضرات، وضعت فنجاناً أمام كل واحدة من الضيفتين ثم أحضرت واحداً للآنسة ماربل. مالت الآنسة كوك إلى الأمام وقالت: آه، أرجو أن تعذريني يا آنسة ماربل، لو كنت مكانك لما شربت القهوة. أقصد في هذا الوقت من الليل، فلن تنامي جيداً.

قالت الآنسة ماربل: آه، هل تعتقدين ذلك؟ إنني معتادة على شرب القهوة في المساء.

- نعم، لكن هذه قهوة ثقيلة وأنصحك بأن لا تشربيها.

نظرت الآنسة ماربل إلى الآنسة كوك. كان وجه الآنسة كوك جاداً تماماً وشعرها الأشقر المصبوغ يتدلى ليغطي إحدى عينيها، وكانت العين الأخرى تطرف قليلاً.

قالت الآنسة ماربل: لقد فهمت ما تعنينه. ربما كنتِ على صواب؛ أظن أنك خبيرة في أمور الحمية بعض الشيء.

- آه، نعم، لقد درستها. لقد سبق وتدربت قليلاً على التمريض وبعض الأمور الأخرى.

دفعت الآنسة ماربل فنجان القهوة قليلاً وقالت: نعم، ترى هل

عندكن صورة لهذه الفتاة؟ أعني فيريتي هنت؟ كان رئيس القساوسة يتحدث عنها ويبدو أنه كان يحبها كثيراً.

قالت كلوتيلد: نعم، كان يحب جميع الشبان الصغار.

نهضت كلوتيلد وذهبت إلى حيث يوجد المكتب، ففتحت أحد أدراجه وأخرجت منه صورة وأحضرتها إلى الآنسة ماربل لتراها قائلة: هذه صورة فيريتي.

قالت الآنسة ماربل: إنها ذات وجه جميل. نعم، وجه جميل جداً وغير عادي. مسكينة!

قالت آنثيا: إن هذه الأشياء التي تحدث دائماً مخيفة جداً... الفتيات يخرجن مع كل شاب وما من أحد يكلّف نفسه عناء الاهتمام بهن.

قالت كلوتيلد: إنهن مضطرات للاهتمام بأنفسهن في هذه الأيام، وهنّ لا يعرفن كيف يفعلن ذلك، ليساعدهن الله.

مدّت يدها لتأخذ الصورة من الآنسة ماربل فأصاب طرف كمّها فنجان القهوة وأسقطه على الأرض. قالت الآنسة ماربل: يا إلهي! أأنا السبب؟ هل دفعتُ ذراعك؟

قالت كلوتيلد: لا، إنه كُمّي، إنه فضفاض بعض الشيء. هل لك في كأس من الحليب الساخن إن كنت تخشين شرب القهوة؟

قالت الآنسة ماربل: سيكون ذلك من لطفك. إن كأساً من الحليب الساخن قبل النوم سيكون مهدئاً وسيسمح بنوم عميق.

وبعد حديث عابر غادرت الآنسة كوك والآنسة بارو. كانت

مغادرة فيها جلبة وضجة حيث كانت كل واحدة منهما تعود لتأخذ شيئاً نسيته؛ وشاحاً وحقيبة ومنديل جيب...

قالت آنثيا عندما غادرتا أخيراً: جلبة، جلبة، جلبة.

قالت السيدة غلين تخاطب الآنسة ماربل: أوافقُ كلوتيلد على أن هاتين المرأتين لا تتصرفان تصرفاً طبيعياً.

قالت الآنسة ماربل: نعم، وأنا أوافقك الرأي أيضاً؛ لا تبدوان طبيعيتين. لقد حيرني أمرهما كثيراً وتساءلت عن سبب مجيئهما في هذه الرحلة، وعمّا إذا كانتا تستمتعان بها فعلاً، وتساءلت عن سبب مجيئهما.

سألتها كلوتيلد: وهل اكتشفت إجابات على كل هذه الأسئلة؟

قالت الآنسة ماربل: أظن ذلك.

ثم تنهدت وقالت: لقد اكتشفت إجابات على كثير من الأشياء.

قالت كلوتيلد: أرجو أن تكوني قد متّعت نفسك حتى هذه اللحظة.

- أنا مسرورة لأنني تركت الرحلة؛ لا أظن أنني كنت سأستمتع بما تبقّى منها.

- نعم، أتفهّم هذا جيداً.

أحضرت كلوتيلد كأساً من الحليب الساخن من المطبخ ورافقت الآنسة ماربل إلى غرفتها، ثم سألتها: أيوجد أي شيء آخر تريدين مني إحضاره لك؟ أي شيء؟

- لا، شكراً لك؛ لديّ كل شيء أريده. لدي حقيبة ملابس النوم هذه ولذلك لا حاجة لأن أخرج أية أمتعة من الحقيبة الكبرى. شكراً لك، إنه كرم عظيم منك ومن شقيقتيك أن تستقبلنَني هنا هذه الليلة أيضاً.

- لم يكن باستطاعتنا أن نفعل أقل من ذلك بعد أن تلقينا رسالة السيدة رافائيل. لقد كان رجلاً عميق التفكير.

- كان رجلاً قديراً يفكر في كل شيء، أظن أنه كان ذا عقل عظيم.

- أظن أنه كان ذا عقل مالي راجح.

- كان ذا عقل مالي وغير مالي أيضاً، وكان يفكر في أشياء كثيرة. آه، سيسعدني أن أنام، طابت ليلتك يا عزيزتي.

- هل أحضر لك طعام الإفطار إلى غرفتك في الصباح؟

- لا، لا أريد أن أزعجكن، سوف أنزل. ربما فنجان من الشاي سيكفي لكني أريد الخروج إلى الحديقة، أريد بشكل خاص رؤية تلك الكومة التي تغطيها الأزهار البيضاء، جميلة جداً...

قالت كلوتيلد: طابت ليلتك، نوماً سعيداً.

❋ ❋ ❋

دقت الساعة الكبيرة الموجودة في صالة بيت العزبة القديمة عند أسفل الدرج معلنة الساعة الثانية. لم تكن جميع الساعات الموجودة في البيت تدقّ في وقت واحد، بل إن بعضها لم يكن يدق أبداً. لم

يكن من السهل جعل الساعات القديمة العديدة الموجودة في البيت تدق في انتظام. وعند الساعة الثالثة دقّت الساعة الموجودة عند استراحة الدرج في الطابق الأول ثلاث دقات ناعمة، ثم ظهر ضوء خافت من خلال مفاصل الباب.

جلست الآنسة ماربل على سريرها ووضعت أصابعها على مفتاح المصباح الكهربائي القريب من سريرها. ثم فُتح الباب بهدوء شديد. لم يَعُد في الخارج الآن أي ضوء لكن الخطوات الناعمة اقتربت من الباب، وأضاءت الآنسة ماربل المصباح وقالت: آه، هذا أنت يا آنسة سكوت؟

قالت الآنسة سكوت: لقد جئت لأرى إن كنت تريدين شيئاً.

نظرت إليها الآنسة ماربل. كانت كلوتيلد ترتدي روباً أرجوانياً طويلاً، ورأت الآنسة ماربل كم هي أنيقة هذه المرأة. كان شعرها يحدّ جبينها، امرأة أشبه بشخصية تراجيدية، شخصية مسرحية. ومرة أخرى فكرت الآنسة ماربل بالمسرحيات الإغريقية، ومرة أخرى رأت في كلوتيلد شخصية كليتمنسترا!

- هل أنت واثقة من عدم حاجتك لأي شيء؟

- نعم، أشكرك.

ثم أضافت معتذرة: أخشى أن لا أكون قد شربت الحليب.

- آه، لماذا لم تشربيه؟

- لم أعتقد أنه يفيدني.

وقفت كلوتيلد هناك عند طرف السرير تنظر إليها. قالت الآنسة ماربل: ليس صحياً.

- ما الذي تعنينه بذلك بالضبط؟

صار صوت كلوتيلد جافاً الآن، وقالت الآنسة ماربل: أعتقد أنك تعرفين ما أعنيه، أظنك كنت تعرفين طوال المساء وربما قبل ذلك.

- لا أعرف عن أي شيء تتكلمين.

- حقاً؟

كان في نبرة الآنسة ماربل إذ طرحت سؤالها القصير هذا لمسة سخرية خفيفة.

قالت كلوتيلد: أخشى أن يكون الحليب قد برد الآن، سآخذه وأحضر لك كوباً ساخناً غيره.

ثم مدّت يدها وأخذت كوب الحليب من جانب السرير، فقالت الآنسة ماربل: لا تتعبي نفسك، حتى لو أحضرت غيره فلن أشربه.

- لا أفهم مغزى ما تقولينه أبداً. يا لك من امرأة غريبة! أية امرأة أنت؟ لماذا تتحدثين بهذه اللهجة؟ من أنت؟

ألقت الآنسة ماربل بوشاح الصوف الوردي الذي كان يلف رأسها. كان نفس الوشاح الذي لبسته عندما كانت في جزر الهند الغربية، وقالت: إن أحد الصفات التي دعاني البعض بها هو «انتقام العدالة».

- انتقام العدالةِ! وماذا يعني هذا؟

- أظنك تعرفين، فأنت امرأة مثقفة جداً. أحياناً تتأخر العدالة طويلاً، لكنها تأتي في النهاية.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

قالت الآنسة ماربل: أتحدث عن فتاة جميلة جداً قتلتِها!

- فتاة قتلتُها؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد فيريتي.

- ولماذا أقتلها؟

- لأنك أحببتِها.

- كنت أحبها بالطبع، وهي أحبتني.

- لقد قيل لي منذ أمد قصير إن الحب كلمة مخيفة جداً، وهي كلمة مخيفة جداً بالفعل. لقد أحببتِ فيريتي كثيراً؛ كانت تعني لك كل شيء في الوجود، وكانت مخلصة لك إلى أن طرأ طارئ في حياتها، حب مختلف دخل حياتها. لقد أحبت ولداً، شاباً لم يكن جديراً بها ولم يكن سجله نظيفاً، لكنها أحبته وهو أحبها، وأرادت أن تهرب... أرادت أن تهرب من عبء رباط الحب الذي كانت تعيشه معك. لقد أرادت الحياة الطبيعية التي تنشدها المرأة، أرادت أن تعيش مع رجل من اختيارها وأن تنجب منه أطفالاً، أرادت الزواج وسعادة الحياة الطبيعية.

تحركت كلوتيلد إلى أحد الكرسي فجلست عليه وهي تحدق إلى الآنسة ماربل، ثم قالت: إذن يبدو أنك تفهمين جيداً؟

- نعم، أفهم بالفعل.

- إن ما تقولينه صحيح تماماً. لن أنكره، لا يهم إن أنكرت أو لم أنكر.

قالت الآنسة ماربل: نعم، أنت على حق في هذا؛ لن يهم ذلك.

- هل تعرفين... هل تتخيلين كم عانيت؟

- نعم، يمكنني تخيل ذلك؛ فأنا أستطيع تخيل الأشياء دائماً.

- هل تخيلت المعاناة، معاناة التفكير، معاناة الإدراك بأنك ستخسرين الشيء الذي تحبينه أكثر من أي شيء في هذه الدنيا... وكنت سأفقده لمصلحة جانح بائس محروم، رجل لا يستحق فتاتي الجميلة الرائعة هذه. اضطررت لأن أوقف ذلك، اضطررت... اضطررت.

قالت الآنسة ماربل: نعم؛ قبل أن تتركي الفتاة تذهب قتلتِها. قتلتِها لأنك أحببتِها!

- كيف تظنين أن باستطاعتي فعل شيء كهذا؟ أتظنين أنني أستطيع خنق الفتاة التي أحببتها؟ أتظنين أنني كنت أستطيع تهشيم وجهها وسحق رأسها؟ لا يفعل مثل هذا الأمر إلاّ رجل محروم شرير.

قالت الآنسة ماربل: لا، ما كنت لتفعلي ذلك. لقد أحببتها ولم يكن بوسعك أن تفعلي ذلك بها.

- إذن فإن كلامك هذا هراء؟

- لم تفعلي ذلك بها. إن الفتاة التي حدث لها ذلك لم تكن

الفتاة التي أحببتها. فيريتي ما زالت موجودة هنا، أليس كذلك؟ إنها هنا في الحديقة! لا أظن أنك خنقتها، بل أظن أنك أعطيتِها فنجاناً من القهوة أو الحليب ووضعتِ لها فيه جرعة زائدة من مادة منومة، وعندما ماتت أخذتِها إلى الحديقة فأزحتِ اللَّبِنات المتساقطة من جدار المستنبَت الزجاجي وحفرت لها قبراً هناك تحت الأرض ثم غطيتِه، وبعد ذلك زرعتِ النباتات هناك، فأزهرت منذ ذلك الوقت وأصبحت تنمو وتقوى كل عام. لقد بقيَت فيريتي هنا معك؛ لم تتركيها تذهب أبداً.

- أيتها الحمقاء، أيتها العجوز المجنونة! هل تعتقدين أنك ستنجين وتفلتين مني لتحكي هذه القصة؟

قالت الآنسة ماربل: أظن ذلك، ولكني لست واثقة تماماً. أنت امرأة قوية، أقوى مني بكثير.

- يسعدني أنك تقدّرين ذلك.

- كما أنك تفتقرين لأي وازع. إن القاتل لا يتوقف عند جريمة واحدة؛ لقد لاحظت ذلك وخبرته في حياتي ومراقبتي لعالم الجريمة. لقد قتلتِ فتاتين، أليس كذلك؟ لقد قتلت الفتاة التي أحببتها وقتلت فتاة أخرى.

- نعم، قتلت مومساً سخيفة، فتاة مراهقة سيئة اسمها نورا برود. كيف عرفت بأمرها؟

- لقد تساءلت في نفسي كثيراً. لم أصدّق أبداً أن بوسعك أن تخنقي فتاة تحبينها ثم تشوهي وجهها. ولكن فتاة أخرى اختفت في

ذلك الوقت أيضاً، فتاة لم يعثر على جثتها أحدٌ. ولكني رأيت أن الجثة قد اكتُشفت فعلاً إلاّ أنهم لم يعرفوا أنها جثة نورا برود. لقد أُلبست ثياب فيريتي وتم التعرف عليها على أنها جثة فيريتي من قِبل أول شخص يمكن للشرطة أن تلجأ إليه، أي من قِبل المرأة التي عرفتها أفضل من أية واحدة أخرى. كان عليك أن تذهبي وتقولي إن كانت الجثة التي عُثر عليها هي جثة فيريتي أو لا، وتعرفتِ عليها. قلتِ إن تلك الفتاة الميتة هي فيريتي.

- ولماذا أفعل هذا؟

- لأنك أردت تقديم الفتى الذي أخذ منك فيريتي، الفتى الذي أحبته فيريتي وأحبها، إلى المحاكمة بتهمة القتل. وهكذا أخفيتِ الجثة الثانية في مكان ليس من السهل كشفه، وعندما اكتُشفت الجثة هذه اعتقدوا أنها الفتاة الأخرى. لقد عملت على تمويه الجثة لتبدو كما أردت؛ ألبستها ثياب فيريتي ووضعت حقيبتها بجانبها ورسالة أو رسالتين وأسورتها وسلسلة ذهبية... وشوّهت وجهها. لكن قبل أسبوع ارتكبت الجريمة الثالثة؛ قتلتِ إليزابيث تيمبل، قتلتها لأنها كانت قادمة إلى هذه المنطقة وكنت تخشين مما يمكن أن تعرفه، مما يمكن أن تكون فيريتي قد كتبته لها أو أخبرتها به. واعتقدتِ أنه لو التقت إليزابيث تيمبل برئيس القساوسة برابازون فإنهما قد يتوصلان إلى الحقيقة بما عندهما من معلومات، ولذلك لا ينبغي السماح لإليزابيث تيمبل بلقاء ذلك الرجل. أنت امرأة قوية جداً، وقد كان بوسعك دحرجة تلك الصخرة من أعلى الهضبة. لا بد أنها تطلبت جهداً كبيراً لكنك امرأة قوية جداً كما قلت.

قالت كلوتيلد: نعم، أنا قوية بما يكفي للتعامل معك.

قالت الآنسة ماربل: لا أعتقد أنني سأسمح لك بفعل ذلك.

- ماذا تقصدين أيتها العجوز البائسة الخَرِفة؟

- نعم، أنا عجوز وجسدي ضعيف، ضعيفة في كل جسمي، ولكنني مبعوثة العدالة.

ضحكت كلوتيلد وقالت: ومَن الذي سيمنعني من قتلك؟

- أعتقد أنه الملاك الذي يحرسني!

- أنت تثقين بملاكك الحارس إذن، أليس كذلك؟

ثم ضحكت مرة أخرى واقتربت من السرير، فقالت الآنسة ماربل: ربما كانا ملَكين اثنين، فالسيد رافائيل كان سخياً في كل ما يفعله.

مدّت يدها تحت الوسادة وأخرجتها ثانية وفيها صافرة وضعتها في فمها وصفرت، وكان صوت الصافرة مثيراً وقوياً بما يكفي لتنبيه شرطي حتى لو كان في آخر الشارع. ثم حدث أمران في وقت واحد تقريباً؛ فقد فُتح باب الغرفة، والتفتت كلوتيلد فرأت الآنسة بارو تقف عند مدخله، وفي الوقت نفسه فُتح باب خزانة الحائط الكبيرة وخرجت منه الآنسة كوك! كانت حركاتهما القوية تدل على أنهما سيدتان محترفتان بشكل ملفت للنظر بعكس مظهرهما الاجتماعي البسيط الذي كانتا عليه قبل ساعات.

قالت الآنسة ماربل سعيدة: ملاكان حارسان... لقد أكرمني السيد رافائيل كثيراً!

* * *

الفصل الثاني والعشرون
الآنسة ماربل تروي قصتها

سألها البروفسور وانستيد: متى اكتشفت أن هاتين المرأتين عميلتان خاصتان ترافقانك من أجل حمايتك؟

مال بجسده إلى الأمام وهو ينظر متأملاً إلى العجوز ذات الشعر الأبيض التي جلست منتصبة الظهر على الكرسي أمامه. كانا يجلسان في مبنى حكومي في لندن وكان أربعة أشخاص آخرون حاضرين؛ مسؤول من مكتب الادعاء العام، ومساعد مفوض شرطة سكوتلانديارد السير جيمس لويد، وحاكم سجن مانستون السير آندور ماكنيل، أما الرابع فكان وزير الداخلية.

قالت الآنسة ماربل: لم أعرف ذلك إلاّ في آخر ليلة، فلم أكن واثقة منهما حتى ذلك الوقت. لقد جاءت الآنسة كوك إلى سينت ميري ميد واكتشفتُ بسرعة أنها لم تكن كما كانت تتظاهر، حيث تظاهرت بأنها خبيرة في شؤون البستنة والحدائق وجاءت إلى هناك لتساعد صديقة في عمل حديقتها. لذلك كان عليّ أن أقرر هدفها الحقيقي من قدومها ذاك، وهو تعرفها على شكلي. كان واضحاً أن ذلك كان

الهدف الوحيد لمجيئها، وعندما ميّزتها مرة أخرى في الحافلة كان عليّ أن أقرر إن كانت قد جاءت في هذه الرحلة من أجل الحراسة أم أن هاتين المرأتين عدوتان جاءتا بطلب من الطرف الآخر.

لقد تأكدت من حقيقتهما في تلك الأمسية الأخيرة فقط عندما منعتني الآنسة كوك بكلمات تحذير واضحة من شرب فنجان القهوة الذي وضعته كلوتيلد أمامي. قالت عبارتها بطريقة ذكية جداً لكن التحذير كان واضحاً فيها، وبعد ذلك عندما كنت أودع هاتين المرأتين أمسكت إحداهما يدي بكلتا يديها وهي تصافحني مصافحة حارة، وفي أثناء ذلك وضعت في يدي شيئاً عرفت فيما بعد أنه صافرة قوية جداً. أخذتها معي إلى الغرفة وقلبت كوب الحليب الذي ألحّت مضيفتي عليّ بشربه وودعتها وأنا حريصة على عدم تغيير طريقتي اللطيفة والبسيطة في التعامل معها.

- ألم تشربي الحليب؟

- بالطبع لم أشربه. ماذا تحسبني؟

قال البروفسور وانستيد: أرجو المعذرة، إن ما يدهشني أنك لم تقفلي باب غرفتك.

- أردت أن تدخل كلوتيلد؛ أردت أن أرى ما ستقوله أو تفعله، وكنت شبه متأكدة من أنها ستأتي بعد مرور بعض الوقت حين تتأكد من أنني شربت الحليب وغبت عن الوعي ونمت نومة يفترض أن لا أستيقظ بعدها أبداً.

- هل ساعدت الآنسة كوك في الاختباء داخل الخزانة؟

- لا، بل لقد فوجئت تماماً عندما رأيتها تخرج من هناك فجأة. أظن... أظن أنها تسللت إلى هناك عندما نزلت إلى الحمّام.

- هل كنت تعرفين أن المرأتين كانتا في البيت؟

- رأيت أنهما ستكونان في مكان قريب بعد أن أعطياني الصافرة. لا أعتقد أنه بيت يصعب الدخول إليه؛ فليس للنوافذ واقيات خشبية ولم تكن فيه أجهزة إنذار ضد السرقة أو أي شيء كهذا... لقد عادت واحدة منهما بحجة أنها تركت حقيبتها ووشاحها، وربما عملتا فيما بينهما على ترك إحدى النوافذ مفتوحة، وأظن أنهما عادتا إلى البيت حالما غادرَتاه بينما كانت صاحبات المنزل ذاهبات إلى النوم.

- لقد جازفتِ مجازفة كبيرة يا آنسة ماربل.

قالت الآنسة ماربل: لا يمكن أن تسير حياة الإنسان دون مجازفات إن لزم الأمر.

- بالمناسبة، إن فكرتك عن الطرد الذي أرسل إلى المؤسسة الخيرية كانت ناجحة تماماً. كان الطرد يحتوي على سترة رجّالية زاهية الألوان ذات مربعات سوداء وحمراء. كانت ملفتة للنظر جداً. ما الذي جعلك تفكرين بهذا؟

قالت الآنسة ماربل: كان ذلك عملاً بسيطاً جداً. الوصف الذي أعطاه إيملين وجوانا للشخص الذي شاهداه جعلني أتأكد من أن هذه الملابس ذات الألوان الملفتة للنظر كان يقصَد بها أن تُلاحَظ، ولذا فمن المهم جداً عدم إخفائها في البيت أو ضمن أغراض هذا الشخص الخاصة. كان يجب التخلص منها بأسرع وقت ممكن، والحق أن هناك طريقة واحدة فقط ناجحة للتخلص من شيء ما، وهي بواسطة

البريد العام. أي شيء في شكل ملابس يمكن إرساله إلى الجمعيات الخيرية بسهولة، وكم سيكون الناس الذين يجمعون ملابس الشتاء للجمعيات الخيرية سعداء عندما يجدون سترة صوف جديدة! كل ما كان عليّ عمله هو معرفة العنوان الذي أُرسلت إليه.

بدا وزير الداخلية مصدوماً بعض الشيء وهو يقول: وهل طلبت منهم العنوان في مكتب البريد؟

- ليس صراحة بالطبع، أقصد أنه كان ينبغي عليّ أن أظهر بعض الارتباك وأشرح لهم كيف وضعت عنواناً خاطئاً على طرد ملابس أرسلته إلى جمعية خيرية، وسألتهم إن كان هذا الطرد الذي أرسلته إحدى مُضيفاتي قد أُرسل أم لا... وكانت هناك امرأة لطيفة بذلت جهدها لخدمتي وتذكّرت أنه لم يكن العنوان الذي كنت أرجو أن يكون الطرد قد أرسل إليه، وأعطتني العنوان الذي سجلَته. أظن أن أية شكوك لم تساورها بوجود رغبة لديّ للحصول على المعلومات سوى أنني عجوز مشوشة الذهن ومتضايقة من عدم معرفة الوجهة التي سلكها طرد الملابس المستعمَلة الذي أرسلته.

قال البروفسور وانستيد: آه، أرى أنك ممثلة يا آنسة ماربل! ومتى بدأت تكتشفين ما حدث قبل عشر سنوات؟

قالت الآنسة ماربل: في البداية وجدت الأمور صعبة للغاية، بل تكاد تكون مستحيلة. كنت في داخلي ألوم السيد رافائيل لأنه لم يوضّح لي الأمور، ولكني عرفت الآن أنه كان حكيماً لأنه لم يفعل ذلك. لقد كان رجلاً ذكياً ذكاء غير عادي، لقد عرفت الآن سر نجاحه في عمله وهذه الثروة الواسعة التي جمعها بسهولة، لقد وضع خططه بطريقة جيدة. لقد أعطاني معلومات كافية في شكل جرعات صغيرة كل مرة،

كان يوجّهني. في البداية طُلب من ملَكيّ الحارسين معرفة شكلي، ثم طُلب مني الذهاب في هذه الرحلة والتعرف على من فيها.

- هل اشتبهت بأي واحد في الحافلة في البداية؟

- كانت مجرد احتمالات.

- ألم تكن لديك أحاسيس بوجود الشر.

- آه، ها أنت قد تذكرت هذا. لا أظن أنه كانت توجد أجواء محددة من الشر، لم يقل لي أحدٌ مع مَن ستكون صلتي هناك، ولكنها هي التي عرّفتني بنفسها.

- إليزابيث تيمبل؟

- نعم، كان كالضوء الكشّاف ينير الأشياء في ليلة معتمة، وكنت حتى ذلك الوقت أجهل كل شيء. كانت هناك أشياء معينة يجب أن تكون، أقصد يجب أن تكون من الناحية المنطقية بسبب ما أشار إليه السيد رافائيل. لا بد من وجود ضحية ومجرم في مكان ما، نعم، لقد أشار إلى وجود قاتل لأن هذا هو الرابط الوحيد الذي وُجد بيني وبين السيد رافائيل. لقد وقعت جريمة قتل في جزر الهند الغربية، وقد شاركت معه في حلها، وكل ما كان يعرفه عني هو صلتي بذلك الأمر. لذلك لا يمكن أن يكون الأمر نوعاً آخر من الجرائم، كما لا يمكن أن تكون جريمة عرَضية. يجب أن تكون وتُظهر نفسها على أنها من تصميم شخص اتخذ الشرّ طريقاً، الشر بدلاً من الخير. وقد بدا أن هناك ضحيتين؛ أي لا بد من وجود شخص قُتِل وشخص آخر عوقب ظلماً كما هو واضح، ضحية تم اتهامه بارتكاب جريمة قتل لم يرتكبها.

سكتت الآنسة ماربل قليلاً لالتقاط أنفاسها ثم مضت تقول: وعندما كنت أقلب تلك الأمور في داخلي لم أكن أعرف عنها شيئاً إلى أن تحدثت مع الآنسة تيمبل. كانت ذات عاطفة جياشة ومسيطرة جداً، ومن هناك جاءت أول رابطة كانت لي مع السيد رافائيل. تكلمت عن فتاة عرفتها، فتاة كانت مخطوبة ذات مرة لابن السيد رافائيل. هذا هو أول بصيص من ضوء بالنسبة لي إذن، وسرعان ما أخبرتني بأن الفتاة لم تتزوجه. وسألتها عن السبب فقالت «لأنها ماتت». سألتها كيف ماتت أو ما هو سبب موتها فقالت بقوة وحدّة... وما زلت أستطيع سماع صوتها كصوت الجرس العميق... قالت: «الحب»! وبعد ذلك قالت: «إن كلمة الحب هي أكثر الكلمات المخيفة رهبة»! ولم أدرك وقتها ما كانت تعنيه بالضبط، والواقع أن أول فكرة راودتني هي أن الفتاة انتحرت نتيجة لعلاقة غرامية غير موفَّقة. مثل هذا يحدث كثيراً وتكون مأساة محزنة عندما تقع. كان ذلك كل ما عرفته وقتها، كما عرفت حقيقة أنها لم تكن تشارك في الرحلة لمجرد المتعة. لقد أخبرتني بأنها ذاهبة في «رحلة حج»، كانت ذاهبة إلى مكان معين أو إلى شخص معين. ولم أعرف وقتها من هو ذلك الشخص بل عرفته فيما بعد.

- رئيس القساوسة برابازون؟

- نعم. ومنذ ذلك الوقت أحسست أن الشخصيات الرئيسية... الممثلين الرئيسيين في المسرحية لم يكونوا بين المسافرين في الرحلة. وترددت لوقت قصير، ترددت بخصوص أشخاص معينين، ترددت وأنا أفكر في جوانا كراوفورد وإيملين برايس.

- ولماذا ركّزتِ عليهما؟

- بسبب صغر سنهما؛ لأن الشباب يرتبط دائماً بالانتحار وبالعنف والغيرة الشديدة وبالحب المأساوي. رجل يقتل فتاته... هذا يحدث. نعم، لقد انشغل ذهني بهما ولكن لم يظهر لي وجود أي صلة لهما بالأمر. لم يظهر أي ظل من شر أو يأس أو بؤس... وقد استخدمت فكرتهما فيما بعد كمؤشر وهمي عندما كنّا معاً في بيت العزبة القديمة في تلك الأمسية الأخيرة، فشرحت كيف يمكن أن يكونا أقوى المشتبَه فيهم في وفاة إليزابيث تيمبل. وعندما أراهما ثانية سأعتذر لهما عن استخدامي إياهما كشخصيتين مفيدتين لإبعاد الانتباه عن أفكاري الحقيقية.

- وكان الأمر التالي هو وفاة إليزابيث تيمبل؟

- لا؛ الواقع أن الشيء التالي كان وصولي إلى بيت العزبة القديمة وحسن استقبالي وكرم ضيافتي. ذلك أيضاً رتّبه السيد رافائيل، لذلك عرفت أنني يجب أن أذهب إلى هناك من أجله. قد يكون مجرد مكان أحصل فيه على مزيد من المعلومات التي تقودني في عملي إلى الأمام. أنا آسفة...

عادت الآنسة ماربل إلى طبيعتها الاعتذارية وهي تقول: آسفة لأنني أطيل الكلام، لا أريد أن أشغلكم بما كنت أفكر فيه و...

قال البروفسور وانستيد: أرجو أن تستمري. قد لا تعرفين أن ما تقولينه الآن يثير اهتمامي؛ إنه أمر يتصل بكثير من الحالات التي عرفتها ورأيتها في أثناء عملي. استمري في توضيح ما شعرت به.

قال السير آندرو ماكنيل: نعم، استمري من فضلك.

قالت الآنسة ماربل: كان ذلك شعوراً ولم يكن استنتاجاً منطقياً

في الحقيقة. كان يرتكز على رد فعل يتعلق بالحدس أو... لا يمكنني إلاّ أن أعزوه إلى الجو العام في البيت.

قال وانستيد: نعم، ثمة جو عام؛ جو في البيوت، في الأماكن، في الحديقة، في الغابة...

- الأخوات الثلاث! هذا ما فكرت به وشعرت به وقلته في نفسي عندما دخلت بيت العزبة القديمة. إن في عبارة الأخوات الثلاث شيئاً ما... إنها عبارة تجعل الشر يقفز إلى ذهنك، فهي ترتبط بالأخوات الثلاث المذكورات في الأدب الروسي والساحرات الثلاث في مسرحية ماكبث... لقد بدا لي وجود جو من الأسى ومن الإحساس العميق بالحزن، وأيضاً جو من الخوف، مع شيء من الصراع مع جو آخر مختلف أستطيع أن أصفه بأنه الجو الطبيعي.

قال وانستيد: إن كلمتك الأخيرة هذه تثير اهتمامي.

- أظن أن ذلك بسبب السيدة غلين، فهي التي جاءت لاستقبالي عندما وصلت الحافلة وشرحت لي طبيعة الدعوة. لقد استقبلتني لافينيا غلين بلطف وكرم وكانت طبيعية للغاية ومريحة. أرملة لم تكن سعيدة جداً، لكنني عندما أقول إنها لم تكن سعيدة جداً فليس لذلك علاقة بالأسف أو بالحزن العميق، إنما كانت تعيش في جو لا يلائم شخصيتها. أخذتني معها إلى البيت فقابلت شقيقتَيها، وفي صباح اليوم التالي سمعت من خادمة مسنّة أحضرت لي الشاي في الصباح الباكر قصة عن مأساة مضت لفتاة قتلها صديقها وعن عدة فتيات غيرها في المنطقة وقعن ضحايا للعنف.

سكتت قليلاً ثم قالت: وكان عليّ القيام بتقييمي الثاني عندئذ؛

فأبعدت من ذهني ركاب الحافلة كونهم لا صلة لهم ببحثي. ما زال هناك قاتل في مكان ما، وسألت نفسي إن كان أحد القتلة موجوداً هنا، هنا في هذا البيت الذي أُرسلت إليه: كلوتيلد، لافينيا، آنثيا؟ ثلاثة أسماء لثلاث أخوات غريبات، ثلاث أخوات سعيدات... حزينات.... ثلاث يعانين... ثلاث خائفات... ماذا كنّ؟ وتركّزَ انتباهي في البداية على كلوتيلد. امرأة طويلة القامة مليحة الشكل ذات شخصية قوية، تماماً مثل إليزابيث تيمبل ذات الشخصية القوية. وشعرت أن المجال هنا كان محدوداً، فيجب أن آخذ فكرة ملخّصة عن الأخوات الثلاث، مَن يمكن أن تكون قاتلة منهن؟ أية قاتلة؟ أي قتل؟ وشعرت وقتها بوجود جو معين بدأ يظهر ببطء. لا أعتقد بوجود أية كلمة يمكنها أن تعبّر عن ذلك الجو سوى كلمة «الشر». ليس بالضرورة أن تكون واحدة من هؤلاء النسوة الثلاث شريرة، لكنهن كن يعشن بالتأكيد في جو وقع فيه شر وترك ظلاله هناك أو ما زال يتهددهن. كانت كلوتيلد الأكبر سناً أول واحدة فكرت فيها؛ كانت حسنة الشكل قوية، وكانت ذات أحاسيس وعواطف جيّاشة. يجب أن أعترف بأنني رأيت فيها شخصية كليتمنسترا... شعرت أنني يمكن أن أرى في كلوتيلد امرأة قادرة على التخطيط لقتل زوجها وتنفيذ لك!

حاول البروفسور وانستيد كتم ضحكة كادت تغلبه، وكان ذلك بسبب جدية الآنسة ماربل في كلامها. طرفت عيناها قليلاً وهي تنظر إليه ثم أضافت: نعم، يبدو سخيفاً أن أقول مثل هذا الكلام! لكني رأيتها هكذا وهي تقوم بذلك الدور، ولسوء الحظ لم تكن متزوجة. لم تتزوج أبداً ولذلك لم تقتل زوجها! ثم بعد ذلك فكرت في أختها التي قادتني إلى البيت، لافينيا غلين. بدت امرأة لطيفة جداً وحكيمة ومرحة، ولكن للأسف فإن بعض المجرمين والقتلة كانوا يحملون

هذه الصفات نفسها وكانوا يسحرون مَن حولهم! كثير من القتلة مرحون لدرجة أذهلت الناس الذين كانوا يعرفونهم. إنهم ما أسميهم بالقتلة المحترمين، المجرمين الذين يرتكبون جريمة قتل لدوافع منفعية تماماً، دون عاطفة ولكن لتحقيق مكسب معين. لا أظن أن ذلك كان محتمَلاً جداً في حالتنا هذه، ولو كان كذلك لفوجئت كثيراً، لكنني لم أستطع استبعاد السيدة غلين إلى خارج دائرة الشك. كانت متزوجة وكانت أرملة منذ سنوات، ويمكن أن تكون هي. تركت التفكير بها عند ذلك الحد، ثم جئت إلى الأخت الثالثة: آنثيا. كان امرأة مزعجة، وبدت لي مشوّشة الذهن مضطربة التفكير وتعيش حالة من الخوف. كانت خائفة من شيء ما، خائفة جداً من شيء ما. يمكن أن تكون هذه هي المطلوبة. فإذا كانت قد ارتكبت جريمة قتل، جريمة اعتقدت أنها انتهت ومضت، فقد تكون هناك عودة للشكوك أو إحياء لمشكلات قديمة، شيء ربما كان متصلاً بالتحقيق الذي كانت تقوم به إليزابيث تيمبل. ربما أحست بالخوف من إمكانية إحياء جريمة قديمة أو اكتشافها. كانت تنظر إلى من حولها بطريقة غريبة ثم تنظر نظرات حادة من جانب إلى آخر ثم إلى الوراء وكأنها ترى شيئاً يقف خلفها، شيئاً كان يخيفها. لذلك كانت هي الأخرى جواباً محتمَلاً؛ قاتلة مضطربة عقلياً يمكن أن تقتل لأنها تعتبر نفسها مضطهدة، لأنها كانت خائفة.

حسناً، كانت تلك مجرد أفكار، كانت مجرد احتمالات فكرت بها وأنا هناك. لكن جو البيت كان يسيطر عليّ أكثر من قبل، وفي صباح اليوم التالي كنت أمشي في الحديقة مع آنثيا، وعند نهاية الطريق العشبي الرئيسي كانت هناك كومة مرتفعة، كومة نتجت عن تهدّم مستنبَت زجاجي كان قائماً هناك، وقد تهدم نتيجة نقص الترميم

وبسبب نقص في المزارعين بعد انتهاء الحرب، وهكذا تهدّم وانهار وتكوّمت الأحجار والرمال مشكّلة كومة صغيرة زُرعت فوقها نبتة زاحفة معينة، نبتة معروفة يستعملها المرء عندما يريد إخفاء أو تغطية بعض الأجزاء البشعة من المبنى في حديقة. اسمها «عصا الراعي»، وهي واحدة من أسرع النباتات نمواً وإزهاراً وتبتلع وتقتل وتجفف كل شيء تنمو فوقه. إنها تنمو فوق أي شيء، إنها نباتات مخيفة بعض الشيء، ومع ذلك فإن لها أزهاراً بيضاء يمكن أن تبدو جميلة للغاية. لم تكن الأزهار متفتحة بعد لكنها كانت في طريقها لذلك، وقد وقفت هناك مع آنثيا التي بدت حزينة جداً بسبب فقدان بيت النبات الزجاجي. وقالت إن أفضل أنواع العنب كان يزرع فيه، ويبدو أن هذا هو أكثر ما تتذكره عن الحديقة عندما كانت طفلة هناك. وكانت تريد، كانت تريد يائسة الحصول على مال كاف لكي تزيل تلك الكومة وتسوّي الأرض ثم تعيد بناء البيت الزجاجي لتزرعه من جديد بأشجار العنب والخوخ. كنت تشعر بحنين وشوق عارم إلى الماضي، بل كان الأمر أكثر من ذلك. ومرة أخرى أحسست بوجود جو من الخوف كان واضحاً جداً، شيء في الكومة جعلها تخاف. لم أستطع أن أفكّر في حقيقة خوفها في ذلك الوقت.

وتعرفون الذي حدث بعد ذلك؛ كانت وفاة إليزابيث تيمبل ولم يكن هناك شك -من خلال الرواية التي رواها إيملين برايس وجوانا كراوفورد- بأن ثمة استنتاجاً واحداً فقط: لم تكن وفاتها حادثاً، بل كانت جريمة قتل متعمدة. وأظن أنني عرفت الحقيقة منذ تلك اللحظة؛ توصلت إلى نتيجة مفادها أنه توجد ثلاث جرائم قتل. سمعت الرواية كاملة عن ابن السيد رافائيل، ذلك الولد الجانح والسجين السابق، وقد اعتقدت أنه فعل كل هذه الأشياء، لكن واحداً

منها لم يُظهر أنه قاتل أو يحتمل أن يكون قاتلاً. كل الشواهد كانت ضده ولم يساور أحداً الشكّ في أنه قتل الفتاة التي علمتُ أن اسمها فيريتي هنت، ولكن أتى رئيس القساوسة برابازون ليؤكد بشكل نهائي كل توقعاتي؛ فقد كان يعرف هذين الشابين. لقد جاءا إليه وأخبراه بأنهما يريدان الزواج، وقد وافق على تزويجهما على مسؤوليته. كان يشكّ في الحكمة من تزويجهما، لكنه زواج يمكن تبريره بأنهما كانا متحابين. كانت الفتاة تحب الفتى حباً صادقاً، كما اعتقدَ أن الفتى أحب الفتاة حباً صادقاً (على الرغم من سوء سمعته الأخلاقية) وكان يعتزم الإخلاص لها ومحاولة إصلاح نزعاته الشريرة. لم يكن رجل الدين متفائلاً، وأظن أنه لم يصدّق بأنه سيكون زواجاً سعيداً لكنه رأى أنه زواج ضروري، ضروري لأنك إن أحببت حقاً فسوف تدفع الثمن حتى لو كان الثمن خيبة الأمل ومقداراً من الحزن. لكني كنت واثقة من شيء واحد؛ ذلك الوجه المشوّه وذلك الرأس المهشم لا يمكن أن يكون من فعل فتى أحب الفتاة حباً صادقاً، فهذه ليست قصة اعتداء. كنت مستعدة لتبنّي رأي رجل الدين حول تلك المسألة، لكني كنت أعرف أيضاً أنني حصلت على المفتاح الصحيح لحل اللغز، المفتاح الذي أعطتني إياه إليزابيث تيمبل. لقد قالت إن سبب وفاة فيريتي هو الحب... وهي كلمة مخيفة جداً.

كانت واضحة إذن. أعتقد أنني عرفت ذلك منذ وقت طويل، كانت أمور صغيرة فقط غير منسجمة مع الحقيقة العامة، لكنها باتت منسجمة الآن. إنها تنسجم مع ما قالته إليزابيث تيمبل، سبب وفاة فيريتي. قالت أولاً كلمة واحدة: «الحب»، ثم قالت بعد ذلك إن الحب قد يكون كلمة مخيفة جداً. كل شيء كان مرسوماً بالتفصيل وبوضوح. الحب الغامر الذي كانت كلوتيلد تكنّه للفتاة، حب الفتاة

لها الذي يشبه تعلق المراهقين بالأبطال والمشاهير، ثم عندما كبرت الفتاة قليلاً ظهرت غرائزها الطبيعية. أرادت الحب، أرادت أن تنال الحرية لكي تحب وتتزوج وتنجب أطفالاً. وعلى الفور جاءها الفتى الذي يمكنها أن تحبه. عرفت أنه شاب غير موثوق، لكن هذا لا يصرف أية فتاة عن فتاها، بل إن الشابات يُعجبن بالشبّان السيئين ويكنّ واثقات تماماً من أنهن يستطعن تغييرهم!

وقعت فيريتي في حب مايكل رافائيل، وكان مايكل رافائيل مستعداً لبدء صفحة جديدة في حياته بزواجه بهذه الفتاة، وكان واثقاً أنه لن ينظر إلى أية فتاة غيرها بعد ذلك. لا أقول إن هذا يكون دائماً زواجاً سعيداً لكن رجل الدين كان واثقاً من أن ما يجمعهما هو حب حقيقي. وهكذا خططا للزواج، وأعتقد أن فيريتي كتبت لإليزابيث وأخبرتها أنها ستتزوج مايكل رافائيل. لقد رُتِّب الزواج سراً لأن فيريتي كانت تدرك أن ما كانت تفعله هو عملية هروب أصلاً؛ كانت تهرب من حياة لم تعد تريدها، من واحدة أحبتها كثيراً ولكن ليس بالطريقة التي أحبت بها مايكل. وما كانت لتسمح لها بأن تفعل ذلك؛ لن تعطيها الإذن طائعة وستضع أمام زواجها كل العراقيل. ومثل الشباب الآخرين، لا بد أن يهربا.

ولم تكن بهما حاجة للهروب إلى بلاد أخرى للزواج، فهما راشدان ومؤهلان للزواج. ولذلك لجأت إلى رجل الدين برابازون، وهو صديق قديم وحقيقي للفتاة. وتم ترتيب أمر الزفاف وتحديد اليوم والساعة، وربما اشترت سراً بعض الثياب اللازمة للزواج. ولا شك أنه كان عليهما الالتقاء في مكان ما، كان عليهما أن يذهبا إلى الموعد كل واحد على حدة. وأعتقد أنه ذهب إلى هناك لكنها لم تأت، وربما انتظرها، انتظرها ثم حاول أن يعرف لماذا لم تأت، وأعتقد أنه ربما

استلم بعد ذلك رسالة بخطها المزيَّف تقول فيها إنها قد غيرت رأيها وإن كل شيء قد انتهى وإنها ستذهب بعيداً حتى تنسى... لا أدري، ولكن لا أظن أن السبب الحقيقي لتخلفها عن الموعد وعدم إرسالها أي خبر قد خطر في باله أبداً. لم يعتقد أبداً أنها قُتلت بوحشية وقسوة وجنون قتلاً متعمداً، وكيف سيفكر بأمر غريب كهذا؟ لم تكن كلوتيلد لتسمح بفقدان الفتاة التي أحبت، لن تدعها تفلت وتذهب إلى الشاب الذي كانت تكرهه، بل كانت ستحتفظ بفيريتي بطريقتها الخاصة. لكن ما لم أستطع تصديقه أبداً هو أنها خنقت الفتاة ثم شوهت وجهها. لم أعتقد أنها كانت ستتحمل هذا الفعل، لذلك أظن أنها أعادت ترتيب لَبِنات الجدار المتداعي في طرف المستنبَت الزجاجي وألقت عليها أكواماً من الرمال. وكانت الفتاة قد أُعطيت شراباً قاتلاً أو جرعة زائدة من دواء منوم، ثم دُفنت هناك في الحديقة وكُوّمت اللبنات فوق جثتها ثم غُطّيت بالتراب والأعشاب.

- هل شكّت إحدى أختيها بهذا الأمر؟

- لم تكن السيدة غلين هناك في ذلك الوقت، لم يكن زوجها قد مات وكانت تعيش في الخارج. لكن آنثيا كانت هناك، وأظن أن آنثيا قد علمت ببعض ما جرى. لا أعرف إن كانت قد شكّت بحدوث جريمة قتل في البداية، لكنها عرفت أن كلوتيلد كانت تشغل نفسها في عمل رابية صغيرة عند طرف الحديقة لكي تغطيها بالأعشاب والأزهار لتكون منظراً جميلاً، وأعتقد أنها أدركت الحقيقة شيئاً فشيئاً.

وبعد أن قبلت كلوتيلد بالشر وفعلت الشر واستسلمت له لم يعد ينتابها وخز من ضمير فيما ستفعله بعد ذلك. أظن أنها استمتعت بالتخطيط له، كان لها نفوذ ما على فتاة قروية سيئة الأخلاق كانت

تأتيها متسولة من وقت لآخر، وأعتقد أنه كان يسهل عليها أن ترتب موعداً تأخذ فيه الفتاة في رحلة بعيدة تبعد ثلاثين ميلاً أو أربعين. وأظن أنها اختارت المكان مسبقاً، وهناك خنقت الفتاة وشوّهت وجهها وأخفتها تحت التراب والأغصان وأوراق الشجر. ولماذا يشكّ أحد في أنها فعلت هذا الفعل؟ وضعت حقيبة فيريتي بجانبها بالإضافة إلى سلسلة ذهبية صغيرة كانت فيريتي معتادة على لبسها حول رقبتها، وربما ألبستها ثوباً من ثياب فيريتي... كانت تأمل أن لا تُكتشَف الجريمة إلا بعد وقت طويل، لكنها نشرت في غضون ذلك الإشاعات عن مشاهدة نورا برود في سيارة مايكل في منطقة قريبة وروّجت أن الفتاة كانت تخرج مع مايكل، وربما كانت هي التي نشرت قصة فسخ فيريتي خطوبتَها بسبب علاقته الآثمة بهذه الفتاة... وأعتقد أن كل شيء قالته استمتعت به. مسكينة هذه المرأة!

- لماذا تقولين إنها مسكينة يا آنسة ماربل؟

- لأنني لا أظن أن هناك ألماً أكبر مما عانته كلوتيلد طوال هذا الوقت. لقد مضت عشر سنوات الآن وهي تعيش في حزن أبدي، تعيش مع الشيء الذي كان يتوجب عليها أن تعيش معه. لقد احتفظت بفيريتي، احتفظت بها هناك في بيت العزبة القديمة، في الحديقة، وضعتها هناك إلى الأبد! لم تدرك في البداية ما كان يعنيه ذلك، اشتياقها الغريزي لأن تعود الفتاة إلى الحياة ثانية. لا أظن أنها عانت من الندم... لم تشعر حتى بذلك العزاء. لقد عانت فقط، واستمرت معاناتها سنة بعد أخرى. الآن عرفتُ ما قصدته إليزابيث تيمبل، ربما أفضل مما كانت تعرفه هي: إن الحب رهيب جداً، إن بوسعه أن يفضي إلى الشر، بل يمكن أن يكون من أكثر الأشياء شراً. كان عليها أن تتعايش مع تلك المعاناة يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى. وأظن أن

آنثيا كانت خائفة من هذا، أظن أنها كانت تعرف أكثر فأكثر ما فعلته كلوتيلد، وقد ظننت أن كلوتيلد عرفت أنها تعرف، وكانت خائفة ممّا قد تفعله كلوتيلد. أعطت كلوتيلد ذلك الطرد لآنثيا لتضعه في البريد، الطرد الذي فيه السترة، وقالت لي أشياء عن آنثيا، أنها كانت مضطربة عقلياً وأنها إذا عانت من الغيرة والاضطهاد فإنها ستفعل أي شيء. أعتقد، نعم... أعتقد أن شيئاً كان سيحدث لآنثيا في المستقبل القريب... انتحار بسبب الشعور بالذنب مثلاً.

سألها السير آندرو: ومع ذلك فأنت تشعرين بالأسف على تلك المرأة؟ إن الشر الخبيث مثل السرطان والورم الخبيث، إنه يجلب المعاناة.

قالت الآنسة ماربل: بالطبع.

قال البروفسور وانستيد: أعتقد أنهم أخبروك بما حدث تلك الليلة بعد أن أخرجتك الآنسة كوك من الغرفة؟

- أتقصد ما حدث مع كلوتيلد؟ أذكر أنها أمسكت بكأس الحليب الذي كان بجانب سريري، كانت تحمله عندما أخرجتني الآنسة كوك من الغرفة وأعتقد أنها... شربته. أليس كذلك؟

- بلى، هل كنت تعرفين أن هذا قد يحدث؟

- لم أفكر فيه، لا، ليس في تلك اللحظة. أظن أنني كنت سأعرف لو فكرت فيه.

- لا أحد كان سيمنعها. كانت سريعة في عملها ذاك، كما أن أحداً لم يدرك تماماً وجود شيء غير عادي في الحليب.

- وهكذا شربته.

- هل يدهشك هذا؟

- لا، كان من شان ذلك أن يبدو لها أمراً طبيعياً. لقد وصلت في تلك اللحظة إلى مرحلة أرادت فيها الهروب... مع جميع الأشياء التي كان عليها أن تعيش معها. تماماً كما أرادت فيريتي أن تهرب من الحياة التي كانت تعيشها. أليس غريباً أن يكون الجزاء من جنس العمل؟

- كأنك تشعرين بالأسف عليها أكثر من أسفك على الفتاة التي ماتت؟

- لا، إنه نوع مختلف من الأسف. أنا آسفة على ما حدث لفيريتي لأنها فقدت كل شيء وآسفة على ما كانت على وشك أن تحصل عليه، حياة الحب والإخلاص وخدمة الرجل الذي اختارته والذي أحبته بصدق. لقد فقدت كل هذا ولا شيء كان سيعيده إليها. إنني آسفة عليها بسبب ما لم تحصل عليه، لكنها هربت من المعاناة التي أصابت كلوتيلد، الأسف والبؤس والخوف والشر المتنامي... كان على كلوتيلد أن تعيش مع كل هذه الأشياء، الأسف والحب المحبط الذي لن تستعيده أبداً، وكان عليها أن تعيش مع شقيقتيها اللتين كانتا تشكّان فيها وتخافان منها، وكان عليها أن تعيش مع الفتاة التي وضعتها هناك.

- أتقصدين فيريتي؟

- نعم، فيريتي التي دُفنت في الحديقة في قبر أعدته كلوتيلد. كانت هناك في بيت العزبة القديمة، وأظن أن كلوتيلد ربما خُيِّل إليها

أنها رأتها في بعض المرات وهي تخرج إلى الحديقة لتجمع حزمة من أزهار عصا الراعي. لا بد أنها أحست أنها قريبة جداً من فيريتي وقتها، فهل يمكن أن يحدث لها ما هو أسوأ من ذلك؟ لا شيء أسوأ منه!

* * *

الفصل الثالث والعشرون

الأجزاء الأخيرة

قال السير آندرو ماكينكل بعد أن ودّع الآنسة ماربل وشكرها: هذه السيدة أطارت صوابي.

قال مساعد المفوض: إنها رقيقة جداً... وقاسية جداً.

أخذ البروفسور وانستيد الآنسة ماربل إلى سيارته التي كانت في انتظاره ثم عاد ليتبادل بضع كلمات أخيرة.

- ما رأيك بها يا إدموند؟

قال وزير الداخلية: لم أر امرأة مخيفة مثلها أبداً.

قال البروفسور وانستيد متأملاً: انتقام العدالة!

قال المدعي العام: هاتان المرأتان، العميلتان السريتان اللتان كانتا تحرسانها، لقد قدمتا وصفاً غريباً جداً لها الليلة الماضية. لقد دخلتا إلى البيت بسهولة تامة واختبأتا في غرفة صغيرة أسفل الدرج إلى أن صعد الجميع للنوم، ثم دخلت إحداهما إلى غرفة النوم ثم إلى داخل الخزانة بينما بقيت الأخرى خارج الغرفة للمراقبة. وقد قالت

تلك التي كانت في غرفة النوم إنها عندما دفعت باب الخزانة وخرجت منه رأت السيدة العجوز جالسة في سريرها وهي تلفّ حول رقبتها وشاحاً وردياً رقيقاً وكانت قسمات وجهها هادئة تماماً وتتحدث كأنها معلمة عجوز... لقد أثارت دهشتهما.

قال البروفسور وانستيد: وشاح وردي رقيق؟ نعم، نعم، أتذكّر...

- ماذا تتذكر؟

- العجوز رافائيل. لقد حدثني عنها، ثم ضحك. قال إن هناك شيئاً لن ينساه في حياته أبداً، وقال إن ذلك حدث عندما جاءت امرأة عجوز مشوَّشةُ الذهن غريبةُ الأطوار تركض إلى غرفته في جزر الهند الغربية وتلف حول رقبتها وشاحاً وردياً رقيقاً، وتخبره بأن عليه أن ينهض وأن يفعل شيئاً ليمنع وقوع جريمة. وقال لها: ماذا تظنين بربك أنك فاعلة؟ فردت عليه قائلة إنها ستلعب دور «انتقام العدالة». انتقام العدالة! وقال إنه لم يستطيع تصوّر شيء أبعدَ شبهاً بذلك من هذه العجوز.

ثم قال البروفسور وانستيد متأملاً: أحب لمسة وشاح الصوف الوردي، أحب ذلك كثيراً.

* * *

قال البروفسور وانستيد: مايكل، أريد أن أعرّفك بالآنسة جين ماربل التي عملت لصالحك بنشاط كبير.

نظر الشاب ابن الثانية والثلاثين إلى المرأة العجوز ذات الشعر

الأبيض نظرات ارتياب، ثم قال: آه، إن... أظن أنني سمعت عنها. أشكرك كثيراً.

ثم نظر إلى وانستيد وقال: أليس صحيحاً أنهم سيصدرون عفواً عنّي أو شيئاً كهذا؟

- بلى، سيصدر قرار في الحال؛ ستكون حراً خلال مدة قصيرة جداً.

- آه.

بدا مايكل مرتاباً بعض الشيء. قالت الآنسة ماربل بلطف: أظن أنك سوف تستغرق بعض الوقت حتى تعتاد الحياة الجديدة.

نظرت إليه نظرات متأملة. كانت تنظر إليه وهي تتخيل كيف عساه كان قبل عشر سنوات. ما زال وسيماً جداً رغم الإجهاد الكبير الذي بدا عليه، ورأت أنه كان جذاباً جداً ذات مرة. كان وقتها شاباً مرحاً دون شك وفيه سحر، وقد فقد ذلك الآن لكن ربما سيعود إليه. له فم صغير وعينان جذابتان تنظران إلى المرء مباشرة، وربما كانتا مفيدتين جداً في الكذب حتى تجعلانك تصدقه. إنه يشبه كثيراً... من؟ غاصت في الذكريات الماضية. يشبه جوناثان بيركين بالطبع؛ كان يغنّي مع جوقة المرتلين وله صوت صادح ممتع، وكانت الفتيات مولعات به! كان يعمل في وظيفة جيدة موظفاً في شركة غابريل، وللأسف فقد وقعت هناك تلك المشكلة الصغيرة المتعلقة بالشيكات.

قال مايكل مرتبكاً: آه، إنه لطف منك لأنك قاسيت كل هذه المتاعب.

قالت الآنسة ماربل: لقد استمتعت بها، وأنا سعيدة بلقائك. وداعاً، أرجو لك حياة سعيدة في الأيام القادمة. إن بلادنا تعاني من مشكلات كبيرة الآن لكنك ستجد وظيفة قد تستمتع بها.

- آه، نعم. أشكرك، أشكرك كثيراً، أنا ممتنّ لك كثيراً.

قالها وهو ما زال غير واثق من الأمر، فقالت الآنسة ماربل: كان يجب أن تشكر شخصاً غيري؛ كان يجب أن تشكر والدك.

- أبي؟ إن أبي لم يفكر بي كثيراً.

- فيما كان والدك يحتضر صمّم على ضرورة حصولك على العدالة.

- العدالة؟

فكر مايكل رافائيل بتلك الكلمة طويلاً.

- نعم، لقد رأى والدك أن العدالة مسألة مهمة. أظن أنه كان رجلاً عادلاً جداً، وفي الرسالة التي كتبها لي طالباً مني فيها تولي هذا العمل قال لي: فلتتدفق العدالة قوية كالشلال، وليتدفق الحق كنهر دائم.

ثم فتحت الآنسة ماربل طرداً كانت تحمله وقالت: لقد أعطوني هذه. اعتقدوا أنني ربما كنت أريدها لأنني ساعدتهم في اكتشاف حقيقة ما حدث، لكني أعتقد أنك أول من يحق له المطالبة بها... هذا إن كنت تريدها فعلاً. ولكن ربما كنت لا تريدها.

أعطته صورة فيريتي هنت التي عرضتها كلوتيلد عليها وهي في غرفة الاستقبال في بيت العزوبة القديمة. أخذها ووقف يحدق إليها،

وتغيرت قسمات وجهه وهدأت ثم تصلبت. وراقبته الآنسة ماربل دون أن تتكلم. استمر الصمت بعضاً من الوقت، وراقبه البروفسور وانستيد أيضاً... راقبهما معاً، السيدة العجوز والفتى.

عرف -بطريقة ما- أن تلك كانت أزمة، لحظة قد تؤثر على أسلوب جديد في الحياة. ثم تنهّد مايكل رافائيل ومدّ يده وأعاد الصورة إلى الآنسة ماربل قائلاً: لا، أنت على حق، لا أريدها. لقد مضت تلك الحياة كلها... لقد رحلت. لا أستطيع أن أبقيها معي، وأي شيء أفعله الآن يجب أن يكون جديداً... إلى الأمام.

تردد وهو ينظر إليها ثم قال: أتفهمين؟

- نعم، أفهم، وأظن أنك على حق. أتمنى لك حظاً سعيداً في حياتك الجديدة.

ودّعها ثم خرج، وقال البروفسور وانستيد: إنه شاب يفتقر إلى الحماسة، كان عليه أن يشكرك بحماسة أكثر لما فعلته من أجله.

قالت الآنسة ماربل: آه، لا بأس بهذا. لم أتوقع منه أن يفعل ذلك، ولو فعل لأربكه ذلك كثيراً. عندما يضطر شخص لأن يشكر الناس ويبدأ حياة جديدة ويرى كل شيء من زاوية مختلفة فإنه يشعر بحرج شديد. أعتقد أنه سينجح في حياته، إنه لا يشعر بمرارة تفسد حياته وهذا هو أهم شيء. لقد عرفت جيداً لماذا أحبته تلك الفتاة.

- حسناً، ربما سيعيش حياة مستقيمة هذه المرة.

- أشك في ذلك! لا أعرف إن كان سيستطيع تمالك نفسه إلاّ إذا... بالطبع، إن أكثر ما نتمناه له هو أن يلتقي بفتاة لطيفة.

- إن ما يعجبني فيك هو تفكيرك العملي الذي يبعث على السرور.

* * *

قال السيد برودريب مخاطباً السيد شوستر: ستكون هنا في الحال.

- نعم. إن ما حدث غريب جداً، أليس كذلك؟

- لم أصدقه في البداية. عندما كان المسكين رافائيل يحتضر اعتقدت أن هذا الأمر كله كان مجرد تخريف منه، رغم أن سنّه لم يكن قد بلغ به مرحلة الخرف.

رنّ جرس الهاتف الداخلي، فرفع السيد شاستر السماعة وقال: آه، هل وصلت؟ لتتفضل إلى هنا.

ثم قال: لقد وصلت. أنا متحير الآن، فهذا أغرب ما سمعته في حياتي؛ إرسال عجوز لتدور في الريف بحثاً عن شيء لا تعرف هي ما هو! إن الشرطة يعتقدون أن تلك المرأة لم ترتكب جريمة واحدة فقط بل ثلاث جرائم! كانت جثة فيريتي هنت تحت الركام في الحديقة، تماماً كما قالت السيدة العجوز، وهي لم تُخنَق ولم يكن وجهها مشوَّهاً.

قال السيد برودريب: يدهشني كيف أن السيدة العجوز نفسها لم تقتل! إنها كبيرة بالسن ولا تستطيع الاهتمام بنفسها.

- كان معها اثنتان تحرسانها.

- ماذا، اثنتان؟

- نعم، لم أعرف هذا من قبل.

أشير للآنسة ماربل بالدخول إلى غرفتهما. وقال السيد برودريب وهو ينهض لتحيتها: تهانينا يا آنسة ماربل.

قال السيد شاستر وهو يصافحها: لكِ منّا أطيب التهاني، لقد كان عملاً رائعاً.

جلست الآنسة ماربل على الجانب الآخر من المكتب رابطة الجأش، وقالت: كما أخبرتكما في رسالتي، أظن أنني أنجزت شروط العرض والمهمة التي أوكلت إليّ. لقد نجحت فيما طُلب مني عمله.

- آه، أعرف. نعم، لقد سمعنا بهذا، سمعنا من البروفسور وانستيد ومن الدائرة القانونية ومن الشرطة... نعم، كان عملاً رائعاً يا آنسة ماربل، ونحن نهنئك عليه.

قالت الآنسة ماربل: كنت أخشى أن لا أتمكن من فعل ما طلب مني، فقد بدا في البداية عملاً صعباً جداً، بل مستحيلاً إلى حد ما.

- نعم، لقد بدا مستحيلاً بالنسبة لي، ولا أعرف كيف قمت بهذا العمل يا آنسة ماربل.

- آه، إن المثابرة هي التي تؤدي إلى النتائج.

- والآن بخصوص المبلغ المحفوظ عندنا، إنه ملك لك الآن تأخذينه متى شئت. لا أدري إن كنت تريدين منّا أن نودعه في حسابك المصرفي أو ربما تريدين استشارتنا بخصوص استثماره؟ إنه مبلغ كبير جداً.

قالت الآنسة ماربل: عشرون ألف جنيه. نعم، إنه مبلغ كبير جداً حسب تفكيري، مبلغ غير عادي.

- إن كنت تريدين أن نعرّفك بسماسرتنا فيمكن أن يعطوك أفكاراً حول الاستثمار.

- آه، لا أريد استثمار أي جزء منه.

- لكنه سيكون بالتأكيد...

- لا معنى لأن أدّخر هذا المبلغ في مثل هذا العمر. أقصد أن الغرض من هذا المال (وأنا واثقة أن هذا ما كان يريده السيد رافائيل) هو الاستمتاع ببعض الأشياء التي ما كنت أملك المال للاستمتاع بها.

قال السيد برودريب: حسناً، أفهم ما ترمين إليه. إذن تريدين منّا أن نودع المبلغ في حسابك البنكي؟

- بنك ميدلتون، ١٣٢ هاي ستريت، سينت ميري ميد.

- أظن أن لديك حساب توفير هناك، فهل نودعه فيه؟

- بالتأكيد لا؛ بل ضعه في حسابي الجاري.

- ألا تعتقدين...

- بل أعتقد؛ أريده في حسابي الجاري.

نهضت وصافحتهما.

- يمكنك طلب نصيحة مدير مصرفك يا آنسة ماربل. المرء لا يدري متى يأتي اليوم الأسود الذي يحتاج فيه النقود.

قالت الآنسة ماربل: لن أحتاج إلى نقود إذا جاء اليوم الأسود.

صافحتهما مرة أخرى وقالت: أشكرك كثيراً يا سيد برودريب، وأنت أيضاً يا سيد شوستر. لقد كنتما لطيفَين معي كثيراً وأعطيتماني كل المعلومات التي كنت أحتاجها.

- هل حقاً تريدين منّا أن نودع نقودك في حسابك الجاري؟

- نعم. سأنفقها، سوف ألهو بها وأستمتع.

نظرت وراءها وهي عند الباب ثم ضحكت، وللحظة واحدة انتاب السيد شوستر (الذي كان يمتلك خيالاً أوسع من خيال السيد برودريب) انتابه شعور غامض بفتاة شابة جميلة تصافح الكاهن في إحدى الحفلات التي أقيمت في الريف. وأدرك بعد لحظات أن ذلك كان استذكاراً لشبابه، لكن الآنسة ماربل ذكّرته بتلك الفتاة، فتاة شابة وسعيدة وتريد أن تمتع نفسها.

قالت الآنسة ماربل وهي تخرج من الباب: لقد أرادني السيد رافائيل أن أستمتع.

قال السيد برودريب: انتقام العدالة! هكذا وصفها السيد رافائيل. انتقام العدالة، هل رأيت أشبه منها بهذا المفهوم؟

هز السيد شوستر رأسه نافياً، فقال السيد برودريب: لا بد أنها واحدة أخرى من مزحات السيد رافائيل الصغيرة.

* * *